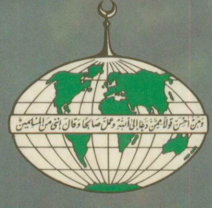
عبد اللطيف احمد الشّويرف

نماذج وصور



جمعية الدعوة الإسلامية العالمية

نماذج وصور

عبد اللَّطيف أحمد الشّويرف

نماذج وصُوَر

الطبعة الأولى

رقم الإيداع: 3287 / 98 ـ دار الكتب الوطنية ـ بنغازي

مكتب الإعلام والبحوث والنشر
بجمعية الدعوة الإسلامية العالمية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

المقدّمة

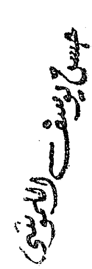
الحمد لله حمداً يليق بجلال وجهه وعظيم سلطانه، والصَّلاة والسَّلام على أشرف خلقه وخاتم أنبيائه، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهديه وعمل بسنّته واسترشد ببيانه.

وبعد:

فهذه أوراق قديمة كتبتُها في مناسباتٍ مختلفة يعود العهد بمعظمها إلى أكثر من ثلث قرن، حيث كان الشّبابُ غَضّاً والفكرُ مُتَوَثِّباً، والحماسةُ مُلْتَهِبَة، والقلبُ شجاعاً، والوطنيّةُ غامِرَة، والقلمُ جريئاً، والأملُ في المستقبل كبيراً.

وقد قمتُ منذ زمن طويل بمراجعة هذه الأوراق وتعديلها والتوسُّع فيها تمهيداً لنشرها، ولكن تأخّر صدورها لأسباب أعترف بأنَّ بعضها يرجع إلى كَسَلي وفُتور هِمّتي، ولم يُيَسّر لها الله أن ترى النُّور إلاَّ في هذا الكتاب، وإنْ كان كثير منها قد نُشِرت أصولُه الأولى في جريدة «اللّيبيّ» الغرّاء بين سنتي 1959 و1960.

ويميّز هذه الأوراق ثلاثةُ أمور:



الأمر الأوّل : أنّ موضوعاتها هي الّتي فرضَتْ نفسها عليّ ولم أفرِضْ نفسي عليها، وكانت تُلِحُّ عليّ إلحاحاً شديداً لا أستريح من ضغطه

حتَّى أُدوِّنَ خواطري فيها، وأَكتُبَ ما هَيَّأ الله لي أنْ أكتبَه من إيحاءاتها.

الأمر الثّاني : أنّ إلحاح هذه الموضوعات عليّ جعل لها أسلوباً خاصّاً، يتمثّل في الاهتمام بديباجَته، والعناية بجَرَسه، وإعطاء جانب التّصوير والتّشبيه فيه حظّاً وافراً.

وأنا في هذا الأسلوب لم أَقعْ في سَماجة التّكلُّف ـ على ما أظنّ ـ، ولم أُرْغِمْ كلمة أو جملة لم تأت بنفسها طواعِيَة، ولم أكتبْ إلاَّ ما كان يُمْلِيه الخاطِرُ بلا عسر، وإلاَّ ما تقتضيه أصولُ صنعة الكلام بلا تَقَعُّر في اللّفظ ولا تَمَحُّل في التّركيب. وهذا هو السَّبب في أنّ بعض الكلام جاء مسجوعاً، وبعضه جاء غير مسجوع، واعتَمَد بعضُه على اللّقطات السّريعة، وبعضُه على المفارَقات والمقابلات، وبعضُه على الوصف والتّصوير، لأنّي كنتُ أكتب ما يجري به القلم بلا حرص على السَّجْعَة أو غيرها، وأُسَجِّل ما أسمعه من صوت نفسي وخاطري بلا توقُّف ولا تأخير، فما جاء بطبيعته مسجوعاً سجّلته مسجوعاً، وما جاء غير ذلك سجّلتُه على ما جاء به.

الأمر الثّالث : أنّ موضوعات هذه الأوراق القديمة مرتبطةٌ بأحداث ووقائع كانت حيّة، وبنماذجَ وشخصيّات كانت متحرّكة تجوس خلال المجتمع. وحتّى الموضوعات الّتي لم تُذْكَر مناسبتُها، أو الّتي كان للخيال فيها نصيب، أو الّتي اتّسمتْ بشيء من المبالغة في التّشبيهِ لتوضيح الصّورة وتشويق القارئ، أو الّتي تخلَّلَتْها مُفارَقاتٌ ودُعابةٌ من أجل إضفاء جوّ المرح، هي في معظمها متَّصلةٌ اتّصالاً وثيقاً بواقع كُتِبتْ فيه، وبنماذجَ بشريّةٍ كانت تعيش في المجتمع اللّيبيّ أو قريب منه.

وهذا من شأنه أن يُقَدِّمَ للأجيال الّتي لم تحضُرْ ذلك الواقعَ ولم تعرِفْ

تلك النّماذج، صورةً عنها وعن أخلاقيّاتها وسلوكها، وبعضَ الملامح لمرحلة من المراحل الّتي مرّتْ بها بلادُنا العزيزة.

ولستُ في حاجة إلى تذكير القارىء الكريم بأن يَنْظُرَ إلى ما جاء في هذه الأوراق من بعض الأوصاف والصُّوَر، من خلال حرارة السّنّ الّتي كُتِبَتْ فيها، وعُنْفُوان الشّباب الّذي كانتْ مندفعةً به، وليس من خلال بُرودة الشّيخوخة الّتي تَغْمُرني الآن بشَيْبها، وتُقَيِّدُني بوَقارها وَرَزانَتِها.

وإذ أضع هذه الأوراق القديمة بين يديك أيّها القارىء الكريم، آمُل أن تجدَ فيها شيئاً ممّا قَصَدْت، وأن تنالَ استحسانك إن لم تنلْ رضاك التّامّ، وأن تُظْهِرَ وجهاً من أوجه كتابتي قد يكون غير معروف لدى بعض النّاس.

والله وليّ الهداية والتّوفيق، وهو حسبي ونعم الوكيل.

عبد اللّطيف أحمد الشّويرف

عمر المختار (*)

أخو البَداوةِ تَنفَّسَ هواءَها النَّقِيّ، ورفيقُ الجبل تَرَعْرَعَ في رُبوعه الخُضْر، وابنُ العُروبة رَضَعَ من لِبانِها الحُرّ، وطالِبُ «الزّاوية» تَتَلْمَذَ في مدرسة القرآن.

لم يتخرّجْ في كلّيّةٍ سوى كلّيّةِ الحياة، ولم يتلَقَّ توجيهاً غيرَ توجيه السَّماء، ولم يتشَبَّع بروحٍ سوى روح الإسلام وسِيرَةِ رسوله الكريم.

قائدٌ مِغْوارٌ وإنْ لم تُثْقِلْ صدرَهُ الأوْسِمَةُ والنَّياشينُ، وعسكريٌّ عَبْقَريٌّ وإنْ لم ترتَفِعْ على عاتقه التّيجانُ والنّجومِ، ومقاتِلٌ مُحَنَّكٌ وإنْ لم يحمِلْ شهادةَ الأركان.

اقْتَحَمَ المعاركَ الضّارِيةَ بقلب الشّجعان، وناضلَ العدوَّ الباغيَ بقوّة الحقّ المبين، وتَسلّح بالإيمان والثّقةِ بالله قبل أنْ يتسلَّحَ بسلاح النّار والحديد.

أَمَرَه دينُه بالجهاد فَنَفَرَ ولم يَثَّاقَلْ إلى الأرض كما يثَّاقَلُ المنافقون، وأغْرَتْه الآخرةُ بنعيمها فآثَرَها ولم يسْتَبْدلْ بها مَتاعَ الدّنيا كما يفعل المُتْرَفون،

(*) نُشِر الأَصل في العدد 98 من جريدة «اللّيبيّ» بتاريخ 17/ 9/ 1959 بمناسبة الذّكرى الثامنة والعشرين لاستشهاد شيخ الشهداء.

ودعاه وطنُه إلى التّضحية فلَبّى ولم يَبْخَلْ عليه بثمن كما يبخَل الخانِعون، وأَبَتْ نفسُه عليه أن تُضامَ وتُسْتَصْغَرَ لأنّه حرٌّ، والحرُّ لا يَبيتُ على ضَيْمٍ ولا ينام على صَغار.

ما كان يخشَى إنْ نَزَلَ على الموت أو نَزَلَ الموتُ عليه، وما كان يُفَضِّلُ أنْ تُكْتَبَ له السَّلامةُ على أن يُكتَبَ في سِجِلّ الشّهداء، وما كان يَسْأَلُ أجراً على جهاده من أحد لأنّه كان يَحْتَسِب أجرَه عند الله.

كان تقيّاً يَشِعُّ نورُ الإيمان من وَجْنَتَيْه، وكان سَمْحاً تُطِلُّ براءةُ قلبه من عينيْه، وكان مَهيباً تنطِقُ ملامحُ وجهه بالوَقار، وكان جليلاً يُذكِّرُك منظرُه بسَلَف الأمّة الأطهار.

كان عزيزَ النّفس لم يَبْتَذِلْها لمخلوق، وكان نظيفَ اليد لم يُلَوِّثْها بكسْبٍ حرام، وكان طاهرَ الذّيْل لم يُشَوِّهْهُ برذيلة.

كان حَيِيّاً كحياء الحسناء في خِدْرِها، وكان وَرِعاً لا يدخُلُ البيوتَ من غير أبوابها، وكان مُتواضعاً لا يُمَيِّزُه الغريبُ عن رِفاقه الميامين.

كان صافيَ السّريرة كصَفاء السّماء من فوقِه، وكان كريمَ الْجِبِلَّة ككرم الطّبيعة البِكْر مِنْ حوْلِه، وكان لَطيفَ الْمَعْشَرِ يَسَعُ كلَّ النّاس بمعروفه.

لكنّه كان مع أعدائه شديداً يجدون فيه غِلْظَة، وكان في موقفه منهم عنيداً لا تلينُ له قَناة، وكان في حربه عليهم جحيماً يَصُبُّ من فوق رؤوسهم الحميم، وكان لهم شَبَحاً مُرْعِباً باللّيل وهاجِساً مُفْزِعاً بالنّهار.

كان هادئَ الطّبع، لكنّه كان في المعركة بُرْكاناً ثائراً يَرْمِي بالشَّرَر. وكان كثيرَ الصَّمْت، لكنّه كان يُجيدُ بلغة الرّصاص كلاماً ينطِقُ بالدُّرَر. وكان مُثْقَلاً بِحِمْل السّنين، لكنّه كان يندفع في القتال بنشاطٍ يَعْجزُ عنه ابنُ العشرين.

كان جَلْداً لا تَنالُ من عَزْمه نَكباتُ الزّمان. وكان حكيماً يرى الأُمورَ بمِنْظار العقل السّديد. وكان رزيناً لا يَسْتَخِفُّه نَصْرٌ ولا تُخْرِجُه عن طَوْره هزيمة.

هدَّدَهُ أعداؤه بالبأْس والتّنكيل إنْ لم يكُفَّ عنهم فقال: ﴿وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا﴾. وأَغْرَوْهُ بالمال والمنْصِب إنْ مالَ إليهم فقال: ﴿وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾. وَوَعدوه بالنّجاة من الموت إنِ اسْتَسْلَمَ لهم فقال: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا﴾.

وَلَمّا حُمَّ القضاءُ وحانَ وقتُ الرُّجْعَى والإياب، وقَرُبتْ نهايةُ الأجل ولكلّ أجلٍ كتاب، هَوَى البطلُ الصِّنديدُ كما يَهْوِي النّجمُ الثّاقبُ يَرْجُمُ الشّياطين، وسَقَطَ الفارسُ الجسورُ عن فَرَسِه كما يَسْقُط الشّجاعُ مَرْفوعَ الجبين، ووقَعَ الأسدُ في شَرَكِ الخديعة بعد أن عَجَزوا عنه في حَوْمَة النِّزال.

وقيَّدوا يَدَي الغَضَنْفَرِ ورِجْلَيْهِ بالأغلال ولم يُقيِّدوا إرادَتَه، وحَبَسوا الصَّقْرَ الحُرَّ في القَفَص وَلَم يَحْبِسوا روحَه، وأسْكتوا بُنْدُقِيَّةَ المجاهد الجريء ولم يُسْكِتُوا صوتَ رمْزِه العظيم.

وظنَّ آسِرُوه أنَّهم طَوَوْا صفحتَه، وما عَلِموا أنّهم جَعلوه كتاباً مفتوحاً لكلّ الأجيال. وتوهَّمُوا أنّهم أخْمَدُوا جَذْوَتَه، وما دَرَوْا أنّهم أضْرَموها في خَبايا النّفوس. وحَسِبوا أنّهم رَسَمُوا خطّاً لنهايته، وجَهِلوا أنّهم كتبوا له الحياة وأَدْرجوه في قائِمة الخالدين.

وقابلَ البطلُ المِحنةَ كما يُقابِلها أُولُو العَزْم، وثَبَتَ في أَسْرِه كما يَثْبُتُ الجبلُ الأخضرُ الأشَمّ، واحْتَفَظَ برَباطَة جَأْشِه حتّى لكأنَّ السَّكينةَ سَكَنَتْ فيه، وظلَّ الإيمانُ يَعْمُرُ قَلْبَه فما وَهَنَ لِمَا أصابه في سبيل الله وما اسْتَكانَ لجلّاديه.

واسْتَشْعَرَ وهو في سجنه الأُنْسَ يَغْمُرُ وِجْدَانَه على الرّغم من وَحْشَةِ وَحْدَتِه، وشَمَّ عبيرَ الجنَّة يُعَطِّرُ جَوَّهُ على الرّغم من اختناق زَنْزانَتِه، وتمثَّلَ أمَامَه مَنْ سَبقوه على دَرْب النور، فَعَظُمَ شَوْقُه للالتحاق بالأحياء الّذين عند ربّهم يُرْزَقون.

ونافَقَ سفّاحوه العدالةَ فحاكموه محاكمةَ خِداع، وادَّعَوُا الرَّحمةَ زَيْفاً فمنحوه حقَّ الدّفاع، فكانت منهم تمثيليَّةٌ سيّئةَ التّأليف والإخراج، ومَهْزَلَةً مفضوحةً ثقيلةَ الظّلّ والمِزاج، وتصويراً رديءَ الالتقاط، قَبيحَ الطّبْع، خبيثَ التّحميض.

ونَضَبَتْ وُجوهُهم من ماء الحياء فَرَمَوْه بالخيانة ولم يَخْجَلوا من شَيْبَته، واشْتَطّوا في التّعصُّب والحقد فاتّهموه بإخلاصه وأدانوه بوطنيّته، وداسوا على شرف الجنديّة وأخلاق الفروسيّة فقضَوْا عليه بالموت وهو الأعْزَلُ الأسير.

ونَصَبوا الأعوادَ لتعليقهِ فكأنّهم على هامات المجد رَفَعوه، ولَفُّوا الحبل حول عُنُقه فكأنّهم بإكلال الشّرف طوّقوه، وودَّعتْه النِّسوةُ بزَغارِيدها فكأنَّهم إلى عِرْس زَفُّوه.

فهو عُلُوٌّ في الحياة وفي الممات، وحُرّيّةٌ في الأَسْر ويُسْرٌ في العُسْر، ونِعمةٌ في النّقمة ونورٌ في الظُّلمة، ورَحابَةٌ في الضّيق وبَرْدٌ في الحريق.

وأخيراً ذهبَ الحمارُ بأُمّ عَمْرٍو وبَقِيَ عُمَر، وانتزَعَتْ يدُ البغْي الزّهرةَ ولم تَقْضِ على شَذَا العِطْر، وفرّتْ جحافِلُ الظّلام يُطارِدُها ضوءُ الفجر الجديد.

وانتصر أحفادُ المختار وأَخَذوا له بالثّأر، وانْجَلَتْ سحائبُ الغُمّة وظهرتْ شمسُ النّهار، وباءَ السّفّاحون بلعنة التّاريخ وفَرِحَ المؤمنون بنصر الله.

فاتَّخِذوا من ذكرى عمر المختار عبرةً فإنّ الذّكرى تنفعُ المؤمنين، واقْتَبِسوا من سيرته دروساً فإنّه مِثالٌ لصدق المجاهدين، وكُونوا به بَارِّين بالسَّيْر على منهاجه، والتّشبُّع بروحه في التّضحية والفداء.

ورحمةً من الله تتنزّلُ على روح شيخ الشُّهداء في يوم ذكراه، وسلاماً عليه يومَ وُلِد ويومَ استُشْهِد ويومَ يَبْعَثُه مولاه.

منافق(*)

مَغشوشُ البضاعة يَبيعُها بطُرُق الخديعة والدَّهاء، ومُزَوِّرُ العُمْلَةِ يُرَوِّجُها خُفْيةً في السّوق السَّوْداء، ورَدىءُ الصِّناعة يُغَطِّي عُيوبَها بالكذب والتّمْويه.

لسانُه يغْزِل الحريرَ وقلْبُه يغْزِلُ الشَّوْكَ والْقَتاد، وفَمُه يَقْطُرُ بعسل النّحل وصدرُه ينفُثُ سُمَّ الأحقاد، وظاهرُه تبدُو منه الرَّحمةُ وباطنُه من قِبَلِه العذاب.

تستجيبُ له الدّمْعَةُ حين يستَدْعيها للبكاء، وتُسْرِعُ إليه الضَّحْكةُ حين يحتاجُ إلى الضَّحِك، ويُسْعِفُه الوقارُ حين يريد التّلبُّسَ بالوقار.

مُمَثِّلٌ ماهرٌ يتقَمَّصُ كلَّ الأدوار الّتي تُسْنَدُ إليه، و«زَرْبوط» سريعٌ يُديرُه كلُّ خيْط يَلْتَفُّ عليه، ومُهَرِّجٌ بارعٌ يُتْقِن كلَّ الحركات في ساحة الألعاب، وثعلبٌ ماكر لا تُفْلِتُ منه فريسةٌ في الغاب.

جُرثومةٌ لا تعيش إلاّ في الْمبَاءَة الْقَذِرَة، وصُرْصُورٌ لا ينْتَعِشُ إلاّ برائحة المجاري النَّتِنَة، وخَفّاشٌ يَعْشُو في النّور وينظُرُ في الظّلام.

سَرَطانٌ خبيثٌ ينمو على حساب الخلايا الحميدة، وسُوسٌ خَفِيٌّ ينْخر

(*) نُشِر الأصل في العدد 128 من جريدة «اللّيبيّ» بتاريخ 7/ 4/ 1960.

جُذوعَ الأشجار المُثمِرة، وآفَةٌ لَعِينَةٌ تقتُلُ عناصر التُّرْبَة وتَقضِي على خِصْب الأرض.

اليدُ العابثةُ التي تَتَستَّرُ وراءَ الفتنة تُحَرِّكُها، والنَّارُ الخامِدةُ التي تُشْعِل الحرائقَ وتُضْرِمُها، والسّكِّينُ الغادرةُ الّتي تَطْعَن من الخَلْف وتغتالُ على غِرَّة.

أنانيٌّ لا يُحبُّ إلاَّ نفسَه، ونَرْجِسِيٌّ لا يرى في الوجود إلاَّ ذاتَه، وطمّاعٌ يبيع دينَه بحَفْنَةٍ من الدّنانير.

لاعِبُ «سِرْكٍ» يُجيدُ القَفْزَ على الحبالِ، وراقصُ حَلْبَةٍ يَهْتَزُّ جيدُه لدقّات الطَّبّال، وعازِفُ فِرقةٍ يضرِبُ على كلّ وَتَرٍ وَيَنْفُخُ في كلّ مِزْمار.

يتشكَّلُ بشكْل الإناء الّذي يَحْوِيه، ويَتَقَوْلَبُ بحجم القَالَب الّذي يَحُلّ فيه، ويَلْبَس لكلّ حالةٍ ما يناسِبُها من لَبوس.

لا يَسْلُكُ السُّبُلَ الواضحة، وإنّما يتسَلَّل من خلال الشُّقوق كما تتسَلَّل الدِّيدان. ولا يسكُنُ فوقَ الأرض كما يسْكُنُ النَّاس، وإنّما يسكُنُ الجُحورَ كما تسكُنُ الجُرْذان. ولا يدخلُ البيوتَ من أبوابها، ولكن يدخُلُها من ظهورها كما يفعل اللُّصوص.

بارِدُ الدّمِ لا يَطْرُدُه أقوى الْمُبيدات، وفاقدُ الكرامة لا يَخْدِشُه أبْشَعُ الإهانات، وميّتُ الضّمير يتأثَّرُ الصَّخْرُ الأصَمُّ ولا يتأثّر.

أطْوَعُ الخُطوطِ رَسْماً في يدِه الْمُنْحَرِفُ وأعْسَرُها الْمُستقيم. وأجملُ الألوان في عينيْه الأسودُ وأقْبَحُها الأبيضُ الْمُسْتنير. وأحَبُّ الجموعِ إليه جمعُ التّكسير وأبْغَضُها عنده جمعُ السَّلامَة. وأفْصَحُ الأفعال في لسانه الفعلُ المُعْتَلُّ وأثْقلها عليه الفعلُ الصَّحيح.

هزيلُ الشّخصيّة وإنْ كان إذا رأيْتَه يُعْجِبك جسمُه، وعديمُ المنطق وإنْ

كان إذا قال سَمِعْتَ قوْلَه، وجَبانُ القلب يخافُ من الفأر ويَحْسِب كلّ صَيْحَةٍ عليه.

يُغطّي ضَعْفَه بالاِنتفاخ فتَحسِبُ الشَّحْمَ في الوَرَم، ويُدارِي جُبْنَه بالطَّيْش فتخالُ الشّجاعةَ في التهوُّر، ويُوارِي سوادَه بالبياضِ كما تُوارِي القبيحةُ بَشاعَتَها بالتَّزاوِيق.

حليفُ الشّيطان يتلقّى منه التّعليمات، وصديقُ الشّرّ يَسْتَوْحِي منه التّوجيهات، ورفيقُ اللّيل يتحرّكُ في ظلامه ويتلَفَّعُ بغَفْوَته.

من وسائلِه الإشاعةُ يُبَلْبِلُ بها الأفكار ويُشيع الفاحشة. ومن أساليبه النّميمةُ يَفُكُّ بها رِباطَ الزّوجيّة ويُفرِّقُ بين الأحبّة. ومن هِوايَته رَمْيُ الْمُحْصِنين والمُحْصَنات والْخَوْضُ في الأعراض والطَّعْنُ في الأنساب.

لا يرى حَرَجاً في أنْ يُقَبِّلَ اليد الّتي كان قد بَصَقَ عليها. ولا يجدُ ضَيْراً في أنْ يرفَعَ «الْقُفَّة» الّتي كان قد أنْزَلَها. ولا مانعَ لديه من أنْ يَرْكَعَ للقدم الّتي كان قد داسها بالأمس.

لا يَخْجَلُ من جرائمه لأنّه فاقِدُ الإحساس بالْقِيَم. ولا يَثوبُ إلى رُشْده لأنّ ضميرَه لا يتحرّكُ بالنَّدَم. ولا يَسْتَحْيِي من النّاس لأنّه لا يَسْتَحْيِي من الله.

شِعارُه الْمُحَبَّبُ إليه أنّ الغايةَ تُبرِّرُ الوسيلةَ والمصلحةَ تُبيحُ الرّذيلة.

ورأيُه في البشر أنّهم مَطايا للرّكوب وجِسْرُ عُبورٍ إلى المطلوب.

وفَلْسفَتُه في الحياة أنَّها مزرَعةٌ للمُغامِرين وسوقٌ للمنافقين.

وحكمتُه في صَنْعَته: لا تَثِقَنَّ بأحدٍ ولا تَطْمَئِنَّ إلى مخلوق.

هو الّذي حَبَكَ قصّةَ الإفْك وَتَوَلّى كِبْرَها. وهو الّذي جَمَعَ الأحْزَابَ ودبَّرَ كيْدَها. وهو الّذي قَعَدَ في ساعة العُسْرة ورضيَ أن يكونَ مع الْمُخَلَّفين.

هو الْمُبَطِّيءُ عن النَّفر إلى الجهاد ثُباتٍ وجماعة. وهو الْمُثَبِّطُ لِهِمَمِ الرِّجال ذوي القوّة والشّجاعة. وهو السَّاخِرُ اللاّمِز للْمُطَّوِّعين من المؤمنين الّذين لا يجدون إلاّ جُهْدَهم في الصَّدَقات.

يزيدُكم خَبالاً ويُوضِعُ خِلاَلَكُم يَبْغِيكم الفتنةَ وفيكم سَمّاعون له. ويَوَدُّ عَنتَكم وتبدُو البغضاءُ مِنْ فِيه ومنكم مَنْ يثِقون به. ويحْلِفُ لكم بأغْلَظِ الأَيْمَان إنّه لمنكم وما هو منكم ولا تأخُذون الحَذَرَ منه.

إنِ اقتضاه الموقفُ التَّقْوَى رَاءَى بالخُشوع في الصَّلاة وَتَمَثَّلَ بعبد القادر الْجَيْلاني، وعلَّق في رقبَته مِسْبَحَةً بألف حَبَّةٍ وَتَشَبَّهَ بالْجُنَيْد أو الْبَسْطامِي.

وإنِ اقْتَضاهُ الموقفُ الزُّهدَ تَهادَى في مِشْيَتِه، وتماوَتَ في حركته، وغَضَّ من نظْرَته، ولَبِسَ المُرَقَّعَ كأنّه من أهل الصُّفَّة.

وعند لزوم التّواضُع تَصَنَّعَ خَفْضَ الجناح، وتكلَّفَ لِينَ الكلام، ومَثَّلَ لُطفَ الْمُعَاشَرَة، وظَهَر بمظهر البراءة والعِفّة.

فإنْ تبدَّل الحال، وتغيَّرتِ الوجوهُ والأشكال، وصاحَب أربابَ المجُون والفحش، وانْغَمَسَ في حَمْأَة الرّذيلة والرِّجْس، كان مَنْبَعَ الفسق يَسْتَقِي منه الفُسّاق، ومَنْجَمَ الفُجور يَقْتَطِع منه الفُجّار، وصارَ زِقّاً من الخمر لا يَفْرُغُ حتّى يمتلِيء، وشريطاً خليعاً لا ينتهي حتّى يَبْتَدِيء، وانْقَلَبَ ككلبٍ لاهِثٍ أو قِرْدٍ نَهِمٍ أو ذِئْبٍ مسعور، وتجرَّدَ من ثوب التّواضُع الْمُصْطَنَع، ولَبِس ثوب التّطاوُل والغرور، ومَحَا تزاويقَ الزّهد، وظَهَر على حقيقته من النّزَق والاستهتار والسُّخْف، ونَزَع جناحَ الذُّلِّ الْمُسْتعارَ، وأعاد جَناحَ الكاسِرِ الْمُنْقَضِّ على الْجِيَف.

فهو مُذَبْذَبٌ لاَ مِنْ هؤلاء ولا مِنْ هؤلاء، وزِئْبَقٌ لا اسْتِقْرارَ له في مكانٍ ولا بقاء، وضَالٌّ لا يخرُجُ من تيهٍ إلاَّ لِيدخُلَ في تِيه.

فطَهِّرُوا منه تُرْبَتكم كما تُطَهِّرونها بالمُبيدات الّتي تقْتُل طُفَيْلِيَّاتِها. ونَقُّوا منه أنفسكم كما تُنقّون أجسادكم وتَغْسِلوا ثيابَكم من أوْضارها. وقاوِموا وباءَه في مجتمعكم كما تُقاوِمون الأمراض الفتّاكةَ والآفاتِ الجائِحة.

فإن قلتم: كيف نعرفه وهو كالحِرْباء يتلَوَّنُ بلون المكان؟

وكيف نُمْسِكُه وهو يتسرَّبُ كالماء ويتلَوَّى كالثّعبان؟

وكيف نستَدِلُّ عليه وهو يَظْهَر كما يَظْهَر الطّيْفُ ويختفي كما يَخْتَفي الشَّبَح؟

قلت:

قد تعرفونه في لَحْن القول وزُخْرُف الكلام. وقد تَضْبِطونه مُتَلَبِّساً بالجُرْم وزارِعاً للألْغام. وقد تسْتَدلّون عليه بآثار قَدَمَيْه وبَصَمات أصابِعه.

ولا تَنْسَوْا أنّ التزامَ النّظافة في أنفسكم وأهليكم وقايةٌ لكم من مرضه، فإنّ النّظافة لا يُطيقها، ولا يستطيع العيشَ في كَنَفِها.

ودوامَ غرْسِ الرّياحين والأزهار في بيئتكم مَطْرَدَةٌ لرِجْسه، فإنَّ الرّوائحَ الزّكيَّةَ لا يَحْتَمِلُها ويَخْتَنِقُ باستنشاقِها.

والاعتصامَ بحبل الله وظنَّ المؤمنين والمؤمنات بأنفسهم خيراً، قلعةٌ حصينةٌ لا يجرُؤُ على اقتحامها ولا القربِ من حِماها.

فإنْ جاءكم فاسِقٌ بنبأ فتبيَّنوه منه، وإنْ رمَى قاذفٌ بحَجَرٍ فارْجُموه به، وإنْ جاءت عُصْبَةٌ بإفْكٍ قلتُم ما يكون لنا أن نتكلَّمَ بهذا سبحانَك هذا بُهتانٌ عظيم.

وخُذُوا منه حِذْركم حتّى لا تكونوا له الشَّبَهَ والمِثْل. وزِنوا خُطُوَاتِكم حتّى لا تَنْزَلِقوا في مَهَاوِي دَرَكِه الأسْفَل. وضَيّقوا منافذَه بذكْرِ الله حتّى لا يتسَرَّبَ إليكم في لحظات الغَفْلَة والنّسيان.

فالنّفاقُ خَفِيٌّ كخَفاء دَبِيب النّملة على الصَّخْرة الْمَلْساء. وأمرُه دَقيقٌ كدقّة الخيْط الفاصل بين التَّزَلُّف والإِطْراء. وتمييزُه صَعْبٌ كصُعوبة تمييز النّيّات الّتي في خَبَايا النّفوس.

فاللّهم طَهِّرْ قلوبَنا من النّفاق، وعملَنا من الرِّياء، وألسنتَنا من الكذب، وأعْيُنَنا من الخيانة، فإنّك تعلَمُ خائِنةَ الأعين وما تُخْفِي الصّدور.

عـــام(*)

غِشاءٌ انْسَلَخَ من جلودنا، وقِطْعةٌ فُصِلَتْ من أجسادنا، وصفحةٌ طُوِيَتْ من سِجلّنا، ورقمٌ نَزَلَ من قائمة الحساب.

مُرْتحِلٌ سافَر إلى غير أوْبَة، ورفيقٌ وَدّعَ ليس إلى لقاء، وشمسٌ غَربتْ ليس إلى ظهور.

دَوْرَةٌ سريعةٌ في عَجَلَة الأيّام، ولَمْحَةٌ عابِرةٌ في تاريخ الدّنيا، وبيتٌ واحدٌ من معلَّقَة الزّمن، ومَشْهَدٌ خاطِفٌ من مسرحيّة الإنسانيّة.

محطّةٌ نَزَل فيها رُكّابٌ وصَعِد رُكّاب، ومُنْعَطَفٌ اخْتَفَى فيه طريقٌ وظَهَر طريق، ومرحلةٌ انْقَطَعَتْ فيها أنفاسٌ وتجدَّدَتْ أنفاس.

الْعَدُّ التّنازُلِيُّ الْتَهَمَ سَنَةً من ميقات أعمارنا، والاسْتقطاعُ الرّسْميُّ نَقَصَ جزءاً من رصيد أيّامنا، والتّوجيهُ الإجباريُّ نحوَ الأُفُق الّذي تنتهي عنده آجالُنا.

مضَى عامٌ فمضَتْ معه ذكريات، وانفَرَطَ عِقْدٌ فتَناثرتْ منه حَبّات، ودار فَلَكٌ فدارتْ معه أحداث.

(*) نُشِر الأَصل في جريدة «اللّيبيّ» بتاريخ 31/ 12/ 1959.

انتشتْ فيه عواطفُ برحيقِ الحبّ والحنان، واكْتَوَتْ فيه أخرى بنار الحِقد والشَّنآن.

ارْتَوَتْ فيه نفوسٌ بعسلِ الْمُتْعَة واللَّذَّة، وتجرَّعَتْ فيه أخرى كُؤُوسَ المرارة والشِّدَّة.

منهم من أمْضَى أيّامَه في تُخَمَة وامتلاء، يَسْبَح في الرّفاهِيَة ويَغْرَق في الرّخاء.

ومنهم من بات لياليَه يشكو الحاجةَ والجوع، يفترشُ الأرضَ ويتغطَّى بالسَّماء وتَبرُز منه الضُّلوع.

خرجَتْ فيه براعِمُ نَدِيَّةٌ اسْتقبلَتِ الحياة، وذَبَلَتْ فيه وُرودٌ زكيّةٌ أكْمَلَتْ مُهِمَّة التَّفتُّح، وزَحفَ فيه جديدٌ أخَذَ مكانَ القديم.

مرّ عامٌ فلم يشْعُرْ بمرُوره الّذين يعيشون لِيأكُلوا، وغابَ فلم يفْتَقِدْه الّذين وُلِدوا لِيناموا، وغادَرَ فلم يتحسَّرْ على فراقه الأمواتُ الّذين هم في صورة أحياء.

نَحتَ من أعمارنا شَظْيَةً دونَ أن نَسْمَعَ لضربات إزْمِيله صَوْتاً، وَخَطَفَ من أجنحتنا رِيشَةً دونَ أنْ نُحِسَّ لوقْع خَطْفِه مَسّاً، وقَطَفَ من حديقتنا زهرةً دونَ أن نَسْتَشْعِرَ فَراغَ مكانِها وذَهابَ شَذاها.

قَرَّبَنا خُطْوَةً من خَطّ الوصول وتباعَدْنا نحن عن الخطّ بطول الآمال. وقدَّم قليلاً من عقارب ساعتنا وأخَّرْناها نحن بالْوَهْم والخيال. وحَفَرَ في جباهنا أُخدوداً عميقاً فضَحِكْنا على أنفسنا وَرَدمْنا الأُخْدودَ بالْمَعاجين.

مُنَبِّهُ الحياة أَقْفَلْنا عنه السَّمْع، وجَرَسُ الإنْذار تَشَاغَلْنا عنه بالطَّمَع، ومُؤَذِّنُ الفلاح تَغافَلْنا عنه بالنّوم، ورائدُ القوم رمَيْناه بالخيانة والكذب.

ولو أحْسَنّا فَهْمَه لَصَدَّقْناه فإنَّ الرّائدَ لا يكْذِبُ أهْلَه. ولو فَتَحْنا عقولَنا لأَنْصَتْنا إلى جَرَس إنذارِه فإنّه يُريدُ تَنْبيهَنا من الغَفْلَة. ولو عَلِمْنا أنّ الصَّلاةَ خيرٌ من النّوم لاَسْتَجَبْنا للْمُؤَذِّن، وفَككْنا عُقْدَةَ الشّيطان، وأسْرَعْنا إلى الفلاح.

فإنّ الإنسانَ هو الّذي يَبْنِي حاضره بالعَزْمِ ويَشِيدُ مُستقبلَه بالعمل. وهو الذي يسْتغِلُّ الزّمنَ في النّافع ويَسْتَثْمِر ثروَتَه في تحقيق الأمل. وهو سيِّدُ نفسِه، ومالِكُ وَقْتِه، وخليفةُ الله في الأرض.

فلا تَضَعوا اللّوْمَ على العام واللَّوْمُ عليكم. ولا تَعِيبوا زمانَكم والْعَيْبُ فيكم. ولا تُعَلِّقوا تقصيركم على مِشْجَب الأيّام وأنتم المسؤولون.

فتحيّةً للرّفيق المُغادِرِ الّذي تَرَكَ لَوْعَةً في نفوس الّذين يعرفون قَدْرَه. ووَداعاً للصّديق الرّاحل الّذي سَعِدْنا بدفء صَداقته فَتْرَة. وشُكراً له على فضله لأنّه أشْعَرَ الأحياء بقيمة الزّمن ومعنى الحياة.

وإذا كان العامُ قد انْصَرَم عِقْدُ تنظيمه، ولوَّحَ مُوَدِّعاً بآخِرِ وَرقةٍ في تقويمه، فإنّه باقٍ على الوُدُّ لنْ يَمْنَعَ مَنْ يسألُه الْعَطاء، ووَفِيٌّ بالعهدِ لن يَحْجُبَ مَشُورَته عمّن يطلُب منه المَشْورَة، وباذِلٌ للمعروف لن يَضِنَّ على أحدٍ بثَمَرَة خِبْرته وخلاصة تجربته.

فإنّه سيَسْتقرُّ في دار التّقاعُد مُسْتَأنِساً بإخوانه الأعوام الّذين إليها سَبَقوه[1]. وسَيُدْرَجُ شاهِدَ صِدْقٍ على قَرْنِه ضِمْنَ مئةٍ من الشُّهود حَضروه. وسيدخُلُ في شريط الحياة لَقْطةً من لَقَطاته الطّبيعيّة الّتي لا دَخْلَ فيها للخيال وصَنْعة الإخراج. وسيتْرُكُ بَصَماتِه مطبوعةً على جدار الزّمن لا يَطْمِسُها هَوًى ولا يَمحوها مِزَاج.

(1) نُزِّلَت الأعوام السّابقة هنا منزلةَ العاقل لأنّها مُشَبَّهَة بالأشخاص المتقاعدين.

وسَيرْجِع المؤرِّخون إلى ذاكرته يُسَجّلون منها الحوادثَ والوقائع. وسَيَسْتَوحِي الفنّانون من قصصه وعجائبه اللّوحاتِ والرّوائع. وسيجد الباحثون في جِرابه ما يُغْريهم بالدِّراسة والبحثِ والتَّحليل. وسَيُحلِّقُ الحالِمُون في أجواء ذِكْرياته ويسْتَمْتِعون بتخيُّلِ طَيْفِه الجميل.

ومن الأدب أنْ تترُكوه قليلاً حتّى يضَعَ عَصَا التَّسْيَار ويَسْتَريحَ من وَعْثاء الأسْفار. ومِنَ اللِّياقَة أنْ تُعْطُوه فُرصةً حتى يَسْتَتِبَّ في دار التّقاعُد ويسْتَقِرَّ في مُتْحف الآثار. ثُمّ لكم بعد ذلك أنْ تَتَلَقَّوْا دروسه المفيدة، وتستمعوا إلى نصائحه الرّشيدة، وتتزوَّدوا بآرائه السَّديدة.

أمّا العامُ الجديدُ فكالغائب المجهول لا نعرفُ حالَه حتّى يَحْضُر، أو كالفارس الْمُلَثَّم لا نَسْتبينُ مَلامحَ وجهِه حتّى يُسْفِر، أو كالكتاب المختوم لا نقرأ ما فيه حتّى يُفَضَّ خِتامُه.

وإذا كنّا لا نَرْجُمُ بالغيب ولا نَهْتِك أستارَ المستقْبَل، ولا نَدَّعِي العلْمَ بالآتي ولا نُؤْمن بتَنَبُّؤات الْمُنَجِّم، فإنّنا نملِكُ بين جوانحنا الأملَ في أنْ يكونَ طالِعُ المُقْبِلِ أسْعَدَ من الْمُدْبِر، وأنْ يكونَ وجهُ اللاَّحِق أجْملَ من وجه السّابق، وأنْ يكونَ الوافِدُ حمامةً بيضاءَ تحملُ في مِنقارها غصنَ الزّيتون، وتُرَفْرِف بأجنحة السَّلام.

رسالة من وُصوليّ إِلى كرسيّ(*)

شَوْقي إليك كبيرٌ لا يَصِفُه قَلم، وغرامي بك شديدٌ لا يُعبِّر عنه لسان، وبُعْدي عنك عذابٌ أَتَسَلَّى عنه بالأمَل.

سعادتي لا تَتِمُّ إلاَّ بوِصالك، وحياتي لا تَروقُ إلاَّ بقُربك، وقَلَقي لا يَهْدَأُ حتَّى تَضُمَّني إليك.

فأنت غايةُ مَرامي ومقْصودي. وأنت مُنْتَهَى رجائي ومَرغوبي. وأنت كلُّ مُسْتقبلي ودُنياي.

أنت مفتاحُ الثّروةِ لمن أراد الثَّرْوَةَ مِن أيْسَر السُّبُل. وأنت بابُ الشُّهرة لمن نَشَدَ الشُّهْرةَ بأدْنى الْحِيَل. وأنت مَنْفَذُ الوصولِ إِلى نَيْل المطلوب من أقصر طريق.

أنت الّذي تَصْنَعُ قَدَمَيْن من خَشَب الزَّانِ لكسير الْقَوَادِم. وأنت الّذي تُرَكِّبُ جَناحَيْن من الورق الْمُقَوَّى لِمَهِيض الجناح. وأنت الّذي تَحْشُو بالْقَشِّ النّاعم رؤوسَ الفارغين.

(*) نُشِر الأَصل في العدد 138 من جريدة «اللّيبيّ» بتاريخ 16/ 6/ 1960.

مَنِ امْتطاكَ قيلَ فارسٌ مِغْوارٌ وإنْ لم يَرْكَبْ في حياته جَواداً. ومَنِ انْتَسَبَ إليك قيلَ شَريفٌ عريقٌ وإنْ كان وَضِيعاً نَذْلاً. ومَنْ ضَرَبَ بيدك قيلَ مِقْدَامٌ شُجاعٌ وإنْ كان جَباناً رِعْديداً. ومن ثَرْثَرَ بلسانك قيلَ بليغٌ فَصيحٌ وإنْ كان عَيِيّاً لا يَكادُ يُبين.

مِنْ صفاتك الّتي تُرَغِّبُني فيكَ أنّك تَحْمِي الّذين يَسْرِقون بيدك من إقامة حَدِّ الْقَطْع عليهم.

ومِنْ مِيزاتِك الّتي تُعْجِبُني منك أنّك تَحفَظُ الْمُسْتَغِلّين لنفوذك من تنفيذ حكم القانون فيهم.

ومِنْ إغراءاتك الّتي تَشُدُّني إليك أنّك تُغَطّي الْمُدَجِّلين باسمك بِلِحافك حتّى لا تفتضِحَ شَعْوَذَتُهم ولا تَنْكَشِفَ أَلاعيبُهم.

السّارقُ بيدك يُسَمّونَه فَطِناً فَتَحَ رأْسَه وعَرَفَ من أين تُؤْكَل الْكَتِف. والْمُتَلاعِبُ فوقَكَ يَدْعُونَه سِياسِيّاً ماهراً أَدْرَكَ أَسْرارَ الْمِهْنة وكيف يصلُ إلى الهدف.

والْمُنافِقُ بكلمتك يَعُدُّونَه لَبِقاً يُتْقِنُ فَنَّ التَّلَوُّن ويُجيدُ صَنْعَةَ الْمُراوَغات.

إنّ شيخي في «الطّريقة» وشيخَك ـ الشّيءُ لله ـ «سيدي الشَّعّاب»[1]. وقِبْلَتي في الوِجْهَةِ وقِبْلتك ـ أَعَزَّها الإسْتِرْلِينيُّ ـ أرضُ الضّباب. وكعْبتي في القَصْد وكعبتك ـ شَرَّفها الدُّولارُ ـ بَلَدُ نَاطِحاتِ السَّحاب.

ولئنْ كنتُ ضئيلَ الزّاد من العلم، فكَمْ من جاهلٍ احْتَضَنْتَه بين ذِراعيْك.

---

(1) «سيدي الشّعّاب» و«شارع الشّطّ» كنايتان مشهورتان في ذلك الوقت عن السّفارة البريطانيّة، لأنّ مقرّها قريب جدّاً من ضريح «سيدي الشّعّاب»، ولوقوعها في «شارع الشّطّ» بطرابلس.

ولئِنْ كنتُ قليلَ الخبرة في شُؤونك، فما حاجتي إِلى الخِبْرة إِنْ كنتُ بين جَنْبَيْك؟

ولئِنْ كنتُ مغموراً لا يَعْرِفُني كثيرٌ من النّاس، فليستِ الشُّهْرَةُ شرطاً من شروطك، ولاَ ذُيوعُ الصِّيت مادَّةً في قانونك.

إنْ كنتَ تطلُبُ ثمناً باهِطاً دَفَعْتُه ولا أبْخَلُ به عليك.

وإن كنتَ تشترط الوصولَ من «شارع الشَّطّ» سَلَكْتُه وعَبَرْتُ منه إليك.

وإنْ كنتَ لا تَقْبَلُني إلاّ بشفيعٍ اتَّخَذْتُ ساكِنَ «الْمَلاَّحَة»[1] شَفيعاً لَدَيْك.

وإنْ كنتَ أحياناً تَتساهَلُ فَتَسْعَى إِلى بعض الأشخاص ولا يَسْعَوْن إليك، وتنْسَى التّعليماتِ فتَخْطُبُ وُدَّهم وترجو قُرْبَهم منك، فاعْلَمْ أَنّي لستُ من هؤلاء الّذين يُجْبِرونَك على التَّنازُلِ عن كبريائك، ولا مِنَ الّذين يَسْتَنْكِفُون أنْ يصلوا إليكَ عن طريق أوليائك، فهم مُشَرِّقون وأنا مُغَرِّبٌ، وشَتَّانَ بين مُشَرِّقٍ ومُغَرِّب، وهم يُبْغِضون أولياءَك وأنا أُحِبُّهم، وشَتَّانَ بين مُبْغِضٍ ومُحِبّ.

ولا يَصْرِفَنَّك عَنّي بُعْدُ الشُّقَّة، فأَهلُ «الخَطْوَة» الّذين أَتَوَسَّلُ بهم يَطْوُونَ المسافاتِ ويُقَرِّبون البعيد.

ولا تَصُدَّنَّكَ كثرةُ العوائق بيني وبينَك، فلأَقْتَحِمَنَّ من أجلك كلَّ صَعْب ولَأَسْتَسْهِلَنَّ كلَّ شديد.

ولا تَحْسِبَنَّ أنّ نفورَك منّي يُيْئِسُني منك، فلأَلْهَجَنَّ بحُبِّك، ولَأُسَبِّحَنَّ بِحَمْدِك، ولَأَلْثُمَنَّ قَدَمَيْك، ولَأَلْعَقَنَّ نَعْلَيْك، ولَأَلْهَثَنَّ وراءَك، ولَأَطْرُقَنَّ بابَك، ولَنْ أَدَعَنَّكَ حتَّى تَرْفَعَ الْحُجُب، وتَمُنَّ بالقُرْب، وتُحَقِّق الآمال، وتَأْذَنَ بالوِصال.

---

(1) «ساكن الملاّحة» كناية عن الأمريكان.

وأُعاهِدُكَ بأغْلَظ المواثيق لَئِنْ حَبَوْتَني بعطفك لَأَمْسَحَنَّ «جُوخَك» ولَأَتَمَسَّحَنَّ بتُرابك.

ولَئنْ ضَمَمْتَني بين ذراعيْك لَأُلازِمَنَّ رِحابَك ولَأَخْدُمَنّ أعتابَك.

ولَئن جُدْتَ بالْمُنى لَأَتَقَرَّبَنَّ بالنُّذور والشُّموع إلى أهل «الدّيوان» الّذين أوْصَلُوني، ولَأَحْرِقَنَّ البُخُورَ لأصحاب «الْبُرْهان» الّذين بسِرِّهم نَفَحوني، ولَأُقيمَنَّ «حَضْرَةً» تكريماً لأوليائك الّذين رَضُوا عنّي.

وأتعهَّدُ بأنْ أكونَ رَهْنَ بنانِ الإشارة، وأُقْسِمُ إنّي أكتُم خفايا الشُّغْل وأسرارَه.

وسأَسْتَوْحِي توجيهي ممّن يجثُمون على يمينك وعلى شِمالك. وسَأتصرَّفُ على وَفْق القواعِد المَضبوطة والأصول المَرْعيّة والْخَطِّ المرسوم.

ولا يَغُرَّنَّك منّي أنّي الآنَ أُداهِنُ بعضَ القوم في مَجالسهم وأُجامِلُهم بشيء من النّفاق، فما ذلك إلاّ جَوَازٌ للمُرور وحِيلةٌ للاختراق. فاغْفِرْ لي ما ينطِقُ به لساني ويَسْتَنْكِرُهُ جَناني، واعْذِرْني إنْ مَثَّلْتُ أمامَهم دَوْرَ الوطنيّ الغيور، فإنّ التّمثيل ينتهي بنهاية المسْرحيّة وانْفِضاضِ الجمهور.

وأخيراً...

سامِحْني إن جاوَزتُ قدْري وخاطَبْتُك مُخاطَبةَ الْمُتَيَّم الْوَلْهان، ففيك يحلُو الْغَزلُ وفيه يَعْذُبُ البيان.

ولا تُؤاخِذْني إن خَلَعْتُ الْعِذَارَ وَنَزَعْتُ ثوب الوَقار، فما على عُشّاقك من عتاب، ولا على مُحِبِّيك من حساب.

ملاحظة:

لا أُخْفي عليك أنّي أَجَّرْتُ مَنْ حَبَّرَ لي هذه الرّسالةَ ودَبَّجَ هذه المقالة، فأنا «قاصر» لا أسْتطيعُ أنْ أكتبَ مثل هذا الكلام «الواعر» ولا أفهم منه كلمة. وقد تَطَوَّعَ أحدُ ذَوِي قَرابَتي «فَتَرْجَمَ» لي الرّسالة إِلى العامّيّة، فوجدتُها ناطقةً بلساني، مُعَبِّرَةً عن نفسي، مُوفِيَةً بقَصْدي.

منظّمة الأمم المتّحدة (*)

نَغْمةُ السِّلمِ الحُلوةُ خرجَتْ من دَوِيّ المدافع النَّشاز، ونَسْمَةُ السَّكينةِ الرّقيقةُ هَبَّتْ من بَعْد إِعْصار الرّيح العقيم، وبَسْمَةُ الحبِّ اللّطيفةُ افْتَرَّتْ من فَم الحرب الضّروس.

ظَهَرَتْ كما تَظْهَر الشّمسُ بعد غيابٍ طويلٍ تحتَ السَّحاب الكثيف، وانبثقَتْ كما يَنْبَثِقُ الصُّبْحُ بعد دياجيرِ ليلٍ بَهيم، ونبتَتْ كما تنبُتُ سنابلُ القمح في الحقل الّذي كان مزروعاً بالألْغام.

هي التّمرُّدُ على إرادة الشَّرّ ونَزْعَةِ الحِقْد، وهي التَّخَلُّصُ من براثن الوحْش الآكل لِلُحوم البشر، وهي الفرارُ من سِجْن المِحْنَة وقَفَصِ المأساة.

الشَّاطئُ الّذي رسَتْ عليه السّفينةُ بعد أن أَنْهَكَها الصِّراعُ المريرُ مع أمواج الْبَغْي الطَّاغِي، وهواءُ الأملِ النّظيفُ الّذي انْتَعَشَتْ به النّفوسُ بعد أنْ كاد يخنُقُها اليأسُ الْعَاتي، ودَوْرُ النَّقاهة للمريض الّذي تماثَلَ للشِّفاء ونَجا بأُعْجوبة من الموت الزُّؤام.

تمخضَّتْ بها الحربُ الكونيّةُ فولَدَتْها أداةً للسّلام. وتقلَّبَتْ في رَحِمِ

(*) نُشِر الأَصل في العدد 104 من جريدة «اللّيبيّ» بتاريخ 22/ 10/ 1959.

القنابل ففجَّرَتْها أَشِعَّةً من نور. ونهضَتْ من بين الأنْقاض لِتَمْتَدَّ ساعداً للبناء والتَّشْييد.

بَلْسَمُ الجراحِ العميقةِ الّتي تَنْزِفُ بالدّماء. وتَعْزِيَةُ النّفوس الحزينةِ الّتي رَزَحَتْ تحتَ وطْأة الألم. وجَبِيرةُ القلوبِ الكسيرةِ الّتي صَدّعَتْها وَيْلاتُ الغارات.

فهي بَذْرَةُ خيرٍ زُرِعَتْ في مكانِ أشْواكِ الشَّرِّ. وهي مصباحُ هدايةٍ أُسْرِجَ لِيُبَدِّد عَتَمَةَ الظّلام. وهي صَرْخةُ حُرّيّةٍ انطَلَقَتْ من قُيود العَسْف والْجَوْر. وهي راحةُ الأمْن بعد زمن الرُّعْبِ والخوف والضَّياع. وهي طِيبُ عِطْرٍ تَضَوَّعَ من كثافة الدّخان الأسود. وهي قَطَراتُ غَيْثٍ تَبَخَّرَتْ من غلَيان مِرْجَلِ البارود.

جاءتْ تعبيراً عن رغبة الإنسان في أن يستمتِعَ بالحياة ويَسْلَمَ من فناء الحرب، وتحقيقاً لحُلْمِه القديم في عصر يسودُه الوِئام ويكْتَنِفه الحبّ، وتجسيداً لأمله في أن يَخْلُوَ العالَمُ من عَبَث المجانين الْمُتَلاَعبين بمصاير الشّعوب.

جَدَّدتْ للنّاس إيمانَهم بالقِيَم الفاضلة بعدَ أن كادوا يكفرون بها، وأوضحتْ لهم الطّريق إلى الله بعد أن أشْركوا بعبادة الأشخاص وتَأْلِيه الزُّعماء، وأزاحتْ عن أعينهم غِشاوةَ الغرور بعد أنْ لَجُّوا في الطّغيان وسَدَروا في العُدوان.

وسَمَّوْها مُنَظَّمةً حتّى تكونَ إنسانيّةً في مراميها بعيدةً عن تَسَلُّط الحكومات، وأضافوها إلى الأمم جميعاً لِتُحَطِّمَ الْحواجزَ بين الصّغير والكبير وتكْسِرَ طَوْقَ الاحتكارات، ووَصَفوها بالمتَّحِدة لِتَعُمَّها بركةُ الجماعة وتَنْجُوَ من أنانيّة الفرد وشرّ الاسْتِبداد.

وفرِحَ النّاسُ واعتقدوا أنّ ظهورَ مُنظَّمَة الأمم المتّحدة قضاءٌ على شَبَح الحربِ إِلى غير إياب، وفَتْحٌ لِرحاب السَّعادة والأمانِ لن يُغْلَقَ له بَعْدَ الآنَ باب. فَلَعِقُوا جِراحَهم وشَرِبوا غُصَصَهم، وتَحامَلوا على ضَعْفهم ودَارَوْا أَوْجاعَهم، ومَسَحوا دموعَهم وجَفَّفوا عَرَقَهم، وقالوا: ما بعدَ اليومِ حربٌ تحْصُد الرّقابَ وتَقُضُّ المضاجِع، وما بعدَ السّاعة كَدَرٌ يُثيرُ الْمَخاوفَ ويُولِّد الْمَفَازع، فقد وُلِدَتْ منظّمةُ الأمم المتّحدة ووُلِدَ معها المستقبلُ الْمَيْمون، وحلَّقتْ حمامةُ السَّلام وحَمَلَتْ في مِنقارها غُصْنَ الزّيتون.

ولكن. . .

ما أنِ انْفَضَّ السُّمّارُ عن سَمَرهم، وخلَتِ القاعةُ من الْمُحتَفِلين بعُرسِهم، حتّى بَدَأتِ الأحلامُ العَذْبَةُ تَتبدَّدُ وتَتَلاشَى، والآمالُ العريضةُ تتقلّصُ وتَتوارَى، وغاضَتِ الابتسامةُ من الوجوه قبلَ أنْ يَجِفَّ مِدادُ ميثاقِ المنظّمة، وتَسَرَّبَ اليأسُ إلى النّاس قبلَ أنْ يَهْدَأَ ضجيجُ فَرْحتِهم بالمولود الجديد، وانْهار صَرْحُ المستقبل البهيج الّذي بناه خيالُ المنكوبين الْمُكْتَوِين بنار الحرب.

لقد اسْتَبدَّتْ نَشْوةُ النّصر ونَزْوةُ الغُرور بالعُظماء، وتحكّمَتْ في الدُّوَل الكبرَى شَهْوةُ الْهَيْمَنَة وحُبُّ الاسْتِعلاء، وسَيْطَرَ منطقُ المصلحة الشخصيّة على مصلحة العموم، وحلَّ أسْلوبُ الكيْدِ والتآمُرِ محلَّ التَّفاهُم مع الخُصوم.

جَعَلوا المنظّمةَ الّتي عُقِدَتْ عليها الآمالُ مُخَيِّبَةً للآمال. وحوَّلُوا وِجْهَتَها نحوَ تحرير الشّعوب إلى اسْتِعبادٍ جديدٍ للشّعوب. وعَدُّوها غنيمةً من غنائم الحرب خالصةً لهم من دون النّاس. وتَسلَّموها مُكافَأَةً على هزيمة الْمِحْوَر لا يُشارِكُهم فيها أَحدٌ من خَلْق الله.

قَسَّموا المنظّمةَ إِلى مُعَسْكَرين ينْحصر فيهما الصِّراع. وجَزَّأُوا العالَمَ إِلى

قُطْبَيْن يَحْتَكِران فيه القُوّة. واخْتَصُّوا أنفسَهم بِمِقْوَدِ الْقيادَة ومُقَدِّمَة الرِّيادة و«بُوصْلَة» التّوجيه. وفَرَضوا دُوَلَهم مَصْدراً للأمر وأصْلاً في الإِذْن وشُرْطيّاً للعقاب والتّأديب.

على مقياس مصلحتهم تُفَصَّلُ قراراتُ المنظَّمة تفصيلاً. وعلى حَجْم سياستِهم تُصَبُّ قوالِبُ إجراءاتها صَبّاً. وعلى وَفْق أطماعهم تُرْسَمُ خَارطةُ العالم وتُحَدَّدُ فيها مناطقُ النُّفوذ.

مارَسُوا ضغوطَهم على الصّغار حتّى اسْتَدْرَجوهم. واسْتغلُّوا حاجةَ الفقراء حتّى أَذَلُّوهم. واسْتَخَفُّوا بعقول الأصدقاء حتّى أطاعوهم. وانْتَهزوا تخلُّفَ الْمُتَخَلِّفين فحرَّكوهم كما يُحَرِّكُ اللاَّعبُ قِطَعَ الشِّطْرَنْج.

هم كالْمُطَفِّفِين لهم مِكْيالاَن: يَسْتَوْفِي أحدُهما ويُخْسِرُ الآخَر.

وهم كالغَشّاشين لهم ميزانان: مِيزانُ «شَعْرَةٍ» دَقيق، وميزانُ «قَرْعَة» عَاثِر.

وهم كالمنافقين لهم وجهان: وَجْهٌ خَشِنٌ صارم، ووجْهٌ وديعٌ ناعم.

وهكذا أخْرَسَ الكبارُ صوتَ الحقّ في المنظّمة ورفَعوا صوتَ مصالحهم. ومَسَخوا رسالتَها الإنسانيّةَ وجَعلوها مَطِيّةً لأطماعهم. وامتازوا فيها بحقّ النّقْض كأنّهم مخلوقون من طِينةٍ غيرِ طِينةِ الآخَرين.

وكان قومٌ يُسَمَّوْنَ عَرَباً كَبْشَ الفداءِ على مَذْبَح المصالح، وضحيّةَ الصِّراع في ميدان التّنافس، والْبَيْدَقَ المقتولَ في لُعْبَة الأمم.

وكانت أرضٌ تُسمَّى فِلَسْطِينَ مَحطَّ الطَّعَنات من خَناجر الكبار، ومَرْمَى النَّبْل من سِهام الأقطاب، ومأساةَ الضَّمير الّذي مات في الأمم المتّحدة.

القمر(*)

آيةٌ باهِرةٌ من آيات الله الكبرى، وجِرْمٌ عظيمٌ من عجائب الكون الْمُعْجِز، وكوكبٌ سَيّارٌ يَشِعّ بالنّور الْفِضّيّ السّاطع، وعالَمٌ واسعٌ يمتلىءُ بالغرائب ويعُجّ بالأسرار.

قصّتُه مع الأرض قصّةُ حبٍّ خالدة، ومَسِيرتُه معها مَسِيرةُ رُفْقَةٍ طويلة، وعلاقتُه بها علاقةُ وَفاءٍ لم تُهِنْها حوادثُ الدّهور.

يُقَبِّلُ جَبينَها منذ أنْ قال اللّهُ لها وللسّماء ائْتِيا طَوْعاً أو كَرْهاً. ويُعانِقُ خِصْرَها منذ أنْ زيَّنَ اللّهُ السَّماءَ الدّنيا بمصابيحَ وحِفْظاً. ويَضُمّها منذ الأزل تحتَ جَناحه بين حَسْرَة الكواكب وغَيْرَة النّجوم.

أحَبَّه النّاسُ لِلُطْفه وخِفَّة دمه، وعَشِقُوه لجماله وحُسْن منظَرِه، وتعلَّقوا به لصدقه ووَثيقِ عهده.

اسْتَيْقَنوا إخلاصَه فَبَثُّوه لَواعِجَ صدورِهم، ووَثِقوا بأمانته فاسْتَوْدَعوه أدقَّ أسْرارِهم، واطْمأنّوا إلى عِشْرَته الطَّيّبة فلم يَقُمْ بينَهم وبينَه حِجاب.

(*) نُشِر الأَصل في العدد 103 من جريدة «اللّيبيّ» بتاريخ 5/ 10/ 1959.

بَهَرَ حُسْنُه أقواماً فافْتَتَنوا به وعَبَدُوه من دون خالقه. وقَدَّسَه آخَرون فنَحتوا له تِمثالاً واسْتَوْحَوْا فنَّهم من رَوْعَته. وتجلَّتْ عَظَمتُه لإبراهيم فقال هذا ربّي، ثمّ عَلِمَ أنَّه ليس ربّاً لأنّه أَفَلَ وهو لا يُحِبّ الآفِلين.

قَدَّره اللّهُ مَنازلَ لِنَعْلَمَ عددَ السّنين والحساب، وبدأه هلالاً لِيكونَ ميقاتاً للنّاس والحجّ، وأكْمَلَهُ بَدْراً لِيَهْتَدِيَ بنوره السُّراةُ والْمُدْلِجون.

فهو في كلّ أطْواره رحمةٌ ونعمة، وهو في كلّ مَنازِله بَرَكةٌ وحكمة، وهو في كلّ أشكاله رَوْعةٌ وجمال.

جَعَله البشرُ أُنموذَجاً للْبَهاء ووصَفوا به وُجوهَ الْغواني، واسْتَلْهَموه بدائعَ الشِّعْرِ وكَتَبوا عنه حُلْوَ الأغاني، وَتَغَزَّلوا في سحره الأخّاد وَتَوَلَّهوا بَدلاَلِه الّذي يَسْبِي القلوب.

فإذا تقلّصَ ظِلُّه عند المحَاق وعادَ كالْعُرجون القديم، تَحَسَّروا على فراقه كما يتحسَّرون على فِراق صديق حميم، وشَبَّهوا بانتقاصه خريفَ العُمُر عندما يُؤْذِن العُمُرُ بالرَّحيل، ومثَّلوا بنهايته نهايةَ كلِّ مخلوقٍ بعد قَطْع مِشْواره الطّويل.

وغَارَ العِلْمُ من هذه العلاقة الوطيدة الّتي تَرْبِط الأرضَ بالقمر، وحَسَدَه على الحبّ الّذي يَحْظَى به من كلّ البشرِ، فَقرَّرَ أنْ يَدُقَّ إسْفيناً في قلب هذه العلاقة ويُكَدِّرَ الصَّفْو، ويَفُكَّ وثاقَ هذه الرّابطة الْمتينة ويُعَكِّرَ الجوّ. فقال العلم: إنّ القمرَ ذَيْلٌ لغيره غيرُ مُسْتَقِلّ، وغارِقٌ في بحر الظُّلمات وليس له ظِلّ. يسْتَمدُّ نورَه من الشّمسِ لِيَعْكِسَه على الأرض، ويَسْرِقُ بضاعتَه من الجيران لِيُوَزِّعَها على الخِلاّن.

ولم تَنْجحِ الوِشايةُ في قطْع ما وَصَلَتْه ملايينُ السّنين. ولم تُفْلِحِ الدّسيسةُ

في إخْماد جَذْوَة الحبّ المكين. فقال الإنسان: لا يَضِيرُ الحسْناءَ أنْ تَتَحَلَّى بزينةٍ تَسْتَعيرُها، ولا يقْدَحُ في المِرْآة أنْ تَعْكِسَ النّورَ الْوَافِدَ على سَطحها، ولا يُسيءُ إِلى الكريم أنْ يُعطِيَ ما يأخُذُ ويُوزِّعَ ما يَجْمَع.

وسُقِطَ في يد العلم لأنّه فَشِلَ في زَرْع الْوقيعَة، واجْتَهَدَ في دراسة الأفلاك حتّى يُفْلِحَ في بَثّ الْقطيعة، واكْتَشَفَ أنّ القمرَ يَخْدَعُ النّاسَ بوجهه المليح وقُرْصِه البديع، ويفْتِنُ القومَ بصَفائه الرّائق وسِحْرِهِ الخَلّاب، وفَجَّرَ قُنْبُلَتَه بأنّ القمرَ في حقيقته كالِحُ الوجه مُقَطَّبُ الجبين، قَفْرٌ مُوحِشٌ يَلُفُّه صَمْتٌ رهيب، قاحِلُ التُّرْبَة ضعيفُ الجاذبيّة، فاقدُ الماء والهواء، ولا يمكن فيه للإنسان اسْتِقرارٌ وبَقَاء.

ولم يتأثّرِ القمرُ باكتشاف العلم ولم يُعِرْهُ اهتماماً، ولم ير فيه نهايةً لعِزّه ولا لأُسْطُورته خِتاماً، إذ لا يُهِمُّ النّاسَ ضَعْفُ جاذِبيّته ما دام يَجْذِبُهم بسحره وجماله، ولا ينقُصُ من حبّهم إيّاه جَفافُ أرضه وقَحالةُ تُربته، لأنّه ليس مَزْرعةً يرجون اسْتِصْلاحَها، ولا غابةً يَبْغُون الاسمتاعَ بخُضْرتِها وكَثافةِ أشجارها.

وأدركَ العلمُ أنّ حقائقَه عن القمر لا تقْطَع عِشْق البشر له ما دام نائياً عن أنظارهم، وأنَّ كلَّ ما يقوله عنه لا يَجِدُ صَدًى في نفوسهم ما دام غيرَ ملموسٍ بأيديهم، فعَصَرَ دِمَاغه وجَنَّدَ أربابَه لكيْ يتغلَّبَ على بُعد المسافة الّتي تَفْصِلُ الأرضَ عن القمر، واسْتَجْمَع عَبْقَرِيَّتَه وعَبَّأَ بُحوثَه لكيْ يُفْلِتَ من شَدّ الجاذِبيّة وينْطَلِقَ في الفضاء الرَّحْب، وَوَصَل إلى أنّه يستطيع أن يأخذَ الإنسانَ في رِحْلَةٍ لِيَطَأَ بِرِجْلَيْه تُرْبَتَه القاحِلَة، ويَجوسَ بنفسه خِلالَ هِضَابِه الْقَفْرَةِ وأوْدِيَته الْمُوحِشة، ويرى بِعينيْه سِباحَتَه في بحر الظّلمات والْتِفَافَهُ بالصَّمْت الرّهيب الّذي يُشْبِه صَمْتَ الأموات.

وأَيْقَنَ القمرُ أنّ الأمرَ هذه المرَّةَ جِدٌّ لا هَزْلَ فيه، فلم يَجِدْ رَدّاً على

العلم ولم يسْتطعْ أن يُكَذِّبَ ما يَدَّعِيه، وعَلِمَ أنّ زَمانَ عِزّهِ قد آذنَ بالغروب، وأنّ أيّام دَلاَلِه قد قارَبتِ النّهاية، وأنّ قصّةَ حُبّه مع الأرض تُوشِكُ أنْ تصلَ إلى آخر فصولها.

فَسَيصلُ الإنسانُ إلى القمر يُدَنِّسُه بشروره ويَصِمُه بعُيُوبه، وسيجعلُه مجالاً لصراعاته وميداناً لحروبه، وستُدَمِّرُه الأَثَرَةُ وتُهْلِكُه الشّهواتُ والأطماع، وسَتَنْتَقِلُ إليه مآسي الأرض ووسائلُ الخُبْث والخِداع.

فتَبّاً للإنسان الباغي لاَ يَلْمَسُ شيئاً نظيفاً إلاَّ لَوَّثَهُ برِجْسِه، ولا يفتح فَاهُ الْهَلوعَ لخيرٍ إلاَّ الْتَهَمَه بجَشَعِه، ولا تَتَطلّعُ عينُه إلى جمالٍ إلاَّ شَوَّهَهُ بحقده.

وخِزْياً لِنَزْعَة الاسْتعباد لا تَحُلُّ بكوكبٍ إلاَّ بَدَّلَتْ هناءَه شَقاءً، وجَعَلَتْ جنَّتَه جحيماً، وقَلَبَتْ هدوءَه اضطراباً، وحَوَّلَتْ سَلامَه حَرْباً.

كليوباترا (*)

مُؤامَرةٌ دنيئةٌ عَجَنها اليهودُ بماء خُبثهم الْقَذِرِ، وخَبَزُوها بيدهم الآثمةِ وأَنْضَجوها في فُرْن حقدهم الْمُسْتَعِر، ثمّ قدّموها جاهِزَةً على طَبَقٍ أمريكيّ اشْتَرَوْه منذ زمنٍ بَعيدٍ بالدّولار.

خُيوطُ المكْر غُزِلتْ في «تلّ أبيب» ونُسِجتْ في بلدِ تمثال الحرّيّة.

(*) «كليوباترا» اسم سفينة تجاريّة مصريّة، امتنع عمّال ميناء «نيويورك» من إفراغ حمولتها من البضائع تحت تأثير النّفوذ الصّهيونيّ، وبالَغوا في التّعبير عن حقدهم ففَقَأوا عين رُبّان السّفينة بسكّين.

وازداد الأمر سوءاً عندما عُرِضت القضيّة على القضاء الأمريكيّ، حيث حكم القاضي بعدالة موقف عمّال ميناء «نيويورك» وبرّأ ساحتهم. وجاء في حيثيّات الحكم أنّ ما قام به هؤلاء العمّالُ هو ردُّ فعلٍ عادلٌ لمنع سفن إسرائيل من المرور في قناة السّويس.. وهكذا يصل تأثير النّفوذ الصّهيونيّ في أمريكا إلى القضاء الّذي يُفْتَرض فيه أن يكونَ قلعةً حصينة غير قابلة للانهيار، ومثابةَ أمْنٍ يلجأ إليها الخائفون والمظلومون.

وكان ردُّ الفعل العربيُّ لحادثة «كليوباترا» رائعاً، فسرعان ما قرّر عمّالُ الموانىء العربيّة ـ وفي مقدّمتهم عمّال الموانىء اللّيبيّة ـ الامتناع من تفريغ شحنات السّفن الأمريكيّة. وقد نفّذوا قرارهم، وكان ذلك موقفاً بطوليّاً سجّله التّاريخ الحديث لعمّال ليبيا وعمّال العرب جميعاً.

وبهذه المناسبة كتبْتُ هذه الخواطر الّتي نُشِر أصلها في العدد 132 من جريدة «اللّيبيّ» بتاريخ 5/ 5/ 1960.

ودسيسةُ الخِيانة خَطَّطَ لها رأسُ «بن غوريون» ونفَّذتْها ذُيولُ الصّهيونيّة. وأمْرٌ صَدَرَ من عَبَدَة العِجْل في الشّرق لِيُطيعَه عَبيدُ نفوذِهم في الغرب.

جاءتْهم تُرَفْرِف على سارِيَتها رايةُ السَّلام البيضاءُ تحمِلُ معها مَشاعِرَ الْوُدّ، فاسْتَقبلوها براية الحرب السّوداء وشَهَرُوا في وجهها سلاحَ الحِقْد.

وأرادتْ أن تُبادِلَهم مَنافِعَ التّجارة وتُبْدِيَ لهم روحَ التّعاون والسَّماحَة، فبادَلوها شرّاً وضُرّاً وأَبْدَوْا لها روحَ العداوة والوقاحَة.

ومدّتْ يدَها إليهم لِتُصافِحَهم في صَفاءٍ وحُسْنِ نِيّة، فمدُّوا أيديَهم إليها بسكّين الغَدْر وخُبْثِ الطَّوِيَّة.

اختاروها لتكونَ ضحيّةَ الكيْد والتّدبير الماكر، واسْتَخدموا العُمَّالَ أداةً لتنفيذ التّآمُر الفاجر، وسَخَّروا إعلامَهم لترويج الإفْك وقَلْبِ الحقائق ونَشْرِ الأباطيل.

ثمّ اسْتَغَلّوا المحكمةَ الّتي يرتفعُ فوقَ مِنَصّتِها ميزانُ القِسْط حتّى لا تَحيفَ ولا تَظْلِم، واشْتَرَوْا ذِمَّةَ القضاء فأدَانَ الْبَرِيءَ وبَرَّأَ ساحةَ المجرم، فأفْسَدوا بذلك ما يجب أنْ يكونَ أبعدَ عن الفساد، ووجَّهوا ما يجب أنْ يكونَ أعْصَى شيءٍ عن التّوجيه.

أرادوها أزْمَةً تَهُزُّ ما بَقِيَ من مواقف العرب الصّامِدَة، وحَبَكوها خُطَّةً تفُكُّ وِثاقَ الْمُقاطعة الخانِقَة، ودَسّوها قُنبلةً تُفَجِّر جدارَ الحصار المنيع.

ولكنْ خابَ ظنُّهم وبَطَل سِحْرُهم، وتقطّعتْ خيوطُهُم واخْتَبَلَ غَزْلُهم، وافْتَضح سِرُّهم وانْفَرَط عِقْدُهم: فقد ردَّتْ «كيوباترا» سَهْمَ كيْدِهم إلى نُحورهم، وجعلَتْ سوءَ تدبيرهم في تدميرهم، وأَوْقَعَتْهم في الْحُفْرَة الّتي حَفَروها لغيرهم.

قاطَعوها فوصَلَتْ بين الإِخْوة، ونَبَذوها فقَاربَتْ بين الأحِبّة. وحكموا عليها زُوراً فحكمَتْ عليهم حقّاً بالخِزْي والعار.

فقد دقّتْ «كليوباترا» جَرَسَ الخطر في آذان العرب الغافلين، وأيقظَتْ مكامِنَ الوَعْي لدى القوم النّائمين، وحَرَّكتْ ساكناً طال أمدُ السّكون عليه.

نبَّهَت العربَ إِلى أنّ السَّيْلَ يُهَدِّدُهم بطُوفانٍ عَرِم، وأنَّ الْحَيَّةَ لا تَنْفكُّ تُوجِعهم باللَّدْغ وتَقْتُلُهم بالسُّمّ، وأنَّ عدوَّهم يفتح عليهم كلَّ الجبَهات ويُحارِبهم في كلّ السّاحات.

سجّلَتْ «كليوباترا» وثيقةً جديدةً من وثائق تَبعَة أمريكا لظِلّ الصّهيونيّة، وأعطَتْ دليلاً آخرَ على أنّ الأمريكانَ صوتُ نُفوذِ اليهود وأداةُ دعايتهم الإجراميّة، وصَفَعَتْ وُجوهَ الّذين يثِقون بأمريكا ويأمُلُون على يديها إرجاعَ الحقّ إِلى ذَوِيه.

نَشَرتْ قَضيَّةُ «كليوباترا» شيئاً من عُفونَة الفساد الّذي اسْتَشرَى في ضمير القضاء الأمريكيّ. وكشَفَتْ زَيْفَ ادّعائهم بأنّهم موطنُ الحرّيّة والقانونِ وبلدُ الحكم الدّيموقراطيّ. وصَرَخَتْ بمأساة القوم الّذين لا يتوَرَّعون أنْ يبيعوا أقْدَسَ الْمُقَدَّسات بالأصفر الرّنّان.

عَلَّمتِ العربَ كيف يُمْسِكون برأس السِّلْك الّذي يُوصِلهم إِلى فَتيل الانفجار، وكيف يتجاوزون سطح الأحداث لِيتعَمَّقوا في الأغْوار، وكيف يَرُدّون الصّفعةَ صَفْعَتَيْن ويَكيلُون الصّاعَ صاعَيْن ولا يَرْضَوْنَ بِالْهَوَان والصَّغار.

فَرُبَّ ضَارّةٍ نافِعة، ورُبَّ نِقْمَةٍ أوْرَثَتْ نعمة، ورُبّ حَسْرةٍ أعْقَبَتْ عِبْرة، ورُبَّ عُسْرٍ فَتَحَ باباً لليُسْر.

فقَدِّموا جزيلَ الشّكر لـ «كليوباترا» الّتي أسْدَتْ إلينا هذا الجميلَ وجعلتْ

فيما نَكْرَهُ خيراً كثيراً، ووَحّدَتْ بضحيتها الصُّفوفَ وحَوَّلَتْ حُزْنَنا بَهْجَةً وسروراً.

وحَيُّوا عمّال العرب الّذين اسْتجابوا لصَرْخَتها، وثأَروا لكرامتها، وكَفْكَفوا دَمْعَتَها، وردُّوا إليها اعتبارَها.

القانون(*)

جرَسٌ حُلْوٌ له وَقْعٌ مُطْرِبٌ في الأسماع، ورَسْمٌ جميلٌ له تأثيرٌ رائعٌ في النّفوس، واسمٌ مُعَبِّر له سُمُوٌّ في عالَم الْقِيَم.

معنًى ضخْمٌ يَحوطُه الجلالُ والْوَقار، وقِمّةٌ سامِقةٌ ترتفعُ إلى أعلى مَنار، ونَفْحَةٌ زكيّةٌ يتَعَطَّرُ بها جوُّ الحياة.

صِمامُ الأمان يَحُولُ دونَ تَماسِّ الخُطُوط، وضَوْءُ الإشارة يمنعُ الْفَوْضى في حركة المرور، ونَجْمَةُ القُطْب تَهْدِي من أضلَّ السّبيل.

الطّريقُ الصّحيحُ الّذي يُوصِل المظلومين إلى ساحة العدالة، والدّليلُ الْوَفِيُّ الّذي يُوَجِّهُ الخائفين إلى مَثابة الأمْن، والرّائدُ الصّادقُ الّذي لا يُخْبِرُ أهلَه بغير اليقين.

أمْسَكَ بيده الميزانَ لِيَرْمُزَ إلى قيامه بالْقِسْط، وسَوَّى بين كَفَّتَيْه في استقامةٍ لِيُعَبِّر عن الْتِزامه الْحِياد، وربَط صِلَتَه بالله لِيكونَ سبحانَه هو الشّهيدَ عليه.

(*) نُشِر الأَصل في العدد 131 من جريدة «اللّيبيّ» بتاريخ 28/ 4/ 1960.

وَضَعَ على عينيْه عِصابةً حتّى لا يُفَرِّقَ بينَ المتخاصِمين في الْمُعامَلَة، وقَطَع علائقَ ذَوِي القُرْبَى والصّداقة حتّى لا يُتَّهَم بالْمُحاباة والمُجامَلة، واعْتَزَلَ كلَّ طوائف النّاس حتّى لا يقولَ مَوْتُورٌ إنَّ طائفةً لها تأثيرٌ فيه، واسْتَقَلَّ عن كلِّ سُلْطَة حتّى لا يَخْضَعَ لأيّ إيحاءٍ أو توجيه.

هو بَلاغُ الرّسلِ الكرام الّذين أنزلَ اللّهُ عليهم الكتاب والْميزانَ لِيقومَ النّاسُ بالقِسْط، وهو دَعْوةُ «حَمُورَابي» البابليّ في ألواحه الّتي بَوَّأَتْ له مكاناً بارزاً في التّاريخ، وهو عُصارةُ أدْمغةِ الفقهاء الّذين قَعَّدوا قواعدَه وَوَضَعوا ضَوابِطَه ولم يَسْمَحوا لسيادةٍ أنْ ترتفعَ فوقَ سيادته.

اَلْهِبَةُ في مَنْطِقِه سُحْتٌ لأنّها اشْتراءٌ لذِمَّته، والْهَديَّةُ في مبدئه رِشْوَةٌ لأنّها ثمنٌ لاسْتِمالَته، والتَّقَرُّبُ إليه تَمَلُّقٌ وهو لا يُحِبّ الْمُتمَلِّقِين.

ليستْ له جِنْسِيَّةٌ فينحازَ إلى بني قومه، وليستْ له قبيلةٌ فيتَعَصَّبَ لعشيرته أو بطنه، وليس له حزبٌ فيتشيَّعَ لأنصاره ومُنْتَسِبِيه، وليس له انتماءٌ سوى انتمائه إلى الحقّ المبين.

هو كالأب الحَنون قد يَقْسُو على ابنه لِيُؤَدِّبَه ويُرَبِّيَه، وهو كالطّبيب المخلص قد يجْرَحُ مَريضَه لِيُعالِجَه ويَشْفِيَه، وهو كالفلاّح الماهر قد يقطع بعضَ فروع الشّجرة لِيُجَدِّدَ للشّجرة حياتَها ويُتيحَ لها النُّمُوّ.

صَبُورٌ لا يُعْيِيهِ البحثُ ولا يَمَلُّ من عَناء التّحقيق. حليمٌ لا يُثيره غَضبٌ ولا يَتبَرَّمُ من خَصْم ولا يَضيق. رَزينٌ يتحرَّكُ بأَناةٍ ويسير في تريُّثٍ وهدوء.

قد يَمْتَدُّ حَبْلُه، ولكنْ لِيُمْسِكَ في النّهاية بالخُيُوط المفقودة الّتي تُوصِله إلى القرار الحكيم. وقد تَطولُ رحلتُه، ولكن لِيعْثُر في الأخير على الضّالّة المنشودَة التّائِهة في صحراء الخِداع والتَّمْويه. وقد تَتَشعَّبُ جَداوِلُه، ولكنْ من

أجل أنْ تتجمَّعَ في مَجْرَى واحدٍ مدفوع بتيّار الحقيقة.

لا تَطغَى عاطفتُه على عقله فيَميلَ إلى اليمين أو الشِّمال، ولا يَسْتَبِدُّ مِزاجُه بإرادته فينحرِفَ عن سَمْت القَصْد والاعتدال، ولا يُؤَثّرُ انطباعُه في حكمه إذا لم تَسْنُدْه الوقائعُ وتُؤَيِّدْه البراهين.

لا يأخذُ بالظِّنَّة لأنّ بعضَ الظَّنّ إثْم. ولا يَعْتَمِدُ على شُبْهَةٍ لأنّ الشُّبهةَ سَرابٌ ووَهْم. ولا يَعْتَدُّ بإشاعةٍ لأنّ مَرْتَعَ الإشاعَة وَخيم.

الْمُتَّهَمُ عنده بريءٌ حتّى تَثْبُتَ إدانتُه. والإدِّعاءُ لَدَيْه مرفوضٌ حتّى تَقْوَى أدِلَّته. والقولُ في نَظَره مردودٌ إنْ كان مَنْسُوجاً من خُيوط العنكبوت.

الضّعيفُ عنده قويٌّ حتّى يأخُذَ الحقَّ له. والْقويُّ أمامَه ضعيفٌ حتّى يأخُذَ الحقَّ منه. والشّديدُ في ساحَته لَيِّنٌ يُشَذِّبُ من غُروره ويُخفِّفُ من صَلَفِه.

قَطْرَةُ الدّم في تقديره عَزيزةٌ لا يَهْدُرُها إلاّ بحقّها. والحُرّيَّةُ في شَرْعه طليقةٌ لا يُقَيِّدُها إلاّ بإساءة استعمالها. وكرامةُ الإنسان في عُنُقه أمانةٌ لا يجوز التّفريطُ فيها.

هو أبو النّاس جميعاً يرعاهم في مودَّةٍ ولا يُحابِي وَلَداً على حساب وَلَد. وهو مِظَلَّتُهم الْواقية تَحْمِيهم في مَحبَّةٍ ولا يَخْرُجُ عن ظِلِّها أحد. وهو مَوْرِدُهم العَذْبُ الّذي يُطْفِيء عَطَشَهم ويَسْقِي زَرْعَهم ويُنْبتُ لهم من كلّ زوج بهيج.

هو الرّجاءُ الواعِدُ حين يَعِزّ الرّجاء، وهو السّبيلُ القاصدُ عندما تَتفرَّقُ السُّبُل، وهو النّصيرُ الثّابتُ حين يُفْقَدُ كلُّ نصير.

هو كالهواء يَتَنَفَّسُهُ الْبَرُّ والفاجر. وهو كالماء يَشْرَبُه المؤمِنُ والكافر. وهو كالْغِذاء لا يَسْتَغْني عنه كائنٌ حَيّ.

لا يَقْبَلُ الوِصايةَ من أحد لأنّه وَصِيٌّ على نفسه. ولا يَخْضَعُ لرقابة سُلطانٍ لأنّ رَقابتَه من ضميره. ولا يَسْتَمِدُّ القُوّةَ من جهةٍ لأنّ قوّتَه نابِعةٌ من ذاته.

في تألُّق نجمه عُنوانُ الحضارة ورُقِيُّ الْوَعْي، وفي أُفول نجمه عنوانُ التّخلُّف وغِيابُ الرّأي.

في احترام مكانته تعبيرٌ عن الازدهار والتّقدُّم، وفي إهانة مَنْزِلَته تعبيرٌ عن التّقَهْقُر والتّأَخُّر.

في حضوره حُضورُ الحرّيّةِ والمسؤوليّةِ والكرامة، وفي فَقْدِه حُلولُ العبوديّة والفوضى والْمَهانَة.

فهو لذلك سِرُّ الحياة إنْ غابَ غابَتْ رُوحُها ومعناها. وهو سيّدُ الْقِيَم إنْ انْهارَ تَضَعْضَعَ أساسُها ومَبْناها. وهو أملُ الإنسان إنْ تَلاَشى فلا يطيبُ له في الدّنيا مُقام.

لكن القانون ليس نُصوصاً تحْيا على الورق وتموتُ في حياة النّاس. وليس شِعاراً يُرفَع في المناسَبات ولا يَنْزِل إلى أرض الواقع المُعاش.

وليس شكْلاً ظاهريّاً برّاقاً خالِياً من المضمون، ولا إطاراً خارجِيّاً جميلاً يُحيط بفَراغ، ولا بَيتاً بلا باب ولا عِمارةً بلا بَوّاب.

وإنّما هو روحٌ خَلاَّقَةٌ تَسْري في موادّ. ومبدأُ الحقِّ يَمْشي بين النَّاس على رِجْلَيْن، والهواءُ المُنْعِشُ تتنفّسُ به رئاتُ الْمُخْتَنِقِين. والبابُ الواسعُ يُفْتَح أمامَ الضّيق. ويدُ العونِ تمتدُّ إلى العدوِّ والصّديق. والسَّيْفُ الْمُسَلَّطُ على رَقَبَة الْبَغْي والعدوان. والفأسُ الْمُجْتَثَّةُ لجُذور العَسْف والطُّغيان. والقِسْطاسُ المستقيمُ الذي يَفْضَح كلَّ إخْسارٍ وتَطْفيف. والْمِجْهَرُ الدّقيقُ الذي يكْشِفُ كلّ تزوير وتزييف.

وجاء قومٌ تَلاعَبوا بقُدْسِيَّة القانون وأهانوا حُرْمتَه، وخَلَفَ خَلْفٌ غَيَّروا طريقه وبدَّلوا وِجْهَتَه، وتَحكَّم مُسْتَبِدّون فقَتَلوا فيه رحمتَه وسَلَبوا منه إنسانيَّتَه.

بَرَّرُوا به الشّرَّ وسَوَّغوا باسمه الرّذيلة، ونفَثوا به الحقد وشوَّهوا به الفضيلة، وأزْهَقوا به الحقَّ ونكَثوا به العهودَ والمواثيق.

خَدَعوا النّاسَ فأطْلَقوا جسدَه وحَبَسوا روحَه في الْأضابير. ووَارَوْا به قُبْحَهم وجَعَلُوه بُرْقُعاً يغَطِّي وُجوهَ الخنازير. وتَظاهَروا بالْغَيْرَة عليه كما يتظاهَرُ بغير الحقيقة المنافقون.

استعملوه لترويج الباطل ومُهِمَّتُه سَحْقُ الباطل. وسَخَّروهُ لظلم العباد وهو رحمةٌ بالعباد. وجرَّموا به البريءَ وبَرّأوا به المجرم، وهو قَلْبٌ لوضعه وتحريفٌ لاستقامته.

رَسَموا صورةَ ميزانِه فوق محاكمهم ولم يَحْفِرُوها على صَفحات النّفوسِ. وأحْيَوْا مآثِرَه في الخُطب والْمَهْرَجانات وأماتوها في الواقع الملموس. وأَعْطَوْه النُّفوذَ والسِّيادةَ بالأقوال وسَحَبوهما منه بالأفعال.

إنْ سَرَق فيهم الشّريفُ تَرَكُوهُ وَزَوَّرُوا له الْأَدِلَّةَ والشُّهود، وإذا سَرَقَ فيهم الضّعيفُ حاكموه وشَدَّدُوا عليه العُقوبة والقيود.

إذا انْحَرَف الْغَنِيُّ قالوا: زَلَّةٌ بغير قَصْدٍ وخَطَأٌ عن اجتهاد. وإذا انْحَرَفَ الفقيرُ قالوا مجرمٌ وَقِحٌ وآفةٌ تَنْشُر الفساد.

إذا عَرْبَدَ ابنُ الوجيهِ قالوا: نَزْوَةُ فِتْيةٍ وطَيْشُ شبابٍ، وادْعُوا له بالهداية. وإذَا عَرْبَدَ ابنُ الخاملِ قالوا: مُسْتَهْتَرٌ شِرِّيرٌ، ووَضِيعٌ خطير، ومُحْتَرِفُ نَزَقٍ وغِواية.

يُمدِّدون القانونَ كما تُمَدَّدُ قِطعةُ المطّاطِ باسم الْمُرُونَةِ والتَّيْسِير. ويلْوُون

أعناق نُصوصِه كما يُلْوَى قَضيبُ الحديد بحُجّة التّأويلِ والتّفسير. ويُوَظِّفون لَباقةَ اللّسان في التّلاعُب بألفاظ الموادّ، وتحريفِ الكَلِم عن مواضعه، وإجازةِ ما لا يجوز.

فهم كبني إسرائيلَ الّذين اسْتَحَلُّوا مَحارِمَ الله بالخديعة والْمَكْر، وأخَذُوا الرِّبا ـ وقد نُهُوا عنه ـ وأكَلوا أموالَ النّاس بالباطل والْغَدْر، وأذابوا الشُّحومَ المَحْظُورَ عليهم أكْلُها وقَبَضوا ثمنَ بيعها بالاحْتِيال، واصْطادوا حِيتانَ يومِ السَّبت الْمُحَرَّم عليهم جَشَعاً وحُبّاً في جمع المال.

إذا جُرِحَ أُصْبُعُ واحدٍ من بني جِلْدَتهم أقاموا الدّنيا وأقْعَدوها وصَرَخوا واضَيْعَتاهُ للقانون. وإذا هم ذَبَحوا آلافَ الأبرياء من غيرهم قالوا دِفاعٌ عن الحريّة ودَعْمٌ للدّيموقراطيّةِ ورَدْعٌ للمُشاغِبين.

فكأنّ القانون سَحابةُ رَحْمَةٍ لا تَنْهَلُّ بالغَيْث النّافِعِ إلاّ على أرضهم.

أو كأنّه عُمْلَةٌ مَحلّيّةٌ لا تُتَداوَلُ إلاّ داخلَ بلادهم.

أو كأنّه بِضاعةٌ ثمينةٌ لا يجوزُ أنْ تَرُوجَ خارجَ أسواقهم.

وكأنّ إنسانَهم مخلوقٌ من مادّة رفيعةِ الْجَوْدَة عظيمةِ الامتياز، وغيرَهم مخلوقٌ من مادّةٍ رديئةِ النّوع سيّئةِ الطِّراز.

وكأنّ الحَقَّ هِبَةُ السّماء نَزَلتْ عليهم من دونِ سائر البشر.

وكأنّ العدالةَ هديّةٌ سَنِيَّةٌ اخْتَصّتْهم بها يدُ القَدْر.

ولكن مهما حاوَل أعداءُ القانون تزييفَه فهو كالجوهر الحُرِّ لا ينطفِىء له بريقٌ تحتَ الْغُبار.

ومهما طَمَسُوا مَعالِمَه فهو كالذَّهَب النَّقِيّ لا يَصْدَأُ بتأثير الأغيار.

ومهما اسْتَغَلّوه في تثبيت الباطل فلا بُدّ أنْ يَزْهَقَ الباطلُ ويَحيقَ المكرُ السَّيِّءُ بأهله.

فللقانون جنودٌ أوفياءُ يحْمون قلْعَتَه، ويحرُسُون حَوْزَتَه، ويُضَحُّون من أجله بالنّفْس والنّفيس.

وللعدالة أنصارٌ أَوْلياءُ يَحفظون حُرْمَتَها، ويُؤَيِّدون دَوْلَتَها، ويَذِبُّون عنها كلَّ دَعِيّ مُحتال وبَغِيّ خسيس.

والحقُّ أحقُّ أنْ يُتَّبَعَ ولو كَرِهَ المجرمون.

والله غالبٌ على أمره ولكنّ أكثر النّاس لا يعلمون.

ليبيا (*)

الأمُّ الرَّؤُومُ الّتي أرْضَعَتْنا بلِبانها الحُرِّ، والأرضُ الطّيّبةُ الّتي غَذَّتْنا بخيراتها المبارَكة، والصَّدْرُ الحَنونُ الّذي احْتَضَنَنا بحُبّه الكبير.

هي تاريخُنا الّذي سجَّلَ عظمةَ أمجادِنا، وهي الذِّكْرياتُ الّتي تعطَّرَتْ بنَفَحات ماضِينا، وهي البُطولاتُ الّي شَهِدَتْها كلُّ بُقْعَة في ساحاتنا.

كلُّ حَبّةٍ من تُرابها نَلْثُمُها بِشِفاه الْعِشْق لَثْماً. وكلُّ ذَرَّةٍ من كِيانِها نفْديه رُوحاً ودَماً. وكلُّ أنّةٍ من أوْجاعها يَتَداعَى لها سائِرُ جَسَدِنا بالْحُمَّى والسَّهَر.

هي نَبْضُنا الّذي يَضْرِبُ في عُروقنا ولا حياةَ لقلبٍ بلا نَبْض. وهي الهواءُ الّذي يَتَردَّدُ بين ضُلُوعنا ولا أنْفاسَ لرئةٍ بلا هواء. وهي الوجْهُ الّذي يُعَرِّفُ بشخصيّتنا ولا شخصيّةَ بلا وجهٍ تَنْعَكِسُ عليه.

دِعامةُ التّثبيت لِخَيْمَة البحر الأبيض المتوسّط. وبوّابَةُ الدّخول إلى فِجاج القارّة الإفريقيّة السَّمْراء. وجِسْرُ العُبُور الّذي يَرْبِطُ ضَفّةَ الشّمال بضَفّة الجَنوب.

(*) نُشِر الأَصل في العدد 119 من جريدة «اللّيبيّ» بتاريخ 4/ 2/ 1960.

كأنّها مُشْتَقّةٌ مِن «اللُّبّ» لأنّها قلبُ العُروبَة وخُلاصَتُها النَّقِيَّة. أو كأنّها مأخوذةٌ من «التَّلْبِيَة» لأنّها الاسْتجابةُ الصّادقةُ والنَّجْدَةُ الأَبِيَّة. أو كأنّها مُنْحَدِرَةٌ من «اللَّبْوَة» لأنّها أُمُّ الأُسود ومُرَبِّيَةُ الأَشاوِسِ الْمَغَاوِير.

همْزَةُ الوصْلِ الجامِعةُ بين شرْق الأمّة العربيّة وغربِها، ومِنْطَقَةُ وَسطِها المختارةُ الّتي هي أحْسَنُ المناطق وأَعْدَلُها، ويتيمةُ عِقْدِها الّتي تُحَلّي جِيدَها وتُضْفِي عليها الرَّوْعَةَ والجمال.

فهي كالزّيتونة المبارَكة لا شَرقيّةٌ ولا غربيّة، أو كنُقْطَةِ تَقاطُعِ الطُّرُق تَلْتَقي عندها كلُّ الاتّجاهاتِ الْفَرْعيَّة، أو كقُطْب ارْتكاز الدّائرة تَنْطلِقُ منه كلُّ الأقطار.

رَضِيَتْ في قَناعةٍ أنْ تكونَ قَنْطَرةً بين طَرَفَي الوطنِ الكبير ما دامتْ قَنْطَرَتُها تَصِلُ ولا تَقْطَعُ وتَرْبِطُ ولا تَفْصِل.

وَصَبَرَتْ في احْتِسابٍ على قَسْوَةِ الطّبيعة وشَظَفِ العيْش ما دامتْ تضُمُّ في صدرها الجناحَيْن وتُحَرِّكُ الذِّراعَيْن.

وغَبَطَتْ إخوانَها على خِصْبهم وغِناهم ولم تَطْوِ في قلبها حَسَداً عليهم، لأنّها تعْلم أنّ رَخاءَهم رخاؤُها وسعادتَهم سَعادتُها.

حاوَلَ أعداؤها أنْ يُزَيِّفوا فَصيلَةَ دمِها فأَبَى دَمُها إلاَّ أنْ يَصْرُخَ بانتمائه العربيّ. وضَرَبوا حَوْلَها حِصاراً لِعَزْلِها عن إخوانها فما زادَها الحِصارُ إلاَّ اعْتزازاً بعُرُوبتها وتَمَسُّكاً بارْتباطها الأُسَرِيّ. ورَسَموا لها حدوداً لِيَخْنُقوا في داخلها أنفاسَها فكانوا كَمَنْ يَرْسُم في الماء ويَخُطُّ في الهواء ويُقيمُ جِداراً بِطُوبِ الخيال.

بَقِيَتْ على الرّغم من كَيْد الكائدين جَبْهةً من جَبهات الأمّةِ الواحدة.

وارتفعَتْ على الرّغم من مُؤَامَرات الْمُتَآمِرين حِصْناً من حصون الإسلام الْمَنيعة. واسْتَمَرَّتْ على الرّغم من عُقوق بعض الأقربين فَرْعاً من فروع الشّجرة الزّكيّة. وظلّتْ على الرّغمِ من مُحاوَلات الكَسْر عُوداً صُلْباً في حُزْمَة الْوَحْدَة المبارَكة.

لا نقول: كم أعْطَتْنا، لأنّها أعْطَتْ كلَّ شيء ولم تَبخَلْ بشيء.

ولا نسأل: هل أخْلَصَتْ لنا، لأنّها الإخلاصُ كلُّه والْعَهْدُ الْوَفِيّ.

ولكن نقول: كم أعْطَيْناها نحن، وهل وَفَّيْناها حقَّها أو بَخَسْناه؟ وهل بادَلْناها إخلاصاً بإخلاص أو خُنَّا عَهْدَها ونَبَذْناه؟

وَصفوها ـ سُخْرِيَةً ـ بصُندوقٍ مُغْلَقٍ من الرّمال، وما عَلِموا أنّ رمالَها تُرْبَةُ الْبُطُولاتِ ومَنْبِتُ الشُّجْعانِ.

ورَمَوْها ـ اسْتِصْغاراً ـ بقِلَّة السُّكّان، وجَهِلوا أنّ هذا القليلَ في النّائبات كثير.

وعَيَّروها ـ احتقاراً ـ فَقْرَها المادّيّ، ونَسُوا غِناها الْمَعْنَوِيَّ الّذي يفوقُ كلَّ غِنًى.

وما دامتْ في نظرهم صندوقاً من الرّمال فلماذا يَتَكالَبون عليها وليس في الدّنيا أرْخَصُ من التّراب؟.

وما دامتْ في حسابهم فقيرةً فلماذا يتنافسون على استكشاف كُنوزها ويَتَشَمَّمون في نَهَمٍ ريحَ نِفْطِها الْجَذّاب؟

وما دامتْ في تقديرهم قليلةَ السُّكّان فَمَنِ الّذي اسْتَدْعاهم لِيُكْمِلُوا نَقْصَها ويُكْثِروا عَديدَها؟

فنحن ضَنِينُون بهذا الصّندوق الْمُغْلَقِ لا نَبِيعُ الْحَبَّةَ من رَمْلِه بِزِنَتِها ذَهَباً.

ونحن قانِعون برزْقنا لا نطلُبُ من أحدٍ صَدَقَةً ولا إحساناً أبداً.

ونحن مُكْتَفون بعددنا القليل لأنّ مقياسَ الرّجال عندنا بالكَيْف والْمِعيارِ لا بِالْكَمِّ والْمِقْدار.

فأحِبّوا أيّها اللّيبيّون ليبيا من قلوبكم فإنَّ حبَّ الوطن من الإيمان. ودافِعوا عنها بكلّ قُوَاكم فإنّ الدّفاعَ عنها دفاعٌ عن ثغْرٍ من ثُغور الإسْلام. وضَحُّوا من أجل بقائها بالْمآقي والْمُهَجِ ففي بقائها بقاؤُكم وفي ذهابها ذَهابُكم.

وإيّاكم ثمّ إيّاكم أنْ تَفْصِلُوها عن جَسَدها فإنَّ العضوَ لا يعيش إذا انْفَصل عن الجَسَد، أو تَنْزِعُوها من كِيانها فإنَّ الجزءَ لا يُمكنُ أنْ يَسْتَقِلَّ عن الكُلّ، أو تَقْتَطِعوها من رَحِمِها فتكونوا كالّذين يَقْطَعون ما أمَرَ اللّهُ به أنْ يُوصَلَ ويُفْسِدون في الأرض.

واحْذَروا من فتنة الْمَارِقين الّذين يُخَوِّفونكم من إخوانكم فإنّما ذلكم الشّيْطانُ يُخوِّف أولياءَه.

وانْتَبِهوا إلى مَكْر أعدائكم الّذين يُوغِرُون صُدورَكم على الجيران ويَسْعَوْن للوقيعة والْهِجْران.

ولا تُنْصِتُوا إلى أبواق الدّعاية المسمومة الّتي تَصُدُّكم عن القريب وتُرغِّبُكم في البعيد.

واعْلَمُوا أنّ ليبيا ليستْ سِلْعَةً مطروحةً للبيع حتّى تُعْرَضَ في سوق الْمُزَايَدات والْمُسَاوَمات.

وليستْ مشروعاً اسْتِثْمارِيّاً حتّى تُكْرَى بالعُقود وتُؤَجَّرَ بالْمُعَاهَدات.
ولَيْستْ ساحةً مُسْتَبَاحَةً يطْمَعُ فيها كُلُّ مُعَرْبِدٍ ويَسْتَحِلُّها كلُّ أَفّاكٍ أثيم.

ولا بدّ من أنْ يَفْسُدَ بَيعٌ تَمَّتْ صَفْقَتُه بالباطل والْغِشّ، ويُفْسَخَ عَقْدٌ أُبْرِم تحتَ حِراب القُوّة والبَطْش.

ولا بُدَّ من أنْ يعودَ الحقُّ الْمُغْتَصَبُ إلى أهله المظلومين، ويرجعَ المتاعُ المسروق إلى أصحابه الشّرعيّين، وتتطَهَّرَ ليبيا من رِجْس الدُّخلاء والْمُحْتَلّين.

اللّه أكبـر(*)

هُتافٌ جميلٌ تَخْتلِجُ به شِفاهُ الملايين، وشِعارٌ عظيمٌ يرفَعُه عيدُ المسلمين، وذِكْرٌ جليلٌ يُسَبِّحُ به كلُّ ما في الوجود.

الله أكبر... بَشائرُ الْعيدِ تَبْدَأُ مع خُيوط فَجْرِهِ الأَبْلَج، وصوتُ نَشيدِه يتردَّدُ في أجناب مُصلاَّه الْأَرْحَب، ورَمْزُ عَظَمَتِهِ يتَجَلَّى في كلّ لحظة من لحظات يومه السّعيد.

الله أكبر... الْوَحْدَةُ الّتي تَجْمَع كلَّ اللاَّهِجين باسمها، والْأُخُوَّةُ الّتي تَضُمُّ كلَّ المؤمنين تحتَ جَناحِها، والْمَحَبَّةُ الْتي تُؤَلِّفُ بين قلوب الْمُنْضَوِين تحتَ لِوائها.

الله أكبر... زِينةُ عيدِنا الّتي يَتَحَلَّى بها مِنْ دون أعياد النّاس، واستقلالُ شخصيّتِنا الّذي نمتازُ به عن كلّ الأمم والشّعوب، ورَوْعَةُ ديننا الّذي يَرْبِط كلَّ أحوالِ المسلم بالله.

الله أكبر... الطَّهارةُ الّتي تُنَظِّفُ عيدَنا من رِجْسِ الْخبائث وتَحْفَظُه من عَرْبَدَة الشَّهَوات. والتّحليقُ الّذي يَسْمُو به إِلى عالَم النُّبْل ويُجنِّبُه الوقوعَ في

(*) نُشِر الأَصل في العدد 76 من جريدة «اللّيبيّ» بتاريخ 9/ 4/ 1959 بمناسبة عيد الفطر لسنة 1378هـ.

الدَّرَكات. والصِّمامُ الّذي يُؤَمِّنُهُ من سوء الحوادث وشرِّ العادات عند المغضوب عليهم والضالّين.

الله أكبر... إعلامٌ بالْفَرْحَةِ الأُولَى للصّائم وادِّخارُ الأخرى له عند لقاء الرَّحمٰن، وحَفْلُ تسليم الجائزة إلى مَنْ صامَ إيماناً واحتساباً وشَهِدَ له رمضان، وإيذانٌ بوقوف الملائكة الكرام على أبواب الطُّرُق يَزُفُّون الْبُشْرَى إلى الْغَادين للصّلاة والرّائحين.

الله أكبر... تُوحِي بالسّماحَة والْعَفْو لِيَذُوبَ جليدُ الْقَطيعة والْبُعْد، وتُغْرِي بصِلَة الأرحام لِيَتَعَمَّقَ في القلوب الْحُبُّ والْوُدُّ، وتدعو إلى تَشَابُكِ الأيدي بالمصافحة لِتَتَشَابَكَ الصّفوفُ في مواجَهة الخُطوب ومُقارَعة الأهْوال.

الله أكبر... العُرْوَةُ الوُثْقَى التي لا انْفِصَامَ لها ولا انْفِصال، والْمَحَجّةُ البيضاءُ الّتي لا يَشْتَبِهُ فيها حرامٌ بحلال، والسّبيلُ القاصدُ الذي لا يَلْتَبِسُ فيه طريقٌ بطريق.

الله أكبر... تُحَرِّرُ الإنسانَ من كلّ عُبوديّة غيرِ عُبوديّته لله، وتُخَلِّصُ وِجْدانَه من كلّ خوفٍ سِوَى خوفِه من موْلاه، وتَرْفَعُ هامَتَه أمامَ أيّ مخلوق لأنّه لا يُطَأْطِيءُ رأسَه إلاّ في الصّلاة.

الله أكبر... بها تتحقّقُ كرامةُ البشرِ لأنّها لا تجعلُ كبيراً فوق الكبير الْمُتَعال. وبها يَسْتَوي العبادُ كأسنان المِشْط لأنّها لا تُفَضِّلُ أحداً على أحدٍ إلاّ بالتّقْوَى وصالح الأعمال.

وبها يتواضَع النّاسُ ويُدركون أنّ مَنْ تواضَعَ لله أحَبَّه ورَفَعَه إلى أعلى مَقام.

الله أكبر... ما افْتَقَرَ بها عَبْدٌ إلى ربّه إلاّ كان غَنِيّاً وإنْ كان من المال مُعْدِماً.

وما اسْتَكْثَر بها مُقِلٌّ إلاَّ كان أُمَّةً وإنْ كان في العدد وحيداً.

وما اسْتَأْنَسَ بها مُسْتَوْحِشٌ إلاَّ كان مُطمئِنّاً ولو كان في الْفَيَافِي شَريداً. وما تعلَّق بها مَكْرُوبٌ إلاَّ نَفَّسَتْ كَرْبَه، وكشَفَتْ غَمَّه، وجَعَلَتْ له من أمره مَخْرَجاً.

الله أكبر... النّورُ الّذي قامتْ عليه السَّمٰوات والأرضُ وصَلَحَ به أمْرُ الدّنيا والآخِرة.

والحقُّ الّذي يَقْذِفُ اللَّهُ به على الباطل فيَدْمَغُه ويَهْدِم دَعْواه الفاجِرَة. والْكَلِمُ الطَّيِّبُ الّذي تَصْعَدُ به الملائكةُ إِلى السّماء لِيُسَجَّلَ في كتاب الأَبرار الْمَرْقومِ الّذي يَشْهَدُه الْمُقَرَّبون.

الله أكبر... الْعَزاءُ الّذي يُواسِي المقهورين ويُغَلِّبُهم على آلام الْجُروح.

وجُرْعَةُ الصَّبْر الّتي تُثَبِّتُ الْمُسْتَضْعَفين وتُزَوِّدُهم بقوّة الرّوح.

وبارِقَةُ الرَّجاء الّتي تُومِضُ في ليل الْيائِسِين وتُمَزِّقُ لُجّةَ الظّلام.

الله أكبر... قاصِمةُ ظُهورِ الفراعينِ مهما طَغَوْا وتجَبَّرُوا.

ومُرْغِمةُ أُنوف الْمُتَأَلِّهين مهما اسْتَعْلَوْا وتَرَفَّعوا.

ومُذِلَّةُ رقاب الْمُسْتَكبرين مهما اسْتَعْبَدُوا واسْتَرَقُّوا.

الله أكبر... لا تُخالِطُ بَشاشَتُها قلوبَ قومٍ إلاَّ دكُّوا بها أقْوَى الْمَعاقِل وهَدُّوا أعْتَى الْحُصون. ولا تَجرِي بها دماءُ جُنْدٍ إلاَّ عَقَدَتْ لهم أَلْوِيَةَ النَّصْر وفَتَحَتْ لهم الفَتْحَ المبين. ولا تَحِلُّ بركتُها بأرضٍ إلاَّ طيَّبَتْ عُنْصُرَها، وأَخْصَبَتْ تُرْبتَها، وآتَتْ أُكْلَها ضِعْفَيْن.

الله أكبر... باسمها جَرَتْ سفينةُ نوحٍ في الْيَمّ واسْتَوَتْ على الْجُودِيّ وقيلَ بُعْداً للقوم الظّالمين.

وبِسِرِّها تعطَّلَتْ طبيعةُ النّار الْمُلْتَهِبَة فكانتْ بَرْداً وسلاماً على إبراهيم.

وبِبُرْهانِها أبْطَلَ موسى السِّحْرَ وانْفَلَقَ له البحرُ فكان كلُّ فِرْقٍ كالطَّوْد العظيم.

وبإذْنها أبْرأ عيسى الأكْمَهَ والأبْرَصَ وأحْيا الموتى ونَبَّأَ القومَ بما يأكُلون وما يدَّخِرون.

الله أكبر... بها شاهَتْ الوُجوهُ ليلةَ الْهِجرة وغَلَبَ مَكْرُ الله مَكْرَ الماكرين. وبها نَسَجَتِ العنكبوتُ السِّتْرَ على غَار ثَوْرٍ فَعَمِيَتْ أبصارُ المتعقِّبين. وبها ساخَتْ في الأرضِ قوائمُ فَرَسِ سُرَاقَةَ فرجعَ يَجُرُّ ذَيْلَ الْخَيْبَةِ والخسران.

الله أكبر... بها رُبِطَ على قلوب المؤمنين يومَ بَدْرٍ وقُذِفَ الرُّعْبُ في قلوب الكافرين.

وبها تَفَرَّقتِ الأحزابُ يومَ الخَنْدَق ورَدَّهم اللَّهُ بغَيْظِهم خاسِئين.

وبها هُزِمَتْ دَوْلةُ الشِّرْك يومَ الفتح ودَخَل النّاسُ في دين الله أفواجاً.

الله أكبر... تذكيرٌ للنّاس بالله حتّى لاَ يَنْسَوْهُ فَيُنْسِيَهم أنفسَهم ويكونوا من الفاسقين.

وتَنْبيهٌ لهم من الغَفْلَة حتَّى لا يكونوا كشرِّ الدّوابِّ الصُّمِّ الْبُكْمِ الّذين لا يَعْقِلون.

وتحذيرٌ لهم الآخِرةَ حتّى لا تَغُرَّنَّهم الحياةُ الدّنيا ولا يَغُرَّنَّهم بالله الغَرُور.

الله أكبر... الْمِقَصُّ الحادُّ الّذي يُشَذِّبُ الاِسْتعلاءَ فيجعلُه مَهيضاً.

والرُّقْيَةُ الشّافيةُ الّتي تُداوِي داءَ الاسْتكبار ولا تُغادِرُ سَقَماً. والتَّعْوِيذَةُ الطَّارِدَةُ لأبي الطُّغاةِ وقُدْوَةِ الْعَالين الّذي باءَ بلعنة الله إِلى يوم الدّين.

الله أكبر... إذا ضاقَ أمْرٌ اتَّسَعَ بِفُسْحَتِها. وإذا صَعُبَ حالٌ تَذَلَّلَ بتَيْسيرِها. وإذا نَزَلَ بَلاَءٌ رُفِعَ بنَفْحَتِها. وإذا اشْتَدَّتْ أَزْمَةٌ اسْتَرْخَتْ بِلِينها. وإذا اسْتَحْكَمَتْ عُقْدَةٌ حُلَّتْ بفَرَجِها. وإذا طالَ ليلٌ بَشَّرَتْ بَالصُّبْح وآذَنَتْ بالْبَلج.

الله أكبر... لا يَطيبُ لليأس مُقامٌ في قلبٍ تَسْكُنُ فيه لأنّها من رَوْحِ الله، ولا يَيْأس من رَوْحِ الله إِلاَّ القومُ الكافرون.

ولا يُقْفَلُ للأمل بابٌ تَفْتَحُه على مِصْراعَيْه لأنّها رحمةٌ، ولا يَقْنَطُ من رحمة ربّه إِلاَّ الضّالّون.

ولا يُرَدُّ أمرٌ تَقْضِي به لأنّها حُكْمُ اللّهِ، واللّهُ يَحْكُمُ لا مُعَقِّبَ لحكمه وهو سريعُ الحساب.

الله أكبر... كلُّ لحظةٍ تمُرُّ من ليلٍ ونهارٍ يرتَفِعُ في الدّنيا نِداؤها.

وكلُّ مَوْجَةٍ من أمواج الأثير تتراقَصُ في الهواء على إيقاعِها.

وكلُّ ذَرَّةٍ في الكون تنْشَطُ في حركتها بقوّة طاقتها.

وكلُّ كوكبٍ ونجمٍ يَسْبَحُ في الفضاء بتَوَازُنِ جَاذِبِيَّتِها.

وكلُّ فَلَكٍ يَدُورُ في مداره بتوجيه «بُوصلَتِها» ودِقّة نظامها.

الله أكبر... سَهْمُها الْمُسَدَّدُ بِنِيَّة الجهاد لا يُخْطِىءُ مَرْماهُ ويُصيبُ مَقْتَلَ الْبَغْي. ولَغْمُها الْمُعَبَّأُ بشُحْنَة الإخلاص لا يَنْطفِىءُ فَتِيلُهُ ويَنْسِفُ قواعدَ الظّلم. ولَهَبُها الْمُشْتَعِلُ بحرارة الإيمان لا يَخْبُو أُوَارُهُ ويَحْرِقُ الْفسادَ والمُفْسدِين.

الله أكبر . . . لو آمَنَ بها أهْلُ الأرضِ حَقَّ الإيمانِ لاَقْتَلَعَتْ من حياتهم أشْوَاكَ الْبُغْضِ وغَرَسَتْ مكانَها أزهارَ المحبّة. ولَقَوَّتْهم من ضُعف، وآمَنَتْهم من خَوْف، وكَسَتْهُم من عُرْيٍ، وأَطْعَمَتْهم من مَسْغَبَة. ولأُقْفِلَتْ مصانعُ السِّلاح، وبارَتْ تجارةُ الحروب، وارتفعَ ظُلْمُ الإنسان عن أخيه الإنسان.

الله أكبر . . . مِقْياسُ الدِّقّة الّذي لا يَسْمَحُ لأحدٍ بأَنْ يتطاوَلَ أعْلَى من مُسْتَوَى قامَتِه المطلوب.

وميزانُ العدل الّذي لا يُجيزُ لامْرِىءٍ أن يَسْتَوْفِيَ أكثرَ من حَجْمه الْمُحَدَّد.

وضَابِطُ الحركةِ الّذي يَمْنَعُ من الانطلاق فوق السّرعة المأمور بها في القانون.

فمنْ تَجاهَلَ هذا المقياسَ، وتَطاوَل أعْلَى من قامَته، سَقَطَ كما تَسْقُطُ النّخْلَةُ الباسِقةُ نَخِرَ لُبَّها السُّوس.

ومَنْ تَحايَلَ على هذا الميزان، وتَضَخَّمَ أكْبَرَ من حَجْمه، انْفَجَرَ كما تنفَجِرُ كرةُ اللّعبِ لم تحتملْ فوق طاقَتها من الهواء.

ومن اسْتَغْفَلَ ضابطَ الحركة، وانْطلقَ بسرعةٍ غيرِ مسموحٍ بها، فَقَدَ تَوازُنَه، وهَوَتْ به الرّيحُ في مكان سحيق.

الله أكبر . . . بَرْدُ الرّاحة لمَنْ لَوَّعَتْه الْمُصيبةُ وأحاطتْ به الأحزان.

وماءُ التّطهير لِمَنْ صَدِىءَ قَلْبُه وتَرَاكَمَ عليه الرَّان.

ونَسْمَةُ اللُّطْفِ لمن اخْتَنَقَ بدُخان الْهَمّ وكَتَمَتْ أنفاسَه مُشكلاتُ الحياة.

الله أكبر . . . كم أطاحَتْ من عُرُوشٍ وأذَابَتْ من كُرُوش.

وكم حَطَّمَتْ من أصنامٍ ونَكَّسَتْ من أعلام.

وكم أخْضَعَتْ من رقاب وقَطعَتْ من ذُيول.

الله أكبر. . . كم غَلَّبَتْ فئةً قليلةً على فِئةٍ كثيرةٍ بإذن الله.

وكم مكَّنَتْ للْمُسْتَضْعَفين في الأرض وجَعلتْهم أئمَّةً هُدَاة.

وكم داوَلَتْ بين النّاس ورَفَعَتْ أقواماً وخَفَضَتْ آخرين.

الله أكبر. . . كم آسَتْ من كُلوم وسَكَّنَتْ من آلام.

وكم جَبَرَتْ من كُسور وعالَجَتْ من أسْقام.

وكم قوَّمَتْ من اعْوِجاجٍ وعدَّلتْ من انحراف.

الله أكبر. . . كم أقَالَتْ للسّالكين في دَرْبها من عَثَرات.

وكم بدَّدَتْ للْمُهتدِين بنورها من ظُلمات.

وكم صَحَّحَتْ للْمُسْتَقْدِرين بها من هِمَمٍ وعَزَمَات.

الله أكبر. . . فيا سعادةَ من انْتَسَبَ إلى طريقتها وكان من مُريديها.

ورَطَّبَ لِسانَه بذِكْرِها واغْتَرَفَ من مَعين وِرْدها.

وانْجَذَبَ إلى أنوار قُدسها وغاصَ في بحر فُيوضاتها.

عيسى بن يوسف الحموني

كَبْش(*)

حَمَلْتَ رَمْزَ التّضحية وهو حِمْلٌ ثقيل.

ودَفَعْتَ ضريبةَ الدّمِ وهو ثَمنٌ جليل.

وقدّمْتَ المَثَلَ الأعلى للْفِداء كشِيمَة أهل الحقّ والإيمان.

أنت بَطَلٌ تُحَقِّقُ معنى البطولة في صَمْتٍ وتَواضُعٍ بلا ادِّعاء.

وأنت شَهْمٌ تؤكّد فضيلة الصّبر بلا عُجْبٍ ولا كبرياء.

وأنت كريمٌ تجودُ بالنّفس والْجُودُ بالنّفس أقْصَى غايةِ الْجُود.

عَجَباً لحيوانٍ مِثْلِك يُعَبِّرُ عن حكمةٍ يَعْجِزُ عنها كثيرون من أفراد الحيوان النّاطِق. ويَا لَعَظَمَةِ بَهيمةٍ تَقْتَحِمُ تجربةً جريئةً لا يُقْدِمُ عليها إلاَّ ذوُو العَزْم الصّادق. ويا لَرَوْعَةِ سائمةٍ تُذَكِّرُ الإنسانَ بما يجبُ ألاَّ ينساه الإنسان.

اسْتَضْعَفوك وهم يعلَمون أنّك تَقْدِرُ على ما لا يَقْدِرُون.

واسْتَصْغَروك وأنت في الحقيقة أكبرُ ممّا يظُنّون.

(*) نُشِر الأَصل في العدد 135 من جريدة «اللّيبيّ» بتاريخ 2/ 6/ 1960 بمناسبة عيد الأضحى لسنة 1379هـ.

واسْتَمْتَعوا بشَهِيّ شِوائك فقط لأنّهم لا يُفكِّرون بغير عقليّة الْبُطون.

فأنت الْقويُّ وهم الضُّعَفاءُ وإنْ رضِيتَ بقَدَرِك واسْتَسْلَمْتَ للسِّكّين. وأنت الشُّجاعُ وهم الْجُبناءُ وإنْ نَكَّسْتَ الرَّأسَ وخَفَضْتَ القُرون. وأنت العِمْلاقُ وهم الأقْزامُ وإنْ تطاوَلوا عليك برَهْبَة الْمَنْظَر وضَخامَة الأجسام.

تملأُ بُطونَهم بلحمك ولا تملأُ قلوبَهم بتَضْحيتك.

وتغْمُرُ نفوسَهم بسُرورك ولا تَغْمُرُها بجميل صبرك.

وتَطْبَعُ الْبَسْمَةَ على شِفاههم وينْتزِعُونَها هم من شِفاه المقهورين.

فمساكينُ هم يقومون بمُهِمَّة الحيوان وتقومُ أنت بمُهِمَّة الإنسان. ويعيشون ليأكُلوا وتعيشُ أنت لتُحْيِيَ الوِجْدان. ويأخذون من الأشياء قُشورَها وتَسْتَحْوِذُ أنت على الجوهر اللُّباب.

فيا لَكَ من ناصحٍ أمين، ولكنَّ القومَ لا يُحِبُّون النّاصحين.

ويا لَكَ من إيحاءٍ عظيم، ولكنْ ذهَبَ الّذين هم بالإشارة يَفْهَمون.

ويا لك من زامِرٍ قديرٍ ولكنّ زامِرَ الْحَيّ لم يَعُدْ يُطْرِبُ أهلَ الحيّ.

فدُم على صَمْتك فإنّه سِرُّ عَظَمَتِك.

واسْتَمْسِك بتضحيتك فإنّها مفتاحُ خُلودك.

واقْنَعْ بحيوانيّتك فإنّك بها مُعافًى من شرٍّ كثير.

ولو انْقَلَبْتَ حيواناً ناطِقاً لَنَدِمْتَ وتمَنَّيْتَ أنْ تعودَ حيواناً أَبْكَمَ وفضَّلْتَ الصَّمْتَ على النُّطق.

وَلَرَفَضْتَ أنْ تعيشَ مثْلَ الإنسانِ تَفْتَرِي الكذبَ وتتعامَلُ بالنّفاق وتَلْبِسُ الباطلَ بالحقّ.

ولَضِقْتَ ذَرْعاً بالكيْد والتّآمُر، والصِّدام والتَّناحُر، والحِقد الدّفين، والْعِداء المكين.

لو صِرْتَ عاقلاً لَشَقِيتَ بحياة العُقلاء المجانين. ولَذُبْتَ حَسْرَةً من مَكْر الماكرين وحَسَد الحاسِدين. ولو حَرَصْتَ على حياةٍ أيّ حياةٍ لَعَزَّ عليك الفداءُ بالحياة كشأن مُعْظَم البشر. ولَوَدِدْتَ أن تُعَمَّرَ ألفَ سنة كما يَوَدُّ اليهودِيُّ وما هو بمُزَحْزِحِه من العذاب أن يُعَمَّر.

ويَكْفيكَ فَخْراً تَتِيهُ به أنّ الله اخْتَصَّكَ من دون الأنعام لتكونَ فِداءً للغُلام الصّابر الحليم.

واختارَكَ جَزاءً وبُشْرى لمنْ صَدَّق الرُّؤيا وجاء ربَّه بقلب سليم.

ورَفَعَ إراقَة دَمِك شَعيرةً من شعائر الله في الحجّ مَنْ يُعَظِّمْها فإنّها من تقوَى القلوب.

وحَسْبُك شَرَفاً أنّ سيّدَ الخلق ورحمةَ الله للعالمين، جَعَلَ من ذبيحتك تعبيراً عن مُناسَبات البَهْجَة وقَبَساً من هَدْيِه المبين.

فأنت من سُنَّته في أُضْحِيَة العيد.

وأنت من سُنَّته في ولِيمَة الزّواج السّعيد.

وأنت من سُنَّته في عقيقة المولود الجديد.

فطُوبَى لمَنْ أحْيا السُّنَّةَ وأماتَ البِدْعَة.

وغَرَسَ في الأرض نَبْتَةَ خَيْرٍ وأضاءَ في الظّلاَم شَمْعَة.

وأدْخَلَ السّرورَ على قلبِ يتيمٍ في يوم العيد ومَسَحَ عن عَيْنَي المحزون دَمْعَة.

أُسْــطــول(*)

زائرٌ ثقيلٌ حلَّ على غير مَوْعِدٍ من الْمَزُور. وطُفَيْلِيٌّ سَخيفٌ لم تُوَجَّهْ إليه دعوةٌ للحضور. وطارقٌ غريبٌ اقْتَحَمَ غير بيته بلا اسْتِئْناسٍ ولا اسْتِئْذان.

مُفاجأةٌ غيرُ سارّةٍ تخلُو من الأَدَب واللِّياقَة. ودُعابَةٌ جِدُّ سَمِجَةٍ تَنْطَوِي على الْقُحَّة والصَّفاقَة. واسْتِخْفافٌ باردٌ للدّم مِمَّنْ عُرِفَ عنه بُرودةُ الدَّم.

عمليّةُ اسْتِفْزازٍ لمشاعر الشّعب، وحَركةٌ مقصودةٌ لإثارة الرُّعب، وإرهابٌ مُبَيَّتٌ لتجديد الأوجاع.

(*) كَتَبْتُ هذا الموضوع بمناسبة زيارة أسطول إيطاليّ يتكوّن من اثنتي عشرة قطعة حربيّة ميناءَ طرابلس يوم السبت 20/ 2/ 1960، حيث فوجىء سكّان المدينة بهذا الأسطول الضّخم يرفع العلمَ الإيطاليّ ولا يرفع العلم اللّيبيّ كما يقتضي التقليد الدّولي في مثل هذه المناسبة. وقد دخل الأسطولُ مياهَنا في تكتيك حربيّ على شكل سهم، وكان يضمّ ستّة آلاف جنديّ بملابسهم العسكريّة الزّرقاء، ما لَبِثوا أن انتشروا في أرجاء المدينة يتجوّلون ويختلطون بالجالية الإيطاليّة. وقد أقام النّادي الإيطاليّ حفلة ساهرة لهم امتدّتْ إلى ساعة متأخّرة من اللّيل، كما دعتهم أُسَرٌ إيطاليّة كثيرة إلى منازلها واصطحبوهم لزيارة الآثار. واستبدَّت الفرحة العارمة ببعض أفراد الجالية فهَتَفوا: «تحيا إيطاليا».

وقد كان لهذه الزّيارة أسوأ الأثر في نفوس المواطنين، وأثارتْ غضبهم واسْتياءهم، ورأوْا فيها تَحدّياً سافراً لمشاعرهم.

نُشِر الأَصل في العدد 122 من جريدة «اللّيبيّ» بتاريخ 25/ 2/ 1960.

جُحْرُ الأفْعَى الّذي لُدِغْنا منه مِنْ قَبلُ ولا يُلْدَغُ المؤمنُ من جُحْرٍ مَرَّتَيْن.

ومُظَاهَرةُ العدوان الّتي احْتَلَّتْ أرضَنا منذُ نصف قرن ولم يَمْحُها من الذّاكرة مرُّ السّنين.

وشَبَحُ الماضي الّذي يُطاردُنا بوجهه الْبَشِع بَعْدَ أنْ ظَنَنَّا أنّه اخْتَفَى إِلى غير رُجوع.

العُقْدةُ الْمُتَرَسِّبَةُ في الأعماق صادَفَتْ من يَسْتَثيرها ويَدْفَعُها إِلى السّطح. والجُرْحُ القديمُ الّذي أَوْشَكَ أنْ يَلْتَئِمَ وَجَدَ من يَنْكَؤُهُ ويُصيبُه بالْقَرْح. وبُركانُ الغضب الّذي حَسِبْنا أنّه خَمَدَ قد حَدَثَ ما يُنْذِرُ بنشاطه ويُهَدِّدُ بجحيم حِمَمِهِ.

وليس من السّهل أنْ يَحْتَفِظَ المواطنُ بهدوء أعصابه وهو يرى أبناءَ سَفّاحِيه يَدُوسُون على أرضه بأحذيتهم العسكريّة.

وليس من الحكمة أنْ يَسْتَضيفَ جَلاَّدِيه ويَفْتَحَ لهم بيتَه ويُحْسِنَ بهم النِّيَّة.

وليس هناك مَنْطِقٌ يُقْنِعُه بأنَّ وَحْشَ الأمسِ الكاسِرَ أصبح حَمْلَ اليومِ الوَديعَ الْمُسالم، وأنّ سَفّاكَ الدّماءِ الْمُحْتَرِفَ قد تاب وأنابَ وهو على ما فاتَ نادِم.

ومن الْغَباء أنْ نَعْتَقِدَ أنّ الطّليانَ قد طَوَى أملَهم الْيَأْسُ وأحْرَقوا كلَّ سُفُنِ العودة إِلى بلادنا.

ومن الغَفْلَة أنْ نَتَصوَّرَ أنّ الأيّامَ قد سَوَّغَتِ الْغُصَّةَ الّتي سَدَّتْ حُلوقَهم بسَبب طَرْدِهم من ديارنا.

ومن الحماقة أنْ نطمئِنّ إِلى أنّ حُلْمَهم في الامتداد إِلى الشّاطىء الرّابع قد تَبَخَّرَ وصار نِسْياً مَنْسِياً.

فقد يُعيد التّاريخُ نفسَه ويُكرِّرُ المأساة.

وقد تشْتَعِلُ شَهْوَةُ الاستعمار مرّةً أخرى في قلوب الطُّغاة.

وقد تسْتَبِدُّ بالقوم الرَّغبةُ الشّديدةُ في اسْتِردادِ الْفِردَوْس الّذي فَقَدوه.

وقد يسيل لُعابُهم لِرائحة النِّفْط الّذي خسِروه.

وقد يَحْدُثُ ما لا يَتَوَقَّعُه أحدٌ ولا يَخْطُرُ على بال.

وقد يتحقَّق ما نَعُدُّه مُسْتحيلاً وقد يتَجسَّدُ ما في الخيال.

وكيف نَأْمَنُ جانِبَ من لا نعرِفُ عنه إلاَّ الْغَدْرَ والخِيانة؟

وكيف نَثِقُ بمن أذَلّنا ولم يُراعِ فينا عَهْداً ولا أمانة؟

وكيف نُحْسِنُ الظَّنَّ بمن كان تاريخُه معنا مُخَيِّباً للظّنّ؟

قد يقول قائل:

ذاك عَهْدٌ قد وَلَّى بوجهه الْكالِح ونحن أبناءُ اليوم. وتلك أُمّةٌ قد خَلَتْ وتَبَدَّلَ الْقومُ غيرَ القوم.

وليس من الإنصاف أنْ نَحْكُمَ على الواقع الحاضر بجريرة الماضي الغابِر، ونُدِينَ الأحفادَ الأبرياءَ بجريمة الأجداد الْمُعْتدين، ونَلْتَفِتَ إِلى الوراء الميّتِ ولا نتطلَّعَ إِلى المستقبل الْحيّ.

وقد يقول هذا القائل:

لقد عَبَّرَ القومُ مِراراً عن رغبتهم الصّادقة في مَدّ حِبال الْوُدّ بينَنَا وإقامةِ جُسُور الصّداقة.

وأبْدَوْا في أكْثَرَ من مُناسبةٍ استعدادَهم لفتح صفحةٍ جديدةٍ نُسَجِّلُ فيها معاً مَتينَ التّعاوُن وحُسْنَ العلاقة.

وتخلَّوْا منذ انتهاء الحرب الكونيّة الثّانية عن فكرة الاستعمار الّتي ذَهَبتْ بذهاب موسوليني وغارسياني غير المأسوف عليهما في دار الجحيم.

ونقول لهذا القائل وأمثاله:

لا يَغُرَّنّكم زُخْرُفُ القولِ وبَهْرَجُ التّصريحِ ومَعْسولُ الكلام، فما ذلك إلاّ للاِسْتِهْلاك السّياسيِّ والنّفاقِ الرّسميِّ ودِعايةِ الإعلام.

ولا يَخْدَعَنّكم تَغييرُ الوجوه والشّعارات، ولا اسْتبدالُ العناوين واللاّفِتات، فالجوهرُ واحدٌ ليس محلَّ اختلافٍ بين زُعمائهم، والأطماعُ حَيَّةٌ لا تزالُ مُخْتَفِيةً في ثَنايا أَحْنائهم.

فقد تُطِلُّ الحيَّةُ برأسها عندما تَشُمُّ رائحةَ فريسةٍ تُغْريها بخُروجها. وقد تَنْفُثُ سُمَّها في الوقت الْمُناسب لاقتناص تلك الفريسة والْتِهامها.

واعْلَموا أنّ السّابقَ يُسَلِّطُ الضّوء على طريق اللاّحِقِ ويُزَوِّدُه بخُلاصَة تَجارِبه. وأنّ الحاضرَ يتلَقّى الدّروسَ من الماضي ويستفيدُ من حَصيلة خِبْرَته. وأنّ العاقلَ من اعْتَبر بحكمة الأيّام، واتّعَظَ بنصائح الزَّمان، وأنَّ الكيِّسَ مَنِ احْتَمَى بِسِياج الْحَيْطَة، وأخَذَ حِذْرَه ممّا يَجِبُ منه الحَذَر.

إنْ كان ما حَدَثَ مِزاحاً فلا نَعْتَقدُ أنّ بيننا وبين الطَّليان اسْتِلْطافاً يَرْفَعُ الحواجزَ والفُروق.

وإنْ كان «نُكتَة» فلا نَعْرِفُ «نُكَتاً» بهذه البُرودة الّتي تُجَمِّدُ الدِّماء في العُروق.

وإنْ كان مُجامَلَةً فبِئْسَت المجاملَة الّتي تَبْتَسِم بأفواه المدافع الثّقيلة وتُصافِحُ بآلاف الجنود.

ثمّ متى ـ أيّها القائل ـ كان يشُدُّنا إلى الطّليان حَبْلُ مودّةٍ حتّى نَخْشَى عليه من القَطْع والانفصال؟

ومتى كانت ترْبِطُنا بهم جُسُورُ صداقةٍ حتّى نَحْفَظَها من النَّسْف ونَضْمَنَ عليها سَلامةَ العُبور؟

ومتى كان حُسْنُ النيّة يُعَبَّرُ عنه باسْتعراض الْقُوّة والتَّشْمير عن السّواعد المفتولَة؟

وكيف نفتَحُ مع الطّليان صفحةً بيضاءَ جديدةً والصّفحاتُ القديمةُ لم يُمْحَ بَعْدُ سَوادُها ولم يُطْوَ بأسُها؟

وهل تَقادَمَ العهدُ على الماضي، وسَكَتَ صُراخُ الثَّأرِ، حتّى نقولَ إنّنا أبناءُ اليومِ وعفا اللّهُ عمّا سَلَف؟

فنحن أعْلَمُ بالقوم لأنّا سَبَرْنا غوْرَهم وبَلَوْنا مَكْرَهم.

ونحن أدْرَى بطَبْعهم وسُلوكهم لأنّا تَجرَّعْنا مَرارتَهم واكْتَوَيْنا بلَظَاهم. ونحن أوْعَى بدروس التّاريخ الّذي لا يَمْنَحُ شهادةَ النّجاحِ إلاّ مَنْ ذاكَرَ مَنْهَجَه حقَّ الْمُذَاكَرة، واسْتَوْعَبَ حكمتَه حقَّ الاسْتِيعاب.

ولماذا نذهبُ بعيداً وهذه آثارُ عدوانهم لا تزالُ حيَّةً تَشْهَدُ عليهم بالإجرام الّذي ارتكبوه، وهذه بَصَماتُ بَغْيهم لا تزالُ دَالَّةً على الدَّمار الّذي خَلَّفُوه، وهؤلاء ضحاياهم لا يزالون يَحْتَرِقون بنار حِقْدهم ويُعانون من نتائج غَزْوهم؟

قد يقول القائل:

إنّ في العالَم الآنَ قوانينَ دُوَلِيّةً تَضْبِطه، ومُنَظَّماتٍ رسميّةً تَمْنَع أنْ يُسْتَعْبَدَ شعبٌ أو يُسْتَعْمَر، وأنّ الحريَّة والْعدالةَ والمساواةَ فيه ضارِبةٌ أطنابَها ورافِعةٌ راياتِها ومكفولةٌ لجميع البشر، وأنْ لاَ تَفْرِقَةَ في الحقوق الإنسانيّة بين

قويٍّ وضعيفٍ وصغيرٍ وكبيرٍ ومُتَخَلِّفٍ ومُتَحَضِّر. فكيف تخافون من العدوان عليكم من دَوْلَة وأنتم بحقوق الإنسان آمِنون؟ وكيف تتوقَّعون شرّاً من أحد وأنتم بالمواثيق الدّوليّة مَحْمِيّون؟

ونقول للقائل:

تلك جَعْجَعَةٌ بلا طَحينٍ ودُخانٌ بلا نار، وقَضيّةٌ بلا دليلٍ وجَوابٌ بلا قَرار. وتلك أُكْذوبَةٌ أَطْلقوها لا يُصَدِّقُها إلاَّ السُّذَّجُ الْمُغَفَّلون، ودِعايةٌ رَوَّجُوها لاِسْتِخْفافِ العقول والضّحِك على الذُّقون.

فهذه فلسطينُ أبْشَعُ مَثَلٍ على الظُّلْمِ واعتداء الإنسان على الإنسان. وهذه فرنسا تَحْرِقُ الجزائرَ بِحَرْبِها وتَسْتَنْكِرُ عليها حقَّها في الحرّيّة والأمان. وهذه أمريكا أحدُ القُطْبَيْن تَغْزُو لبنانَ المُسْتَقلَّ ولا تُقيمُ وَزْناً لرأي عامٍّ ولا تُعِير اهتماماً لاحتجاج المُحْتَجّين.

وكيف نتَّكِلُ في حمايتنا على القوانين الدُّوَلِيّة ونحن نراها كلَّ يوم تُمَزَّقُ بالطُّول وبالْعَرْض؟

وما قيمةُ وثيقةِ حقوق الإنسان إذا كان الكبارُ يَغْتَصِبون الحقوقَ ويَعيثُون فَساداً في الأرض؟

وكيف لا نخافُ على أنفسنا من الطَّليان أو غيرهم ونحن نعيشُ في عالَم يُسَيْطِر عليه البُغاةُ وتسودُه شريعةُ الْغاب؟

الـوطـنـيَّـة(*)

نُسِبَتْ إِلى الوطن وهو نَسَبٌ طَيِّبُ الْأَعْراق. وَصِيغَتْ على المصدر الصِّناعِيّ والمصدرُ أصلٌ في الاشتقاق. ثمّ اسْتَوَتْ حُلْوةَ الجرَس، رَشيقةَ اللّفْظ، عَذْبةَ النَّغَم، بديعةَ الْبِناء.

بِطاقةُ التّعريف بالْهَوِيّة، والْمَلْمَحُ الْبارزُ للشّخْصِيّة، ووَثيقةُ الانتماء إِلى التّراب العزيز.

وَقودُ التّضحية بالْمُرْتَخَص والْغَال، ومُوَلِّدُ الطّاقة لدَأْب الرّجال، وشاحِذُ العزائم ودافِعُ الهِمَم إِلى عظائم الأمور.

فريدةُ القصائد في دواوين الشّعراء. ووَحْيُ الإلْهام في إبداع الأدباء. واللّحنُ الأساسُ في أغاني الْمُطِربين، واللَّوْحةُ الأُولى في معارِض الفنّانين.

وِسامُ الشَّرَف المعَلَّقُ على صدور المجاهدين بحقٍّ في سبيلها.

وشهادةُ التّقديرِ الممنوحةُ للعاملين بجدٍّ من أجلها.

وحُسْنُ الذِّكْرِ للنّاطقين في صِدْقٍ باسمها.

(*) نُشِر الأَصل في العدد 83 من جريدة «اللّيبيّ» بتاريخ 28/ 5/ 1959.

حُبُّها عميقٌ في القلوب كعُمْق جُذورها في الأرض.

والوفاءُ لها أمانةٌ في الأعناق كأَمانة الواجب والْفَرْض.

والتّعَلُّق بها غَريزةٌ فِطْرِيَّةٌ كتَعَلُّق الطّفل بأُمّه الرَّؤوم.

الشَّوْقُ الّذي يُعيدُ الطّائرَ إِلى وَكْرِه مَهْما نأتْ به الشُّقَّة.

والْحَنينُ الّذي يَجْرُفُ الْغائبَ إِلى أصله مهما طالَتْ به الْفُرْقَة.

والْعِشْقُ الّذي يَسْتَبِدُّ بالْمُتَيَّم لا يَنْفَكُّ عنه حتّى الموت.

هي بابُ الزّعامة لمَن أراد الزّعامةَ الحَقَّة.

وهي مُنْطَلَقُ السّياسة لمن مارَس السّياسةَ الصّادِقة.

وهي سُلَّمُ المجد لمنْ تطَلَّع إِلى المجد الْمُؤَثَّل.

هي سِحرُ الخطباء وسِرُّ تأثيرهم في النّفوس.

وهي بلاغةُ الكتّاب وطريقُ وصولهم إِلى القلوب.

وهي درجةُ الامتياز والتّفوُّقِ في كلّ الامتحانات الّتي تُجْريها الحياة.

سَخاؤها مَبْذولٌ لكلِّ مَنْ أعطاها من نفسه والْتَزَمَ مبادِئها.

وحَنانُها مُوَزَّعٌ على كلِّ من اسْتَدْفَأَ بحِضْنها وانْضَوَى تحتَ جَناحها.

وبركتُها شامِلةٌ كلَّ من الْتَمَسُوا رضاها وقاموا ببرِّها.

لا يدخُلُ ساحةَ الخلودِ أحدٌ إِلاَّ بإِذنها. ولا يُقْبَل عضوٌ في نادي البُطولة إِلاَّ بتزكيتها. ولا يُسَجَّلُ عملٌ في صفحة التّاريخ النّاصعةِ إِلاَّ ممهوراً بتوقيعها.

فهي لذلك رفيعةُ المقام عزيزةُ الجناب.

طاهرةُ الذَّيْل نظيفةُ الإِهاب.

يُجَلِّلها الوقارُ وتحوطُها الهَيْبَة، وتسمُو على الشُّبُهات وتَتَنَزَّه عن الرِّيبة.

لكنّ الوطنيّة اسْتُغِلَّتْ من كثيرين أَبْشَعَ اسْتِغْلال وظُلِمَتْ أَفْدَحَ الظّلم. ونالَتْها من الأدْعِياء الإساءَةُ وأصابَها الضّيْم.

واسْتَعْمَلها أعداؤها وسيلةً للتّلاعُب، وأداةً للتّحايُل، وسِتاراً لإخفاء الْعُيوب.

فهي عند الجُهّال الرَّعاع تَصْفيقٌ يُلْهِبُ الأَكُفَّ وصُراخٌ يُمَزِّقُ الْحَناجِر. وانْفعالٌ يَحْرِقُ الأعصابَ، وحَماسَةٌ هَوْجَاءُ تَهُزُّ المنابر.

وفَوْضَى تَخْرِقُ النّظام، وعَبَثٌ يَنْشُر الفساد، واسْتِهتارٌ بسُلطة القانون.

وهي عند المنافقين الْمُتَلَوِّنين ثَوبٌ يَسْتَعِيرونه للخِداع والتّمثيل.

وقِناعٌ يضَعونه على الوجوه للتّمويه والتّضليل.

وتهريجٌ يفتعلونه لِيُوَارُوا به قُبْحَ السَّوْآت.

أمّا تُجّارُ السّياسة فالوطنيّةُ عندهم ظَهْرٌ للرُّكوب ذَلول.

ووسيلةٌ إلى الحكم ومَعْبَرٌ للوصول.

وشِعارٌ للإثارة وكَسْب المؤيِّدين والأنصار.

وعَبَدَةُ المال شَيَّدُوا العِمارات وأقاموا الدَّارات باسم الوطنيّة الّتي تُشجِّع على البناء وتعمير البلاد. وأَسَّسوا الشّركاتِ ونفَّذوا المشروعاتِ باسم إنجاح الخُطَّة وتقوية الاقتصاد. وكوّنوا أضْخَمَ الأرْصدَة وأعْلَى الحسابات في المصارف بحُجّة حماية الثّروة ومُساهَمَة القِطاع الخاصّ في تنمية الوطن.

وهكذا صارت الوطنيّةُ مُبْتَذَلَةً من الْغَوْغاء الّذين لا يفهمون لها معنًى ولا يفْقَهون لها حكمة، ومُشوَّهَةً بفعل المنافقين الّذين لا يَرْعَوْن لها عهداً ولا

يَرقُبون فيها إِلاًّ ولا ذِمَّة، وسُلَّماً يتسَلَّقُ عليه سَماسِرَةُ السّياسة لتحقيق المنافع الشّخصيّة والارتفاع إِلى الْقِمَّة، وشَرَكاً يَنْصِبُه الأَكّالون للسُّحْت لاِقْتناص الثّروة الآثِمَة واصْطياد الكسْب الحرام.

ولكن مهما أصاب الوطنيّةَ من سُوءِ فَهْمٍ فإنَّ الحقيقةَ لا يَضيرها جَهْلُ بعضِ النّاس بها.

ومهما غَشَّ الْجَشِعُون بِضاعَتَها فإِنَّ السِّلْعَة الْجَيِّدَة تَحْتَفِظُ دائماً بِنَقَائها.

ومهما حاوَل الْمُسْتَغِلُّون تغييرَ مَسَارِها فإنّ المُستقيمَ لا يَقْبَل الانحرافَ وسيظلُّ أَقْصَرَ خَطٍّ بين نُقْطتَيْن.

ستبقَى الوطنيّةُ نوراً يَهْدِي المؤمنين بها كما يَهْدي الْقَمرُ السُّراة. وستحتفظ بمكانها الرّفيع كما ترتفعُ الثُّريّا في كَبِد السّماء.

وسَتَسْتمِرّ شُعْلَةً تحرق الخفافيش، وقوّةً تنصُر الحقّ، وساعداً يبني الوطن، وإخلاصاً يصْنَع التّقدُّم والاِزْدهار.

العُمّال(*)

قانِعون يَحْسَبُهم الجاهلُ أغنياءَ من التَّعَفُّف.

أقوياءُ يَخالُهم الْغريبُ ضُعفاءَ من التّواضُع.

صامِتون يُؤثِرون التّعبيرَ بالأفعالِ على ثَرْثَرَة الأقوال.

يَدُهم هي العُليا لأنّهم يأخُذون حقَّهم ولا يُذِلُّون أنفسَهم بالسُّؤال. وأُنوفُهم هي الشّامِخةُ لأنّ نفوسَهم عزيزةٌ لا يُمَرِّغُونها في الأوْحال. وبُطونُهم هي النّظيفةُ لأنّهم لا يَغْمِسُون لُقْمَتَهم في مُسْتَنْقَع الحرام.

اليدُ الّتي تشرَّفتْ بتقبيل سيّد الكائنات، والعبادةُ الّتي ترفعُها ملائكةُ السّمٰوات، والعملُ الّذي يراه الله ورسولُه والمؤمنون.

هم الْمُسْتَمْتِعون بلَذَّة الحياة حيثُ لَذّةُ العيْش في الجِدّ والنَّصَب. وهم الْمُسْتَحِقّون لأوْسِمَة التّقْدير حيث قيمةُ الإنسان في السَّعْي والطّلَب. وهم الأبطالُ في مَنْطِقَة الظّلِّ لأنّهم لا يعملون من أجل الْجاه وتسليط الأضواء.

يأكُلون من عمل أيديهم وإنَّ نبيَّ الله داوودَ كان يأكُلُ من عمل يده.

(*) نُشِر الأَصل في العدد 110 من جريدة «اللّيبيّ» بتاريخ 3/ 12/ 1959.

ويجاهدون في سبيل أُسَرِهم وإنَّ من الجهاد كدَّ الْمرْء لِيَسُدَّ حاجةَ من يَعُول ويتوكّلون على الله حقَّ توكُّلِه بالأخْذ في الأسباب وطَرْقِ الأبواب.

دعائمُ النّهضة لا ترتفع عاليةً إلاَّ على سواعدهم الفَتِيَّة.

ولَبِناتُ التَّقدُّم لا يُشَادُ صَرْحُه إلاَّ على أكْتافهم الْقويّة.

وصانِعو الرَّخاء لا يتحقَّقُ رَغَدُ عَيشٍ إلاَّ بفضلِ كِفاحهم المرير.

ترْتَوِي كرامةُ الوطن من قَطَرات عَرَقهم، وتَتَنَفَّسُ عِزّةُ الأمّةِ من لَهَثات أنفاسِهم، ويتَغذَّى كيانُ الاستقلال من ثمرات جُهودهم.

ما ارتفع دُخانُ مِدْخَنَةٍ إلاَّ من حرارة زَفَراتهم. وما تحرَّكتْ آلةُ مصنعٍ إلاَّ من وَقود أعصابهم. وما نبَتَتْ شَجرةٌ إلاَّ من سَقْي دِمائهم.

يَلينُ الحديدُ لضَرَباتهم الشَّديدة، وتَتَفَتَّتُ الصُّخورُ لعَضَلاتهم المفتولة، وتنْشَقّ الأرضُ لمَعاوِلهم الصُّلْبة.

هم الكادحون الّذي لا يَشْكُون من العَناء.

وهم الْفِدائيّون الّذي لا يَمُنُّون بفِداء.

وهم الصّابرون الْمُحْتَسِبون أجْرَهم عند الله.

لا يُلْقون سلاحَهم في حربهم على التَّخَلُّف لأنّهم يُدْرِكون أنّها حربٌ لا تضَعُ أوزارَها. ولا يُهادِنون في صراعهم مع الفقر لأنّهم يَعُونَ أنّ هذه الهُدْنَة بِطالةٌ تَجْلِبُ عليهم أخطارَها.

ولا يتهاوَنون في أداء واجبهم الْمُقدَّسِ لأنّ التّهاوُنَ خِيانَةٌ يأْباها وِجدانُهم الوطنيُّ الحيّ.

هم القومُ الّذي شَقِيَتْ أجسامُهم واسْتراحتْ ضمائرُهم، واكْتَسَبوا الشَّرَف

من كَدِّهم ولم يَكْتَسِبوه من أنسابِهم، وبَرِئوا من ذِمَّة النّاس ولم يبْرَإِ النّاسُ من ذِمّتهم.

وَسَخُ ثيابهم نظافةٌ في قلوبهم لا يُحَقِّقُها أقوَى غَاسُول.

وخُشونَةُ أيديهم نُعومَةٌ في بَالِهم تَتضاءَل أمامَها نُعومَةُ الحرير.

ورائحةُ عَرَقِهم عِطْرٌ في أنْفِ الفضيلة ليس أزْكَى منه على وجه الأرض.

ثَرْوةُ الأمّةِ الحقيقيّةُ الّتي تفوقُ ثروةَ المال.

واسْتِثْمارُها الثّابتُ الرِّبحِ الّذي لا يُدانيه اسْتِثْمار.

واحْتياطُها الضَّخْمُ الّذي تدَّخِرُه لوقت الحاجة وطوارِئِ الْمُلِمّات.

حَجَرُ الأساس في بناء القاعدة الشّعبيّة. ومَرْكَزُ التّوليد لكلّ القُوَى الْمُنْتِجَة. ومكانُ الْمُقَدِّمَة في الصُّورة الْمُلْتَقَطَةِ لفئات المجتمع الكبير.

ليس في الدّنيا أَلَذُّ طَعْماً من خُبْزهم لأنّه مصنوعٌ من بُرِّ الْحَلال الطّيِّب. وليس شرابٌ أطْيَبَ مَذاقاً من شرابهم لأنّه مَمْزوجٌ برَحيق القناعَة الرّاضية. وليس هناك أَهْنَأُ إقامةً من كُوخِهم لأنّه مَبْنِيّ بطينِ الْعَفاف ومَسْقوفٌ بمِظَلَّةِ العافية.

لا يَعْتَرِيهم قَلَقُ الْجَشَع ولا اضطرابُ الطَّمَع لأنّهم غيرُ مفتونين بزُخْرُف الدّنيا ولا مُتكالِبين عليها.

ولا يَمْرَضُون بعِلَل التُّخَمَة وآفاتِ الْبِطْنَة لأنّهم مُطَعَّمُون بلِقَاح القَصْد ومُحَصَّنون بمَناعَة الكَفاف.

ولا يتلَوّثون بجراثيم التَّرَف الْمُهْلِكة لأنّهم ليسوا بُؤْرَةً لقَذارتها ولا بيئةً مناسِبةً لنُمُوّها.

ولكن . .

لم يعترِف العالَمُ ـ مع الأسف ـ بفضل العُمّال ولم يَقْدُرْهم قَدْرَهم .

ولم يَحترمْ مكانَتهم السّامية ولم يُحافِظْ على حقوقهم .

ولم يُكافِيءْ تضحياتِهم الغالية ولم يُنْصِفْ قضيَّتَهم العادلة .

وما زال العُمّالُ يَشْكُون رَثاثَة حالهم وسوءَ أَوْضاعهم . ويُكافحون من أجل استعادةِ حقوقهم واسْتِرداد كرامتهم . ويُحاوِلون التّخلُّصَ من قَبْضَة مُسْتَغِلّيهم والتّحرُّرَ من أسْر مُسْتَعْبِديهم .

فهؤلاء أصحابُ الأموال يمتصُّونَ دماءَهم لِيُكوِّنوا بها الأرصدةَ الماليّة والأسْهُمَ والسَّنَدات . ويَخْتَطِفون من أفواههم لُقْمَتَهم لِيَبْنُوا بها المنشَآتِ والعمارات . ويَسْتَغِلُّون فَقْرَهم ، ويأكُلون جُهْدَهم ، ولا يُعطونهم إلاّ الْفُتاتَ الْمُتَساقِطَ من موائدهم .

وأولئك زُعماءُ الغرب الرّأسماليّ اسْتَعْملوهم لُعْبةً رخيصةً في مُناوَرات الأحزاب والسّياسة . وقَفَزوا على ظهورهم إلى كراسي الحكم وسِدَّة الرّياسَة . ودَغْدَغوا عواطِفم بالشّعارات الفارغة ، ومَنَّوْهم بالوُعود الكاذبَة ، وأسْكتُوهم بأقلِّ القليل الّذي لا يُسْمِنُ ولا يُغْني من جوع .

أمّا زعماءُ الشّرق الشيوعيِّ فنَوَّمُوهم بمُخَدِّر الْجَنَّة الّتي تنتظرهم في دنيا الأوْهام . وركَّبوهم تُرُوساً في الآلات وحَرَّكوهم قَطِيعاً كالأغنام . وقَتَلوا في نفوسهم الرّحمةَ وأحْيَوْا فيهم الحِقْدَ على البشر . وسَلَخُوهم من عبادة الله لِيعبُدوا صنَمَ الحزب الأكبر .

فاكْفُلوا للعمّال حقوقَهم فإنّ حقَّهم مُعَلَّقٌ بكلّ عُنُق .

واحْفَظوا لهم جميلَهم فإنّ عطاءَهم سابقٌ وفضلَهم سَابغ .

واحْترِموا إنسانيّتَهم ولا تتّخِذوهم مَطيّةً للمنافع الشّخصيّة وجسوراً إلى الحكم والسّلطان.

واعْلَموا أنّ العُمّالَ لا يَسْتَدِرّون عطفَكم لتُحْسِنوا إليهم. ولا يتملّقُون كبرياءَكم لِتتَكَرَّموا عليهم. ولا يتمسَّحون بأعتابكم لِتُطِلّوا عليهم من عَلْيائكم.

فهم الأقوياءُ العازمون على انتزاع حقوقهم مهما قدَّموا من تضحية. وهم القادرون على اسْتِرداد كرامتهم مهما كانت شراسَةُ الاستغلال الوحشيّة.

وهم الْمُدافعون عن قضيّتهم بلا حاجة إلى الْمُتكلِّمين باسمهم والْمُنتَسِبين إليهم بالزُّور والبُهتان.

ويومَ ينطَلِق ماردُ العُمّال من قُمْقُمِه فسوف يُحَطِّم رؤوسَ الرّأسماليّة وصانعيها.

وسوف يكْسِرُ أصنامَ الشّيوعيّة وعابديها.

وسوف يتمرَّدُ على السّجن وجَلاّديه، ويكفُرُ بالحزب ومُعْتَنِقيه، ويتَنَفَّس هواءَ الحرّيّة ويَنْتَشِي بفرحة النّصر.

الـوَحْـدَة(*)

كلمةٌ لطيفةٌ ترقُصُ لها المشاعرُ طَرَباً. ومعنًى عظيمٌ تَتَجاوبُ له القلوبُ حُبّاً. ورمزٌ مُعَبِّر تتعلَّقُ به النّفوسُ كما يَتَعَلَّقُ الغريقُ بقارب النّجاة.

مَلْحَمَةٌ رائعةٌ في سَمْع الزّمن، ومَنارَةٌ مُضيئةٌ في رحاب التّاريخ، وقِصّةٌ شائِقةٌ من واقع الحياة.

أساسُ البناء العربيّ الّذي يُناطِحُ السّحابَ ويُطاوِلُ النّجوم. وأملُ المستقبلِ الزّاهر الّذي يُبَشِّر بالخير ويُؤْذِن بالرَّخاء.

وانطلاقُ الطُّموحِ الواسع الّذي لا تَعوقُه حَواجزُ ولا تَعْتَرِضُه حدود.

هي الخاتمةُ السّعيدةُ لرواية كِفاحنا. والنّهَايةُ السّارَّةُ في مسرحيّة نِضالنا. والنّصرُ المؤزَّرُ لمعركة وجودنا. والثّمرَةُ الطّيّبَةُ لِغِراس السّنين.

عليها جَلالُ الْمهَابَة لأنّها تُوحِي بالوِئام. وفي جَرَسها سِرُّ العظمة لأنّها تدعو إلى المحبّة. وفي دَلالَتها نَفْحةُ الإنسانيّة لأنّها تحترمُ الإنسان. وفي معناها روحُ القُدُس لأنّها من صفات الله.

(*) نُشِر الأَصل في العدد 92 من جريدة «اللّيبيّ» بتاريخ 30/ 7/ 1959.

إِلْحاحُ الضّرورة لا مَفَرَّ من الاستجابة لسُلطانها القاهر. ودَفْعُ الحاجةِ لا بدَّ من الخُضُوع لضغطها الْمُتَحَامِل. ومَنطقُ العصرِ ليس إلى تجاهُلِه من سبيل. وضَمانُ الوجود لا يَقْبَلُ الانتظارَ والتّأجيل.

في غيابها غَيْبَةُ القُوّة والْمَناعَة. وفي فِراقها افْتِراقُ الكلمة وضَياعُ الجماعة. وفي فَقْدِها افْتِقادُ الشّخصيّة وذَوَبان الكيان.

كلُّ الطُّرق مسدودةٌ إلاَّ طريقَها. وكلُّ سلاحٍ مَفْلولٌ إلاَّ سلاحَها. وكلُّ حِصانٍ خاسِرٌ إلاَّ جوادَها.

الحلُّ الوحيدُ للمُشكلات الْمُسْتَعْصِيَة وما عَدَاها تَخْدِيرٌ مَوْضِعِيٌّ وَوَهْم. والْوَصْفَةُ الدّقيقةُ للأمراضِ الْمُزْمِنَة وما سِواها مُسَكِّنٌ مُوَقَّتٌ للألم. والمِفْتاحُ الجيِّدُ لكلِّ بابٍ مُغْلَقٍ وغيرُها فاسدٌ لا يصلحُ لفتحْ الأبواب.

هي السَّيْلُ الجارفُ الّذي يُزيلُ من طريقه الحدودَ الْمُصْطَنَعة ويُشَتِّتُها. وهي الإعصارُ الْعاتي الّذي يَقْتَلِعُ أَشجارَ الإقليميّةِ من جُذورها. وهي الحقُّ الدّامغُ الّذي يُبطِل باطِلَ الْمُتَشَكِّكين ويُدْحِضُ حُجَّة الْمُنْعَزِلين.

هي الْمِبْضَعُ الْبَتّارُ لكلّ وَرَمٍ خَبيث، وهي الْمُبيدُ الْمُطَهِّرُ لكلّ «مِكْرُوبٍ» خطير، وهي السّيفُ القاطِعُ لرقبَة كلِّ فساد.

مَنْ رامَ النّماءَ في غير تُرْبَتها كان كمَنْ يَحْرُثُ في البحر.

ومَنِ الْتَمَسَ اللِّبانَ من غير ثَدْيها كان كمَنْ يحلُبُ الثّوْر.

ومَنْ أدْلَى بواسطة غير واسطتها حَجَبَتْه تلك الواسِطةُ وصَفَعَتْه على وَجْهِه وقَفَاه.

الْغايةُ القريبةُ الّتي يَرْنو إليها سليمو النَّظَر وإنْ بَدَتْ لِأَعْشَى الْعَيْنَيْن بعيدَة. والْخُطْوَةُ الْعِمْلاقةُ الّتي يَقْطعها أصحابُ الْهِمَمِ وإنْ عَجَزَ عنها ذَوُو

الخُطُوَات الْوَئيدَة. والْمَرْحَلَةُ الأخيرةُ للقافلة الْمُغِذَّةِ في السَّيْر وإنْ أتْعَبَتْها الرِّحْلةُ وناوَشَها قُطّاعُ الطَّريق.

ليستْ مُناوَرَةً سياسيّةً بقصْد الخديعة والاحْتيال.

وليستْ طَفْرَةً هَوْجاءَ تتغَيَّرُ بتغَيُّر الظُّروف والأحوال.

وليستْ شِعاراً مَرْفوعاً للاستهلاك ومَطْروحاً لِمُدَاعَبة عواطفِ الجمهور. وليستْ مَنْفَذاً للزّعامة ومَطِيَّةً لِلْجاهِ ووسيلةً للظّهور.

وإنّما هي دعوةُ الحياة للحياة لا يكونُ حُضورٌ بدونها. ومطْلَبُ الأجيال بعد الأجيال لا تتحقّقُ كرامةٌ في فَراغها. وأمانةُ التّاريخ في أعناق الرّجال لا تبْرَأ الذِّمَّةُ إلاَّ بأدائها.

ليس مَبْدَؤُها مطروحاً للنّقاش لأنّه لا يُناقَشُ في الْمُسَلَّمَات. وليستْ موضوعاً معروضاً للاستفتاء لأنّه لا يُسْتَفْتَى في الْبَديهِيَّات. وليستْ أمراً مُحْتَمِلاً للاختيار لأنّه يستحيلُ أنْ يَخْتارَ الإنسانُ ألاَّ يكون.

هي الرَّحِمُ الّتي مَنْ وَصَلَها وَصَلَه اللّهُ ومَنْ قَطَعَها قَطَعَه. وَوَشِيجَةُ الدَّم الّتي تدعو أن يَنْصُرَ الأخُ أخاه وألاَّ يُسْلِمَه أو يَخْذُلَه. واللّسانُ المُبينُ الّذي نَزَلَ به القرآنُ الكريمُ ويتكلَّمُ به الأبرارُ في جنّة النّعيم.

هي بيتُ العائلة الّذي يجمعُ كلَّ أفرادها لا يتخَلّفُ منهم أحد. وحِضْنُ الأُمِّ التي يَلُفُّ كلَّ أولادِها لا يُحْرَمُ دِفْئَها ولَد. والشَّجرةُ الكبيرةُ التي تتفرَّعُ عنها الأغصانُ وتَضْرِب بجُذورها في الأرض.

يُحاربُها الانفصاليّون لأنّهم يخْشَوْن أنْ تُطِيحَ بكَراسيهم وتذْهبَ بنُفوذهم. ويُقاوِمُها الْمُتْرفون لأنّها تُؤْذِنُ بنهاية اسْتغلالهم وقَصِّ ذُيولهم. ويقف في طريقها الصّهاينةُ والغربيّون لأنّها تُحْبِطُ مُؤامَراتِهم، وتَرُدّ كَيْدهم، وتُعيدُ الصّحّةَ إلى الجسم العربيّ المريض.

وعَجَباً لفئةٍ من القوم يُصِرّون على الانفراد وهم يَعْلَمون أنّ الذّئبَ لا يأكُلُ من الْغَنَم إلاَّ الْقاصِيَة. ويُحِبُّون أنْ يَبْقَوْا أقْزاماً وهم يُشاهِدون العالَمَ ليس فيه مكانٌ لِذَوِي الْقَامَات الْواطِئَة. ويتَشَبَّثون بحالة التَّشَرْذُم وهم يُدْرِكون أنّ حُزْمَةَ الْعِصِيّ تَسْتَعْصِي على الْكَسْر فَإِذَا تَفَرَّقَتْ تَكَسَّرَتْ آحاداً.

وسوف يَظَلّون في غَيْبَة الْوَحدَةِ مُحْتَقَرين ليس لهم وَزْنٌ كالأَيْتام على مأدُبَة اللِّئام، مُهْمَلِين ليس لهم قيمةٌ كالأصْفار على يَسار الأرقام، مُسْتَضْعَفين في الأرض يَخافون أن يَتَخطّفهم النّاسُ لا يجدون حيلةً ولا يهتدون سبيلاً.

فمثَلُهم كمثَل من يَحْفِرُ قَبره بيده ويَسْعَى إلى حَتْفِه برجْليْه. ومصيرُهم كمصير مَنْ يقْنَع بأنْ يكونَ عَبْداً ذليلاً يتحَكَّمُ سَيِّدُه فيه. وشأنُهم كشأن من يستوي وجودُه وعَدَمُه، إذا غابَ فلا يُسْأَلُ عنه وإذا حَضَر فلا يُلْتَفَتُ إليه.

ولا بأسَ بأنْ يتميَّزَ كلُّ أخٍ في العائلة الواحدة بخصائصَ تُكْمِلُ خصائصَ الإخْوَةِ الآخرين.

ولا ضَيْرَ أنْ يكونَ بينهم تَنَوُّعٌ مُثْمِرٌ من خلال الْوَحْدَة الّتي تَضُمُّهم أجمعين.

ولا حَرَجَ في أنْ يَهْتَمَّ كلُّ أخٍ بتحسين غُرْفَته لأنّ تحسينَ الغُرَف في النّهاية تحسينٌ لبيت العائلة كلِّه وراحةٌ لجميع سَاكِنيه.

وتيَقَّنوا أنّ الْوَحْدَةَ قوّةٌ، ومَنْ تَخَلَّى عنها ضَعُفَ وهانَ واستكانَ، وافْتَرَسَتْه الوُحوشُ ونَهَشَتْه الذِّئاب.

والْوَحدةُ حِمايةٌ، ومَنْ خَرَج مِنْ قَلْعَة الحمايةِ كشَفَ ظَهْرَهُ، وَفَقَدَ نَصيرَه، وتَنَاوَشَتْه الكِلاب.

والْوَحدةُ جماعةٌ، ويدُ الله مع الجماعة، ومَنْ شَذَّ شَذَّ في النّار.

اللاّجئون(*)

الحُطامُ الّذي خَلَّفَتْه المعركةُ في ساحة الْبَغْي، والرُّكامُ الّذي تَجَمَّع من أنقاض غارَة الْغَدْر، والأَشْلاءُ الّتي تَطايَرَتْ من انفجار قُنْبُلَة المأْساة.

هياكلُ عَظْميّةٌ تجرَّدَتْ من الشّحم واللّحم تَدِبُّ على قَدَمَيْن، وأشْباحٌ بَشَريّةٌ أضْناها البُؤسُ والحِرْمانُ تَتَراءَى لِلْعَيْنَيْن، وبقايا إنسانٍ اخْتَفَتْ من وجهه ملامِحُ الإنسان.

ضَحيّةُ التّآمُر على أرضِ فِلَسطينَ الحبيبة، وذَبيحةُ الْوَليمةِ في يوم ميلاد إسرائيلَ اللَّقيطَة، ونَزيفُ الدّمِ من الْجُرح الغائر الّذي لا يُريد أنْ يَكُفّ.

مُشَرَّدون في الأرض ليس لهم بيتٌ يُؤْويهم، لأنّ بيتَهم اغْتَصَبَتْه عِصاباتُ المجرمين في وَضَحِ النّهار.

هائِمون على وجوههم ليستْ لهم بِطاقةٌ تُعَرِّفُ بهم، لأنّ بِطاقتَهم سَرَقَها قُطّاعُ الطُّرُق في غَيْبَة الأمن والاستقرار.

مظلومون في حقِّهم لم يجدوا ضميراً يُنصِفُهم، لأنّ للباطل سَطْوَةً ليستْ للحقّ في هذا الزّمن الرّديء المحكوم بمعدومي الأخلاق.

(*) نُشِر الأَصل في العدد 120 من جريدة «اللّيبيّ» بتاريخ 10/ 2/ 1960.

أمواتٌ في شكل أحياء يَرْتدون أسْمالاً أشْبَهَ بالأكْفان ويسْكُنون مُخَيَّماتٍ أشْبَهَ بالقبور.

وأحياءٌ في شكل أمواتٍ ضاقَتْ عليهم الأرضُ بما رَحُبَتْ وضاقَتْ عليهم الصُّدور.

فهم كحالة المُحْتَضِر الْمُعَلَّق بين بَرْزَخ الحياة وبرْزَخ الموت. أو كالرُّوح الْمُذَبْذَبَة بين ضَفَّة الدّنيا وضفَّة الآخِرة. أو كالسِّنَة بين الْيَقَظَة والمنام لا تَتميَّزُ فيها صورةُ الحقيقة من وَهْم الخيال.

يَجْتَرُّون الْأَلَم حتّى مَلَّهم الأَلَم. ويتجرَّعون الحِرمانَ حتّى غَصُّوا بالحِرمان. ويسْتعينون بالصّبر حتّى نَفِدَ منهم الصّبر.

نَضَبَتْ مَآقيهم من الدّموع لأنّهم اسْتَفْرغوا منها البراميل. وابْيَضَّت أعْيُنُهم من الحُزْن ولم يُجْدِهم الْبُكاءُ ولا العويل.

سَكَتَتْ أصواتُ حناجرهم لأنّ حِبالَها انْقَطَعَتْ من كثرة الصِّياح، وخَمَدَتْ نارُ حماسَتهم لأنّ لهيبَها أطفأَتْه عَواتي الرّياح.

هَبَطَتْ أيديهم الّتي لَوَّحوا بها سِنينَ طويلةً في الْمُظَاهَرات والْمَسيرات، لأنّها انقَلَبَتْ إلى أيدٍ سُفْلَى تَسْتَدِرُّ الإحْسان وتَسْتَجْدِي الصَّدقات.

تَاهُوا في بَيْداء الْحَيْرَة وضَاعَ من أرجلهم السّبيل، وتَلَبَّدَتْ سماؤُهم بالغُيوم فلم يهتدوا بنجم القُطْب وغابَ عنهم الدّليل.

اختلطَتْ عليهم الأمور فلا يَدْرون أهُمْ على سَفَرٍ أمْ على إقامة، وسَبَحوا في بحار اليأس وفَقَدوا طَوْقَ النّجاة وابْتَعَدوا عن بَرّ السَّلامَة.

هم أصحابُ الأرض الحقيقيّون نَبَتُوا فيها من آلاف السّنين وتَنْطِقُ بذلك كلُّ حَبَّةٍ من ترابها.

وهم أهلُ الدّيار الأصليّون تَوارَثوها جِيلاً عن جيل وتحتفِظُ لهم بسَنَدها وثائقُ العَقارات وسِجلاّتُها.

وهم أربابُ الحقّ الشّرعيّون يَشْهَد لهم به التّاريخُ الصّحيحُ الذي لا يَعْرِف الكذبَ ولا يَقْبَل التّزْوِير.

تألَّبَ عليهم الشّرقُ والغربُ فاقْتلَعوهم من أرضهم ـ وهم جُذورُها ـ وغَرَسوا فيها شُذّاذَ الآفاق.

وتآمَرَتْ عليهم الدُّوَلُ الكبرى فأخْرَجَتْهم من ديارهم ـ وهم مَالِكوها ـ وَوَهَبَتْها لمن ليس لهم فيها شُبْهَةُ اسْتحقاق.

وخَدَعَتْهم منظّمةُ الأمم المتّحدة فَمَنَّتْهم بالوُعود الكاذبة، وخَدَّرَتْهم بالأوْهام الزّائفة، وغَيَّرَتْ مَسارَ قضيّتِهم من قضيّة حقٍّ مغصوبٍ إلى قضيّة لاجِئين.

ولكيْ تَبْدُوَ المنظّمةُ الْعتيدةُ إنسانيّةً في تعَامُلها، وتُظْهِرَها الدِّعايةُ رحيمةً في إجراءاتها، آوَتْهم في مُخَيّمات يفْتَرِشون فيها الأرضَ ويتغَطَّوْن بالسّماء، وخصَّصَتْ لهم هيْأةً للإغاثة تُمِدّهم بفُتات الطّعام الْمُتساقِط من موائد الكُرَماء، وجامَلَتْهم ببعض القرارات الباردة أعْطَتْهم ـ على الورق فقط ـ حقَّ العودة إلى وطنهم السّليب.

وتطَلّعتْ أنظارُ اللاّجئين إلى إخوانهم لعلّ فيهم بقيّةً من نَخْوَة تُثِير فيهم حَمِيَّةَ الجهاد من أجل الْمُسْتَضْعَفين.

وتَلَهَّفَتْ قلوبُهم نحوَ بني قومهم لعلّ نَسَبَ الدَّم يَصْرُخُ فيهم مُذَكِّراً إيّاهم بعهد العُروبة المتين.

وهَتَفوا: وامُعْتَصِماه! لعلّ مُعْتصِماً يَهُزُّه النِّداء، ويَعْظُم فيه الرَّجاء، فَيَرُدّ مُجيباً: لَبَّيْكِ لَبَّيْكِ فِلَسْطين.

ولكن انقَلَبَ إلى اللاّجئين الْبَصَرُ خاسِئاً وهو حَسير. ورَجَع صَدَى لَهْفَتهم خافِتاً وهو كَسير. ولم يُلَبِّ مُعْتَصِمٌ نِداءَهم كأنّ الأمّة قد عَقَمَتْ عن وِلادَة مُعْتَصِمٍ جديد.

واكْتفَى الإعلامُ العربيُّ بترديد الأناشيد الحماسيّة الّتي تَشْتَعِلُ بالنّار وتَثورُ ببُركان الغضب، وتَحْبيرِ المقالات الْمُلْتهِبَة الّتي تُوعِد بإلقاء إسرائيلَ في البحر وتُلَوِّحُ بسيوف الخشَب، والدِّفاعِ عن حقوق اللاّجئين بالرُّسوم السّاخِرة و«النُّكَتِ» الهَزَليّة والتّعليقات الطّريفة الّتي تُضْحِك في وقت البكاء وتَلْعَب في وقت الجِدّ.

أمّا الحُكّامُ االعرب فقد ناصَروا اللاّجئين باجتماعات الجامعة العربيّة المعتادة وغير المعتادَة الّتي أرْبَتْ على عدد شُعور رؤوسهم وذُقُونهم. وأَيَّدوا الْقَضيّةَ في مؤتمرات القِمَّة وتحتَ الْقمّة الّتي عَقَدُوها بعدد الدُّولارات الْمُنْتَفِخَةِ بها أَرْصِدتُهم. ووَاسَوُا اللاّجئين بقرارات التّنديد وبيانات الاحتجاج وتصريحات الاستنكار.

وكانوا كلّما انْفَضّ لقاؤهم وُدِّعوا بمثل ما اسْتُقْبِلوا به من عظيم الْحَفاوَة وفائِق التكريم، وشُيِّعوا بالدّعاء بأنْ تَصْحَبَهم السَّلامةُ في الظّعْن والإقامة وأنْ يحفَظَهم اللّهُ ذُخْراً للأمّة وسَنَداً لفلسطين، ثمّ اسْتُقْبِلوا في بلادهم استقبالَ الفاتحين العائدين بالنّصر المُبين.

وتَسَلَّل من ظلام الْمُخَيَّمات أُناسٌ من ضحايا النّكْبَة قَفَزُوا على أكتاف اللاّجئين الْواهِنَة واقْتَنَصوا لأنفسهم زَعامات. وتَسلَّقوا على أكْوام الأجساد الْمُحَطَّمَة فشَيَّدوا العِمارات وأسَّسوا الشّركات. وتاجروا بالقضيّة في سوق السّياسة وسَمْسَروا بها في أرْوِقَة المُراهَنات.

ساوَموا باسم اللاّجئين واتَّخَذوا منهم قميصَ عثمان. وكوَّنوا من أنينهم ذُيوعَ الصّيت وصَنَعوا من حُطامهم كُرْسِيَّ السّلطان.

تَقَوَّوْا من ضعف اللاّجئين وانْتَعَشُوا من اختناقهم، وامْتَلأَتْ خزائنُهم من فَراغهم وأثْرَوْا من فقرهم، وأُتْخِموا من جُوعهم وارْتَوَوْا من ظَمَئِهم، فكانوا بذلك أشدَّ بَلاءً على قومهم من عدوّهم، وأحْرَصَ النّاس على امتداد عمر المأساة حتّى يستمرّوا في حَلْب ضَرْع البقرة العَجْفاء الّتي أجْهَدَها موسمُ القَحْط والقَحالة.

فيالَلّهِ للاّجئين، تناوَشَتْهم السِّهامُ المُصَوَّبةُ إليهم من البُعْد والقُرْب. ومَزَّقَتْهم الخناجِرُ المسمومةُ المنطلِقَةُ نحوَهم من كلّ صَوْب. وتآمَر عليهم العدوُّ فلم يَألُهم خَبالاً. ولم يرحَمْهم الأخُ فلم يألُهم اسْتغلالاً.

وليس لهم إلاّ اللّهُ يجْأَرون إليه ويرفعون شَكاتَهم، وليس سواه يكشِف ضُرّهم ويُفَرِّج هَمَّهم، ويُعيد إليهم حقَّهم.

الشّهيد(*)

أمَرَه اللّهُ بالجهاد فنَفَر خَفيفاً غيْرَ مُتَثاقِلٍ ولا مُتَباطِىء. وناداه الوطنُ العزيزُ فلَبَّى نِداءَه غيرَ وَجِلٍ ولا مُتَلَكِّىء. وحَفَزَه الواجبُ المقدَّسُ فأدّاه بإخلاصٍ غيرَ مُنْتَظِر من إنسان جزاءً ولا شُكوراً.

تَسلَّح بعقيدته فزَوَّدَتْه بطاقة الإيمان القويّة. واسْتَلْهَم تاريخَه المجيدَ فذَكَّرَهُ بماضي أُمَّته الأبِيّة. واسْتَفَزّه الظّلمُ الصّارخُ فَغَلَى في صدره مِرْجَلُ الغضب للحقّ المهضوم.

لم يَرْضَ بالضَّيْم لأنّ الرِّضا بالضَّيْم من شِيمَة العبيد وهو ليس عَبْداً. ولم يَسْتَسْلِمْ للواقع لأنّ الاستسلامَ للواقع صِفةُ الجُبَناء وهو ليس جَباناً. ولم يلتجِىءْ إلى الأعذار لِيتَخلَّفَ لأنَّ الاعتذارَ في ساعة العُسْرة دَأْبُ المنافقين وهو ليس مُنافقاً.

لم يَخُضِ المعركةَ رِئاءَ النّاس لِيُقالَ إنّه جَرِىءٌ شُجاع. ولم يُبْلِ البَلاءَ الحَسَنَ في صفوف العدوّ لِتُعَلَّقَ على صدره الأوْسِمَةُ والنّياشين. ولم يُضَحِّ بنفسه لِيُطْلَقَ اسمُه على شارع أو مدرسة أو يُتَغَنَّى بِذِكْرِه في نشيد.

(*) نُشِر الأصل في العدد 133 من جريدة «اللّيبيّ» بتاريخ 12/ 5/ 1960.

وإنّما خاض المعركةَ لِتَعْلُوَ كلمةُ اللّه ولِيذُودَ عن الْمُسْتَضْعَفين من الرّجال والنّساء والوِلْدان. وأبْلَى في النِّزال البَلاءَ الحسَنَ لينالَ إحدى الحُسْنَيَيْن ويَرْضَى عنه الرَّحمٰن. وجادَ بالنّفسِ ليُنْقِذَ وطنَه من الهلاك ويعيشَ أبناء أُمّته في حرّيّةٍ وسلام.

لم يُوَلِّ العدوَّ ظَهْرَه كما يفعلُ الخائفُ الرِّعْديد. ولم يَفْقِدْ ثباتَه وصَبْرَه عند احْتدام القتال الشّديد. ولم يتَردَّدْ في اقتحام الموت عندما رأى الموتَ طريقاً إلى الحياة.

وسَقَط صريعاً في أرض الجهاد واسْتَقْبل الشّهادةَ بقلب المؤمن الْمُحْتَسِب. وقَبَضَ قبلَ أنْ يَلْفِظَ آخِرَ أنفاسِه حَفْنَةً من التّراب يَشُمّها بلَهْفَةٍ كما يفعلُ العاشِقُ الْمُحِبّ. والْتَفَتَ إلى الرَّوابي الخُضْر يَلْتَهِمُها بعينَيْه قبلَ أنْ يُوَدِّعَها الوَداعَ الأخير.

وارتفعَتْ روحُه يَغْمُرُها النّورُ فاسْتَضاء بها كلُّ ما في الوجود. واصطفّتْ ملائكةُ السّماء مُبْتَهِجَةً بقدومه مُرَحِّبةً به في عالَم الخلود. وزَغْرَدَتْ أُمُّه لنبأ استشهاده مثلَما زَغْرَدَتْ يومَ زواجه السّعيد.

مَنْ قال إنّه ميّتٌ وهو حيٌّ عند ربّه مُنَعَّمٌ برزقه؟

ومن قال إنّه كئيبٌ وهو فَرِحٌ بما آتاه اللّهُ مُسْتَبْشِراً بفضله؟

ومن قال إنّه خائفٌ والشّهداءُ لا خوفٌ عليهم ولا هم يحزَنون؟

لا يرغبُ في الْعَوْدَة إلى الدّنيا إلاّ أنْ يُقاتِلَ من جديد فيُسْتَشْهَدَ ثانِياً فيَزْدادَ كرامَة.

ولا يَنْدَمُ على الْفاني تَرَكَهُ وراءَه لأنّه يَجِد أمامه ما هو خيرٌ وأبْقَى في دارِ الْمُقامَة.

ولا يَسْتَوْحِشُ بفَقْد الأهل والأصدقاء والأحِبّة، لأنّه يَسْتَأْنِسُ بسَلَف الشّهداء ويَلْقَى محمَّداً وصَحْبَه.

اشْتَرَى اللّهُ منه نفسَه بأنَّ له الجنَّةَ فاسْتَبْشَرَ ببَيْعه الّذي بايَع به وذلك هو الفوزُ العظيم.

وأوْفَى له سبحانَه بوعْدِه الحقِّ في كُتُبه الثّلاثة ومَنْ أوْفَى بعهده من الله العزيز الحكيم؟

وتاجَرَ بالتّجارة الّتي تُنْجيه من عذاب أليم، فَرَبِحَتِ التّجارة، وغَنِمَ المغفرة، وكَسَبَ دخولَ الجنّة، وفوق ذلك مَسْكنٌ في عِلِّيِّين.

جُروحُه فَوَّاحَةٌ ريحُها عند الله أطْيَبُ من ريح المِسْك. وجَبْهَتُه وَضّاحَةٌ تَبْرُقُ بوميض الإيمان وطمأنينة النّفس. وروحُه سَيّاحَةٌ تَسْرَحُ في ملكوت الله وهي في أجْواف طَيْرٍ خُضْر.

لا يُطْفَأ للحرّيّة مِشْعَلٌ ما دام هو وَقُودَها. ولا تَنْتَكِسُ للأمّة رايَةٌ ما دام ركيزَةَ لِسارِيَتِها. ولا يَطْمَعُ في الأرض طامِعٌ ما دام مَزْرُوعاً في تُربتها.

هو ثمنُ النّصرِ الباهِظُ من بَخِلَ عن دفْعِه تَجَرّعَ ذليلاً كأسَ الْهَزيمة الْمُرّ. وهو جَبَلُ الكرامةِ الْوَعْرُ مَنِ اسْتَصْعَبَ صُعودَه عاشَ أَبَدَ الدَّهرِ بين الْحُفَر. وهو الْمَاحِي لوَصْمَة العار لا يَغْسِلُ رِجْسَها من الْجَبين إلاَّ دَمُه الْمُنْهَمِر.

لو أصاب الأُمّةَ الْوَهْنُ وخَلَتْ ساحَتُها من رَمْزِهِ، لَتَدَاعَتْ عليها الأُمَمُ كما تَتَدَاعَى الأَكَلَةُ على قَصْعَتها.

ولو رَضيَتْ بالْهَوَان ولم تَفْتَدِ نفسَها بروحه، لَفَشِلَتْ وَذَهَب ريحُها وضاعَتْ شَوْكَتُها.

ولو لم تحْتَمِلْ بعضَ الخسارة في رأس مالها البشريّ، ما انْهالَتْ عليها الأرباحُ في نهاية الْمَطاف، وجَنَت المحصولَ الوفيرَ في نهاية الموسم.

فيا لَعَظَمَةِ الموت الطّاهرِ للشّهيد يَتفجَّرُ منه يَنْبُوعُ حياةٍ ووجود.

ويَالَغَرَابَةِ غِيابه بجَسَدِه يَتِمُّ به لقومه حُضورٌ وشُهود.

ويا لَعَجَب نَقْصِه في كَفَّة الْكَمّ تكونُ به الزّيادةُ والرُّجحانُ في كَفَّة الْعِزَّة والشَّمَم والشُّمُوخ.

لا يُغَسَّلُ لأنّ الشّهادةَ لا تَتْرُك فيه وَضَراً حتّى يُطَهَّرَ منه. ولا يُكَفَّن، لأنّ ثيابَه الّتي الْتَصَقَتْ بجسمه تَرْفُضُ أنْ تَفْتَرِقَ عنه. ويُدْفَنُ في مكانه، لأنّ البُقْعَةَ التي ارْتَوَتْ بدمه تُحِبُّ أنْ تَتَشَرَّفَ بضَمّها في أحشائها.

عُمُرُه أطْوَلُ الأعمار، لأنّه باقٍ ما بَقِيَ النّاس.

وسيرتُه أزْكَى السِّيَر، لأنّ شَذاها مُنْتَقِلٌ عَبْرَ الأجيال.

واسْمُه أخْلَدُ الأسماء، لأنّه منقوشٌ على لَوْحَةِ التّاريخ.

شَمْعَتُه تُضِيء باستمرارٍ ولا تَذوب. ومُوَلِّدُهُ يُزَوِّدُ بالطّاقة ولا يتوقَّف. ونَبْعُه يَتَدَفَّقُ بالعطاء ولا يَغِيض. ومَنْجَمُه يَزْخَرُ بالنّفائس ولا يَنْفَد.

ولكن..

إذا كان الشّهيدُ قد صَدَق ما عاهدَ اللّهَ عليه فَقَضَى نَحْبَه، فكونوا أنتم الرّجالَ الصّادقين الّذين ينتظرون.

وإذا كان قد حَقَّقَ باسْتِشهاده حياةً كريمةً لكم، فاحْذُوا حَذْوَه ليحيا من يجيئون بعدَكم مُكَرَّمِين.

وإذا كان قد ارْتَفَع مِثالاً للبُطولة ونَمُوذَجاً للفِداء، فرَبُّوا أبناءَكم على مثاله، واصْنَعوا شبابكم على طِرازه.

أمّا أن تحتفِلوا بذِكراه ولا تَتَشَبَّعوا بروحه، وتُشِيدوا ببطولته ولا تَتَأَسَّوْا بقُدْوَته، وتَفْتَخِروا بشجاعته النّادرة في ميدان القتال ثمّ تَفِرّوا من الجهاد كما يَفِرُّ الغَزال، فذلك عُقوقٌ بحقّ الشّهيد لا يليق بأهل البِرّ والوفاء، وتلك خِيانةٌ لعهده لا تَصْدُرُ عن ذوي المُروءة والإباء، وذلك نِفاقٌ لِتَمَلّقِه لا يرضاه أهلُ الصَّفاء المخلصون.

فمَنْ أَحَبَّ الشّهيدَ بصدقٍ كان مِثْلَه، فإنْ لم يكنْ مِثْلَه كان شِبْهَه، فإنْ لم يستطعْ أنْ يَتَشَبَّهَ به دعا إِلى دعوته، وبَشَّرَ برسالته، وذلك أضعفُ الإيمان.

الحرّيّة(*)

لفظٌ رقيقُ الوضْع، ونَغَمٌ شجِيٌّ الوَقْع، ونَشيدٌ عبقريُّ التّلحين.

قوّةٌ عظيمةٌ فوقَ قوّة الجيوش الجرّارة، وعُدَّةٌ فتّاكةٌ أمْضَى من حَدّ السّيوف البَتّارة، وقَلْعَةٌ حَصينةٌ أمْنَعُ من الجبال الرّواسي.

تاريخُها قصّةُ كفاحٍ مجيدة. وجِهادُها مَعاركُ نِضالٍ مُقَدَّسَة. وخلودُها كخُلود الحقّ المبين.

هي مُتْعَة الحياة لا طَعْمَ للحياة بلا مَذاقها. وهي مَناطُ الكرامة لا شَرَفَ للإنسان في غِيابها. وهي جَوْهَرُ الأمانةِ الّتي حَمَلَها الإنسانُ وأَبَتِ السّمٰواتُ والأرضُ والجبالُ أنْ يَحْمِلْنَها وأشْفَقْن منها.

من أجلها قاتَلَتِ الشّعوبُ وضَحَّتْ بالْغالي والثّمين، واضْطُهِدَ مُناضِلون وهلَكوا في الْمَنافي والسّجون، وعُلِّقَ علماءُ على المشانِق وقُدِّمَ أبطالٌ وليمةً للوُحوش.

لا يُبْنَى صَرْحُ حضارةٍ إلاَّ بيدها الْمُبارَكَة، ولا يُسْلَكُ طريقُ نهضةٍ إلاَّ

(*) نُشِر الأَصل في العدد 88 من جريدة «اللّيبيّ» بتاريخ 2/ 7/ 1959.

بخُطُواتها الثّابتة، ولا تَنبُتُ شَتْلَةُ خيرٍ إلاَّ في تُربتها الصّالحة، ولا ينمو اقتصادُ بلدٍ إلاَّ في سوقها الرّائجة.

يَأْبى الفكرُ أنْ يُحَلِّقَ ويزْدَهِرَ إلاَّ في جوّها النَّقِيّ الصَّافي. وترْفُضُ الثّقافةُ أنْ تَتَرَعْرَعَ وتَشِبَّ إلاَّ في حِضْنها الدّافِي. ولا يفتح العلمُ أبوابَ كُنوزِه إلاَّ بمفتاحها الوحيد.

هي للأديب كالماء للسّمك يخْتَنِقُ ويموتُ إذا خرجَ منه. وهي للصِّحافيّ كالشّمس للنّبات يذْبُل ويَجِفّ إذا حُجِبَت عنه. وهي للسّياسيّ كالدّم للجسم يَمْرَضُ إذا اعْتَلّ ويَهْلِكُ إذا فَسَد.

هي لكلّ إنسانٍ كالرّوح للجسد، وهل للجسد قيمةٌ بلا روح؟ وهي للأخلاق كالقُطْب لِلرَّحَى، فهل تدورُ رَحًى بلا قُطْب؟ وهي للعلاقات الدُّوَلِيّة كالمضمون للشّكل، وهل للشّكل وَزْنٌ بلا مَضْمون؟

هي القُوّةُ الكامِنَة وراءَ كلّ قضيّةٍ عادلة، والطّاقةُ الدّافعةُ لكلّ حركةٍ إصلاحيّة، والباعثُ الحثيثُ على كلّ التّضحيات الجسيمة، والْمَنارُ الهادي لكلّ السُّفن الباحثة عن شاطيء الأمان.

لا يتمُّ لاستقلالِ دَوْلةٍ معنًى إلاَّ إذا أُقيم على أساسها المتين. ولا يُرَفْرِف علَمٌ وطنيٌّ رَمْزاً للسِّيادة إلاّ إذا ارتفعَ على قِمَّتها العالية. ولا يكونُ لنشيدٍ رسميٍّ تعبيرٌ صادقٌ إلاَّ إذا صِيغَتْ كلماتُه بلُغتها ووُضِعَ إيقاعُه على نَبْضها.

فاقِدُها مهزومٌ ولو كان أكثرَ النّاس عَدَداً وعُدَّة.

والْمُفْلِس منها فقيرٌ ولو مَلَك مِلْءَ الأرض ذَهَباً وفِضّة.

والمحرومُ منها محكومٌ ولو تَربَّعَ على عرشٍ من اللآّليء وكان على رأسه تاجٌ من الْمَاس.

هي حقٌّ خالصٌ لكلّ إنسان، وليست مِنْحَةً يتفَضَّلُ بها قويٌّ على ضعيف.

وهي امتيازٌ عامٌّ لكلّ الشّعوب، وليستْ صَدَقةً يَمُنُّ بها الْمُتَحَضِّرون على الْمُتَخَلِّفين.

وهي هِبَةُ الله الّتي تُولَدُ مع البشر، ومَتَى اسْتَعْبَدْتُم النّاسَ وقد وَلَدَتْهم أُمّهاتُهم أحراراً؟.

ترْتَعِدُ منها فرائصُ الأصنام لأنّها مِعْوَلٌ يُحَطِّمُ الأصنام. ويرتَجِفُ منها السَّحَرَةُ الْمُشَعْوِذُون لأنّها الحقُّ الّذي يُبطِلُ الشَّعْوَذَةَ والسِّحْر. ويخافها سماسِرةُ السّياسة لأنّها تفضَحُ ألاعيبَهم، وتُعَرِّي غِشَّهم، وتُنَبِّه ضحاياهم الغافلين.

قد يكونُ طريقُها صَعْب المسالِك كثيرَ الْمُنْحَنَيات، ولكن لا بُدَّ لفاقديها من سُلوكه لأنّه الطّريقُ الوحيدُ الّذي يُوصِلُهم إلى نَبْعها.

وقد يكونُ مَهْرُها غالياً ثقيلَ التّكاليف، ولكن لا مناصَ لعاشقيها من تقديمه إذا أحَبّوا أنْ يفوزوا بقلبها.

وقد يكون عَقْدُها قاسِيَ الشّروط شديدَ القُيود، ولكن لا بدّ من تنفيذ بُنوده لمن أراد أنْ يَسْتَرْجِعَ مِلْكِيَّتَها.

ومَنْ لم ينْتَزِعْ حُرِّيَّتَهُ المسلوبَة من أنياب غاصبيها، فلا يَطْمَعْ أنْ يُعْطوها له لُقمةً سائغةً هَنِيَّة.

ومن لم يكْسِرِ احتكارَ الحرّيّة من أيدي مُسْتَغِلّيها، فلا ينتظِرْ أنْ يُسَلِّموها إيّاه هديّةً سَنِيَّة.

ومن لم يستطِعْ دَفْعَ مَهْرِ الحسناء الباهِظِ، فلا يُتْعِبْ نفسَه ويتقدَّمْ لِخِطبتها.

وأساء قومٌ فَهْمَ الحرّيّة فاستعملوها لإثارة الْفَوْضَى وارتكاب الإجْرام. وأطْلَقوها من كلّ قيْدٍ وأعْفَوْها من التزام النّظام. وفَسَّروها بأنّي أفعَلُ ما أشاءُ وأقولُ ما أُريدُ ولو في ذلك اسْتباحةٌ للمظالم واعتداءٌ على الحُرُمات والقانون.

وجَهِلَ هؤلاء أنّ الحرّيّةَ حقٌّ وكلُّ حقٍّ يُقابِلُه واجبٌ مفروض، والحرّيّة انطلاقٌ ولكلّ انطلاقٍ مَجالٌ محدود، والحرّيّةَ مسؤوليّةٌ ولا مَسْؤوليّةَ بلا ضميرٍ وأخلاق.

فحرّيّتُك تنتهي عند الخطّ الّذي تبدأُ منه حُرِّيّةُ غيرِك.

وامتدادُ يدِك يَقِفُ دونَ النُّقطة الّتي تمنع فيها امتدادَ أيدي إخوانِك.

وحماسَتُك تَفْتُرُ عند درجة الحرارة الّتي إنْ تجاوَزْتَها أحْرَقْتَ نفسَك وأحْرَقْتَ الآخَرين.

وتلاعَبَ قومٌ آخَرون بالحرّيّة ففَرَشوا لها الحريرَ على الأوراق وزَرعوا لها في أرض الواقع الأشْواك. وجَمَّلوا وجْهَها في الدّساتير وشَوَّهوه بالزّيْف والتّزوير. وأحْيَوْا ذِكْرَها في الخُطَب والمناسَبات وأماتوها في الفعل والْمُمارَسات.

واحْتَكَر الحرّيّةَ أهلُ الغرب وخَصُّوا بها أنفسَهم كأنّ الله اصْطَفاهم بها وَحْدَهم. وكَيَّفوها على مِزاجهم وفصَّلوها على قَالَبِهم كأنّها ثوبٌ لا يَليقُ إلاّ بأجسامهم. وسَمَّوْا أنفسَهم العالَمَ الحُرَّ كأنّ الآخَرين عبيدٌ لا يستحقّونها وحيواناتٌ لا ترتفع إِلى مُسْتواها.

أقاموا لها تِمثالاً في بلادهم ومَذْبَحاً في خارجها. وأوْقَدوا شُعْلَتَها في ساحَتِهم وأطْفأوا جَذْوَتَها في غيرها. ووَسَّعوا دائرتَها في أرضهم وضَيَّقوها في أرض الأبْعَدِين.

عَدُّوها لُغةً ممتازةً لا يتخاطَبُ بها إلاّ بنو جنسهم، وهواءً نَقِيّاً لا تَسْتَنْشِقُه إلاّ رِئاتُهم، وشَمْساً ساطِعةً لا تَطْلُعُ إلاّ من أُفُقِهم، ومشاعرَ مُرْهَفَةً لاَ تَتَحَسَّسُها إلاّ عَواطِفُهم.

مَلأوا الدّنيا زعيقاً بأنّهم حُماتُها الْغَيورون. وأوْهَمُوا النّاسَ جميعاً بأنّهم سَدَنَتُها الْمُحافِظون. وادَّعَوْا بوَقاحة أنّهم شُرْطَتُها الّذين هم عليها ساهِرون.

وتَناسَوْا أنّ أيديَهم مُلَطَّخَةٌ بدمائها الزّكيّة في كلّ مكانٍ تَدَنَّس برِجْسِهم، وجباهَهم مَوْصومَةٌ بعارها في كلّ معركةٍ خاضوها ببَغْيِهم، ووجوهَهم كالِحَةٌ بَلَعْنَتها في كلّ تاريخهم الأسود البغيض.

فيا لَهم من مُدَّعِينَ يتصَرَّفون في إرْثٍ إنسانيٍّ لم يُعَيِّنْهم أحدٌ أوْصياءَ عليه.

ويا لَهم من مُسْتَكْبِرين يَحْتَكِرون مِلْكاً مُشَاعاً جَعَلَ اللّهُ البَشَرَ جميعاً شُرَكاءَ فيه.

ويا لَهم من مُتَطَفِّلين يفْرِضون أنفسَهم حُرّاساً للحرّيّة كأنّهم الأُمَناءُ عليها من دون العالَمين.

مِـحْـنَـة(*)

يضيقُ صدري ولا ينطلقُ لِساني، ويتنفَّسُ أَنْفي ويَخْتَنِق جَناني، وتَسْعَى رِجْلايَ وتتَقيَّدُ روحي، وتَتَحَرَّكُ يداي وتُشَلُّ إرادتي.

مُحيطي مقبرةٌ هُيِّئَتْ لدفن حُرِّيَّتي. وأوْضاعِي حَبْلٌ أُعِدَّ لِشَنْق كرامَتي. وجَوّي تَلَوُّثٌ أَفْسَدَ هواءَ حياتي.

أنا عبدٌ مُكَبَّلٌ بالأصْفاد وإنْ كنتُ في عُرْفِ النّاس لستُ رقيقاً.

وأنا سجينٌ محبوسٌ في الأقفاص وإنْ بَدَوْتُ أمامَهم حُرّاً طليقاً.

وأنا أسيرٌ لا أمْلِكُ أمرَ نفسي وإنْ خالُوني مُتَصَرِّفاً في كلّ الشُّؤون.

هم لا يَرَوْنَ قُيودي لأنّها دقيقةٌ وهم عن الرُّؤية الدّقيقة محجوبون.

وهم لا يُلاحِظون أقفاصي لأنّها خَفِيَّةٌ وهم عن خفايا الأمور غافِلون.

وهم لا يَفْهَمون أسْري لأنّه غريبٌ عنهم وهم لا يعرفون الأسيرَ إلاّ الّذي يُمْسِكه المُحارِبون.

(*) نُشِر الأَصل في العدد 137 من جريدة «اللّيبيّ» بتاريخ 9/ 6/ 1960.

وهم لا يُحِسّون باختناقي لأنّه ليس في رِئَتَيَّ وهم لم يعتادوا التّنفُّسَ بغير الرّئتيْن.

أتجرَّعُ السُّمَّ ويَحْسِبُ النّاسُ أنّي أَحْسُو ماءً قُراحاً. وآكُلُ الْعَلْقَمَ وهم يَتَصَوَّرُونَه طعاماً حُلْواً شَهِيّاً. وأَتَقَلَّبُ على مسامير الْقَلَقِ ويَظُنُّون أنّي أتَقَلّبُ على فراشٍ وَثِيرٍ من حرير.

فَقَدُوا الْمقاييسَ المضبوطةَ فالْتَبَسَ عليهم الحقُّ بالباطل وتَمَثَّلَ لهم الْهَدْيُ ضَلالاً.

واخْتَلَّ في أيديهم مِيزانُ الْقِيَمِ فصارَ عندهم الثّقيلُ خَفيفاً والْخفيفُ ثَقيلاً.

وأُصِيبوا بِعَمَى الألوان فأبْصَروا الأسودَ أبْيَضَ والأحْمَرَ أصْفَرَ والزّاهِيَ قَتاماً.

لو تَعَفَّفْتَ عن الإثْمِ وحَفِظْتَ يدَك من الحرام لَقالوا مُغَفَّلٌ مِسكينٌ ودَرْويشٌ مَعْتُوه.

ولو ابْتَعَدْتَ عن الشُّبُهات وتَرَفَّعْتَ على الْمُهاتَرات لقَالوا مُتَعَجْرِفٌ مُنْتَفِخٌ وأَنانيٌّ مكروه.

ولو خِفْتَ اللّهَ والْتَزَمْتَ الدّينَ لَقالوا مُتَخَلِّفٌ سَلَفِيٌّ ومُتَزَمِّتٌ رَجْعِيّ.

ولو خَلَعْتَ الْعِذَارَ وخَالَطْتَ الفُجّارَ لَقالوا مُتَحَضِّرٌ تَقَدُّمِيٌّ ومُتَحَرِّرٌ عَصْرِيّ.

إنْ أرْضَيْتَهم أغْضَبْتَ اللّهَ وإنْ أرْضَيْتَ اللّهَ أَغْضَبْتَهم.

وإنْ قلتَ الحقَّ فأنت عَدُوُّهم وإنْ كذَبْتَهم فأنت حَبيبُهم.

وإن صارَحْتَهم ونَصَحْتَهم جَفَوْك وأبْعَدوك، وإنْ نافَقْتَهم وتَمَلَّقْتَهم أدْنَوْك وقَرَّبُوك.

كلُّ ثوبٍ تَلْبَسُه لا يَروقُ في أعينهم إلاَّ إذا ألْغَيْتَ ذَوْقَك واخْتَرْتَه على ذَوْقهم.

وكلُّ رأي تقولُ به مرفوضٌ إلاَّ إذا عَدَّلْته وجَعَلْتَه مُطابِقاً لرأيهم.

وكلُّ مَوْقفٍ تَقِفُه من قَضيَّةٍ مَشْبُوهٌ إلاَّ إذا كان مَقِيساً بدِقَّةٍ على موقفهم.

أنت حرٌّ في أنْ تُفكِّرَ ولكن في داخل الإطار الّذي يُحَدِّدُونَه دُنه. وأنت طليقٌ في أن تَتَحرَّكَ ولكن في خطّ السَّيْر الّذي يَرْسُمونه. وأنت مُخَيَّرٌ في أنْ تتكلَّمَ ولكن بمُفْرَدَات الْمُعْجَم الّذي يضَعُونه.

فإذا تجرَّأْتَ وفَكَّرْتَ خارجَ الإطار كنتَ مُتَمَرِّداً وعِقابُ التَّمَرُّدِ السَّحْق. وإذا اقْتَحَمْتَ وتَجاوزْتَ الْخَطَّ المرسومَ كنتَ عميلاً وجزاءُ العَمالَة الْمَحْق. وإذا تَحدَّيْتَ وتَكَلَّمْتَ بغير مُفْرَدَات مُعْجَمِهِم كنتَ سليطاً ويَسْتَحِقُّ السَّليطُ قَطْعَ اللّسان.

يعبُدون الأصنامَ فإنْ قلتَ إنّ ذلك إشْراكٌ بالله أَدَانوك بالتَّآمُرِ على الصَّنَم.

ويُعْطون الدَّنِيَّةَ من أنفسهم فإنْ قلتَ إنّ ذلك مَهانَةٌ اتَّهَمُوك بخيانة الوطن.

ويخافون البشَرَ فإنْ قلتَ لا تخافوا إلاَّ اللّهَ رَمَوْكَ بالتَّعَصُّب لعقيدتك والدّعوةِ إلى مذهبك.

أعْمَتْهُم المادّةُ وطَمَسَتْ على أعينهم، فأَنَّى يُبصِرون؟

واسْتَحْوَذَ عليهم الشّيطانُ فأنْساهم أنفسَهم، فأنّى يَهْتَدون؟

وبلَّدَ الطَّمَعُ طبْعَهم وأماتَ الْجَشَعُ ضمائرَهم، فأنَّى يتذكّرون؟

هم مَرْضَى، ولا يَعْرِفون أنّهم مَرْضَى، ولذلك لا يَسْعَوْن إلى علاجٍ يَشْفِيهم.

وهم غَرْقَى، ولا يَشْعُرون أنّهم غَرْقَى، ولذلك لا يَبْحثون عن قاربٍ يُنْجيهم.

وهم جَهَلَةٌ، ولا يَدْرُون أنّهم جَهَلَة، ولذلك لا يلْتَمِسون نوراً يُخرِجُهم من ظُلُماتهم.

وهم مُفْسدون، ويعتقدون أنّهم مصلحون، فهم كالّذين ضلَّ سَعْيُهم في الحياة الدُّنيا ويَحْسِبون أنّهم يُحْسِنون صُنْعاً.

ولو أنّهم أزالوا الغِشاوَةَ عن أعينهم وتدَبَّروا أمْرَهم، لانْكَشَفَ عنهم حِجابُ الحقيقة وضاقوا بما ضِقْت.

ولو أنّهم تعمَّقوا في دراسة أنفسهم وصَدَقوا مع ضمائرهم، لَهَزَّتْهُم الْفاجِعَةُ وانْفَجَروا كما انْفَجَرْت.

ولو أنّهم أَيْقَظوا الإنسانَ النّائمَ في داخلهم، وطَرَدوا الوحْشَ الّذي يَنْهَش أحشاءَهم، لاَخْتَنقوا كاخْتِناقي من الجوّ الْمَوْبوء، وصَرَخوا كَصَرْخَتي من هَوْل المأساة.

إنّما يستجيبُ الّذين يَسْمَعون، والمَوْتَى يَبْعَثُهم الله.

وينصُرُ الحقَّ المؤمنون، والباطلُ أولياؤه الطُّغاة.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: 53].

قال لي صاحبي:

لو ركِبْتَ الْمَوْجَةَ مع الرّاكبين، وسَبَحْتَ في اتّجاه التَّيّار مع السّابحين، لاَسْتَرَحْتَ من هذا الْعناء الّذي يُعَذِّبُك وأَرَحْت.

ولو تنازَلْتَ عن شيءٍ من كبريائك، ومَنَحْتَ إجازةً لمبادئك، لاَسْتَفَدْتَ من التَّرِكَة الْمَنْهوبَة وأَفَدْت.

ولو تَساهَلْتَ في مسألة الكرامة، وتَغاضَيْتَ عن حكاية الْعِزَّة، لَرَضِيَ عنك الْقومُ وأحبّوك، وأَصَبْتَ ممّا أصابوا وشارَكوك.

قلتُ لصاحبي:

الطّائرُ الحُرُّ لا يُحَلِّقُ بجناحَيْه في السُّفوح لأنّه مُرْتادٌ على التّحليق فوق قِمَمِ الجبال.

ومَنْ مَدَّ رِجْلَه في حَضْرَة السُّلطان فلا يُمْكِنُ أنْ يَمُدَّ له يدَه بالسُّؤال.

ومَنْ تَدَثَّرَ بِلِحاف الْعِفّة النّظيفِ فلا يُمْكِنُه أنْ يَلْبَسَ ثوبَ الطّمع الْقَذِر.

واعْلَمْ يا صاحِبي ـ وَقاكَ اللّهُ شرَّ الفساد ـ أنّ الحُرَّةَ تَجوعُ ولا تأكُلُ بثَدْيَيْها، وأنّ الفارسَ يُفَضِّلُ الموتَ على أنْ يَسْتَسْلِمَ ويُلْقِيَ سلاحَه على الأرض، وأنّه ليس بالخبز وحْدَه يعيش الإنسان، وأنّ مَنْ آثَر دنياه على أُخراه خَسِرَ الدّنيا والآخرة، وذلك هو الخسران المبين.

و:

على قَدْر أهل العَزْمِ تأتي العزائمُ   وتأتي على قَدْر الكِرام المكارِمُ

دَارَة(*)

كم أنتِ رائعةٌ يا جنّةً في أحلامي. وكم أنتِ جميلةٌ يا أُمْنِيّةً في نفسي. وكم أنتِ أنيقةٌ يا مُتْعَةً للأنظار.

فيكِ من السّحر ما يُلْهِم بدائع القصيد. وفيكِ من الرِّقَّة ما يَهُزُّ أَوْتارَ المشاعر. وفيكِ من الجاذبيَّة ما يَسْبِي العقولَ ويأخُذُ بالألباب.

تَخْجَل أمامَ طَلْعَتِكِ الْبَهِيَّةِ قُصورُ الملوك. وتتضاءَل إزاءَ جمالكِ الصّارخِ فِتْنةُ أجمل الغانيات. وتتلاشَى بجانب عَظَمَتك أُبَّهَةُ السّلاطين.

تَشْمُخين بشُرُفاتك العالية كأنّكِ تتحَدَّيْنَ في كبرياءٍ سَطْوَةَ الدّهر. وتَرْبُضِين بهيكلكِ الضّخْمِ كأنّكِ تَسْخَرِينَ ممّا حولكِ من أقزام البيوت. وتتبَرَّجِين بحُسْنكِ الآسِرِ كأنَّكِ تُريدين أنْ تَحْرِقي قلوبَ العاشقين.

أنتِ قاسيةٌ تتلَذَّذِين بتعذيب مُحِبِّيك وتَضِنِّين عليهم بنظرة إشفاق.

وأنتِ مَغرورةٌ تترَفَّعين على الْمُتَيَّمِينَ بكِ وتُقابِلينَهم بالْمَنْع والصُّدود. وأنتِ حصينةٌ تُحيطين نفسَك بالأبْراجِ وتُقْفِلين أبوابَك بالمفاتيح.

(*) نُشِر الأَصل بعنوان «ڤيلاّ» في العدد 134 من جريدة «اللّيبيّ» بتاريخ 26/ 5/ 1960.

أنتِ حقيقةٌ ماثِلةٌ في حَدَقَة عيْني، ولكنّكِ وَهْمٌ سابِحٌ في بَحْر خيالي.
وأنتِ قريبةٌ دانِيَةٌ من مَوْقِع خَطْوِي، ولكنّكِ بعيدةُ الشُّقَّةِ من واقع حالي.

وأنتِ الْمُمْكنُ اليسيرُ في منطق الأمانيّ والأحلام، ولكنّكِ الْمُستحيلُ العسيرُ في لغة الحساب والأرقام.

وإذا كان من سوء الطّبْع أنْ يَطْمَعَ المرءُ فيما ليس فيه مَطْمَع، ومِن ضَياع الوقتِ أنْ يَنْتظِرَ اليائسُ مفقوداً ليس له مَرْجِع، فلا أقلَّ منْ أنْ يكونَ حَظّي معكِ كحظّ مَنْ يَكْتَفِي بشَمّ رائحة الشِّواءِ الشَّهِيّةِ من بعيدٍ لأنّه لا يَمْلِكُ الثّمنَ لشِرائه، أو كمَنْ يَسْتَمْتِعُ بمنظر الزّهرة من وراء شُبّاكٍ لأنّه لا يستطيع أنْ يَمُدَّ يده لقَطْفِها، أو كمنْ يَلْعَبُ بالذّهب في المنام وهو عاجِزٌ في الْيَقَظَة أنْ يَلْعَبَ بالملاليم.

فَلْتَسْمَحِي ـ أوّلاً ـ للمحرومين أمثالي بأنْ يَحوموا حولَ حِماكِ دونَ أنْ يقعوا فيه، وأنْ يُنَزِّهوا الطَّرْفَ بروْعَة جمالك دونَ إحْراجِكِ بفُضُولٍ لا تَبْتَغِيه، وأنْ يَتَغَزّلُوا في حُسْنِك الفَتّان كما يَفْعَلُ الشُّعَراءُ الْمُفلسون الّذين ليس لديهم ما يُنفِقون سوى بضاعة الكلام.

ولْتَسْمَحِي ـ ثانياً ـ بالْجَراءة على إلقاء سؤال، والاستفسارِ عمّا يجولُ في البال، فنحن الفقراءَ نُحِبُّ أنْ نتسلّى بالأسئلة لِتُخَفِّفَ عن أنفسنا بعضَ هَمّ الفاقة الّذي يُصَدِّعُ قلوبَنا، ونَقْتُلُ الْفَراغَ بالثَّرْثَرَةِ لِتُنْسِيَنَا قليلاً شدّةَ الْبُؤس الآخذِ بتَلابِيبِنا:

فما السِّرُّ الّذي تُخْفينَ أيّتُها الغائبةُ الحاضرة؟

وما الأمرُ الّذي تَحْجُبِين وراءَ أسْرارِك أَيّتُها الظّاهِرةُ الْباطِنة؟

هل أمْطَرتِ السَّماءُ على صاحبك ذَهَباً وفضّةً حتّى اشْتراكِ من حُرّ ماله واحْتَوَاك جاريةً في حريمه؟

هل انْشَقَّتِ الأرضُ عنكِ شقّاً كرامةً لأهل البركات أوليائه؟

فإنّنا نعرفُ صاحبَكِ قبْلَ اسْتوائه على الكرسيّ رقيقَ الحال خَاليَ الوِفَاض لا يَجِدُ ما يَحْلِقُ به شَعْرَ رأسِه الأشْعَثَ أو يُرَقِّعُ به سِرْوَالَه الْمُمَزَّق، ساكِناً بالأُجْرةِ لا يَمْلِكُ بيتاً شعْبِيّاً يُكِنُّ فيه رأسَه ويُؤْوِي عِيالَه، صِفْرَ الْيَدَيْن لا تعرف عَشَرةُ الدّنانير طريقَها إِلى جَيْبه إِلاّ من باب الخطأ أو الْمُصَادَفَة النّادِرَة الّتي لا يُحْسَبُ لها حساب.

كان بالأمس القريب مُزْمِنَ فاقةٍ كأنَّ بينه وبين الفقر صداقةً حميمةً لا يَسْمَح الزّمانُ بفكّ رِباطها.

كان رفيقاً مُلازَماً للحِرمان كأنّهما مُوَقِّعان مُعاهَدَةَ انسجامٍ وحُسْنِ جِوَارٍ لا يجُوزُ لأحد الطَّرَفَيْن إلغاؤها.

كان مُدْمِنَ تَعاسَةٍ كأنَّ التّعاسةَ مُخَدِّرٌ قَوِيٌّ يجري في دمه ويخْتَلِطُ بلحمه وعَظْمه.

فما بالُه قد ضَمَّكِ تحتَ جناحه ولمَّا يَمْضِ على تَرَبُّعِه في الكرسيّ سنةٌ واحدةٌ؟

وكيفَ وَضَعَكِ جَوْهرةً في تاجه ولَمَّا يَخْتَفِ أَثَرُ الفقر من مَلامِح وجْهه الجائعة؟.

ومن أين له المالُ الّذي اشْتراكِ به ومُرَتَّبُه لا يصِلُ إِلى عُشْرِ ثمنِكِ لو وَفَّرَه بتَمامه وكَماله خمسين عاماً؟

قالت:

اعْلَم أيّها السّائلُ المِلْحاحُ أنَّ طينتي ممزوجةٌ بدماء الشّعب الّتي امْتَصَّها. وهَيْكَلي مُقامٌ على أقوات النّاس الّتي سَرَقَها. وجُدراني مَطْلِيَّةٌ بالعرق الْمُتَصَبِّب من جباه الكادِحين.

لوْ نَطَقَتْ حِجارتي لَسَمِعْتُم أنِينَها من وَطْأَة الحرام الثّقيل الواقعِ عليها. ولو حَلَّلْتم رَمْلِي لَوَجَدْتُم كلَّ حبَّةٍ مُشَبَّعَةً برُطوبة الْقَذارة الّتي غُمِسَتْ فيها. ولو سألتُم حديقتي لأَخْبَرَتْكم عن عناصر السُّحْتِ الّتي غُذِّيَتْ بها أشجارُها. ولو عَرَفْتُم حقيقتي لَفَرَرْتُم منّي كما يَفِرُّ السَّليمُ من الْمَجْذوم مَخافَةَ أن تَنْتَقِلَ إليه عَدْوَاه.

إذ لم يكدْ صاحبي يستقِرُّ على كرسيّه ويَسْتَدْفِيءُ بحرارته حتّى بدَأَ يَسْعَى إلى الفُرَص وتَسْعَى الفُرَصُ إليه، وأخَذَ يتعرَّفُ إلى مسالك الدَّهاليز الْخَفيَّة مُسْتَعيناً بحاسَّة اللَّمْس الْقويّة لديْه، وتدرَّب تَدَرُّباً جَيّداً على أساليب خِفّة اليد، وصَنْعَةِ تَزْويرِ المفاتيح، ورياضةِ القَفزِ فوق الحواجِز والأَسْوار.

ولمّا تمكّن من إتْقان الصَّنْعة واسْتَوْعَبَ الأسرارَ وَمَهَرَ في كلّ الحِيَل، دخَل السّوقَ واقْتَحَمَ الميدانَ بلا خوفٍ من أحدٍ ولا وَجَل.

وتدَفَّق المالُ عليه من شُقوق الأبواب الخلفيّة، واغْتَنَى بين عَشيّةٍ وضُحاها كأنّه يَمْلِك عَصاً سحريّة، وكنتُ إحدى ضحاياه الّتي ابْتُلِيَتْ ببلائه وتجرَّعَتْ كأسَ حَرامِه.

ألاَ تَرَوْنَ أنّي في تَعاسَةٍ وإنْ بَدَا لكم مِنْ مَظْهَري أنّي أَرْفُلُ في حُلَل السّعادة والْهَناء؟ وأنّي حَزينةٌ وإنْ تَبيَّنَ لكم أنّي أرْقُصُ من فَرْط السّرور ورَغَدِ الرَّخاء؟ وأنّي في عِيشَة ضَنْكٍ وإنْ ظَنَنْتُم أنّي في عِيشَةٍ راضيةٍ مَرْضِيّة؟

وهل قَسَت الحياةُ على كائنٍ كما قَسَتْ عليّ؟

وهل تنكَّرَ الحَظُّ لِشَقِيٍّ كما تَنَكَّرَ لي؟

وهل بعد ذلك تَتَمَنَّوْنَ أنْ تَحُوزُوني شِلْواً مِنْ جَهنَّمَ ومَقْمَعاً من حديد؟.

ولا تَنْسَوْا أنّكم تَحْمِلون مع صاحبي جزءاً من ثِقل أوْزَاره، وتُشاركونه المسؤوليّة في جريمته واسْتِهْتاره، وتُشَجّعونه من حيث لا تدرون على سلوك طريق الْغِواية والضّلال.

وأخُصّكم باللَّوْم لأنَّكم مَلُومُون، وأُوَجِّهُ إليكم العِتابَ لأنّكم مُفَرِّطون، وأَنْتَقِدُ سكوتَكم وسَلْبِيَّتَكم لأنّ السّاكتَ عن الحقّ شيطانٌ أخْرس.

ذلك أنّكم لم تَرْدَعوه عن غَيِّه وتَقِفوا في وجهه وتقولُوا له من أين لك هذا المال؟. ولم تسألوه كيف جَمَعْتَه، ومِمَّن أَخَذْتَه، وما الحرامُ منه والحلال؟. ولم تُدَقِّقوا حِساباتِه، ولم تَتَعقَّبوا سَرِقاتِه، ولم تُعاقِبوه على ما اقْتَرَفَتْ يداه.

ولا يَغيبَنّ عنكَ أيُّها السّائل ذُو الحظِّ المائل أنّ المالَ السّائبَ يُغْري بالسَّرقة ويُشَجِّعُ على الاغتصاب والنَّهْب، وأنّ غَيْبَةَ الحارس الأمين تُطَمْئِنُ اللِّصَّ وتَنْزِعُ من قلبه الْخوفَ والرُّعب، وأنَّ فُقْدَانَ المُحاسب الدّقيق يَدْفَعُ إلى التّلاعُب بالأوراق والتَّزْوِيرِ في الوثائق والْعَبَثِ بالأعداد، وأنّ تَرْكَ العضوِ المريضِ بلا علاجٍ يُصيبُ بقيّةَ الأعضاء بالْعِلَّة ويُهَدِّدُها بالفساد.

فهذا لسانُ حالي يُغْنِي عن مقالي. وهذه حكايتي تُعَبِّر عن مَأْساتي. وهذه عِظتي لمن كان له قلبٌ أو أَلْقَى السّمْع وهو شهيد.

وإيّاكَ أيّها السّائلُ الْمُلْحِفُ أنْ تُسِيءَ الظّنَّ بي فَتَحْسبَني حِجارةً لا تَضْطَرِبُ بإحساسٍ وشعور، ومَدَراً يُصَوِّرُ لكم غُرورُكم أنه جَمادٌ لا يتأثَرْ بما حَوْلَه مِنْ أمور، فإنَّ من الحجارة ما يَنْفَعِلُ بالرَّحْمة فَيَنْفَجِرُ ينابيعَ صافيةً من

المياه، وإنَّ منها ما يَسْتَشْعِر عَظَمَة خَالِقِه فَيَهْبِطُ خَاشِعاً مُتَصَدِّعاً من خَشْية الله، وإنّ أقواماً هَلَكوا ببَغْيهم فما بَكَتْ عليهم حجارةُ السّماء والأرض وإنّها لَتبْكي على موت الصّالحين.

كم من حجارةٍ سَعِدَتْ بتقبيل جَبْهة السّاجدين عليها في الصَّلاة!. وكم من حجارةٍ تبرَّكَتْ بلَمْس أيدي الْمُتَطَهِّرين في رُخْصَة التَّيَمُّم!. وكم من حجارةٍ تعَبَّدَتْ بإرغام أنفِ الشّيطان في الأيّام المعدودات بالحجّ!.

وكم من حجارةٍ عاشَتْ تعيسةً بمُزاوَلةِ الفِسْق والفُجور عليها!. وكم من حجارةٍ أنَّتْ مُتَوَجِّعَةً تحتَ وَطْأة أقدام الظّالمين فوقَهَا!. وكم من حجارةٍ ساء حَظُّها فَوُضِعَتْ في موضع الشُّبْهَة وشِيدَ بها صَرْحُ الحرام!.

ولله في خَلْقِه شُؤون.

دخيـــل(*)

كان في بلاده عاطِلاً تَطْحَنُه عَجَلَةُ الْبِطالَة الّتي لا تَكُفُّ عن الدَّوَران، مُتَشَرِّداً لا يَمْلِك كوخاً يحْميه لَفْحَةَ الحرّ في الصّيف وزمْهَريرَ البرد في الشّتاء، فقيراً لا يجد لُقْمَةً يُقيم بها صُلْبَه الْمُتَهالِك من شدّة الْمَسْغَبَة والحِرمان.

كان يقْضِي سحابَة نهارِه مُتَسَكِّعاً على أعتاب المكاتب ودُور العمل، ويُمْضِي مُعْظَم ليله في سماع صُراخِ مَعِدَته الْخاوِية وأنينِ أمعائه الجافّة، ويَجْتَرُّ كلَّ يومِ الشّقاء في مَلَلٍ مُمِضٍّ ويأس قاتل.

ضاقتْ به سُبُلُ العيش وأظْلَمَتْ في عينيه الدّنيا، وأُقْفِلَت في وجهه كلُّ الأبواب وطوَّقَه الحظُّ العاثر من كلّ النّواحي، وعَوَّقَتْه صُخورُ الأزْمَة الاقتصاديّة الّتي تكسَّرَتْ عليها جميعُ سُفن الإنقاذ، وخَنَقَه التَّضَخُّم الْمُفْزِعُ الّذي باءتْ كلُّ المحاوَلات بالفشل لوقْف ارتفاعه المجنون.

وسمِعَ النّاسَ يَتحدَّثون بإسْهابٍ عن أرض العجائب، ويَنْسِجون القَصَص عن بلد الْمُتناقضات والغرائب، فسالَ لُعابُه لِما سَمِعَ كما يَسيلُ لُعابُ الجائِع لرائحة الطّعامِ اللّذيذ تأتيه من بعيد، وانْتَعَشَ في نفسه الأمَلُ كما تنتعِشُ الزّهْرةُ

(*) نُشِر الأصل في العدد 98 من جريدة «اللّيبيّ» بتاريخ 10/ 12/ 1959.

الذّابِلَةُ بقَطرات الماء الباردة، وصحَّ منه العزمُ على اقتحام باب المُغامَرة والسّفر، وقرّر السّعْيَ على رزقه فيما وراءَ البحر، فإمّا حياةٌ يبتسِمُ له فيها الحظُّ بعد طول تَجَهُّمٍ وانْقِباض، وإمّا موتٌ يضع نهايةً لشقائه ويُريحه من بَلائه.

وشدَّ الرّحالَ وولَّى وجْهَه شَطْرَ بلد الأحلام، وقَصَد قريباً له سَبَقَه إلى الهجرة ليَستفيدَ من تجربته ويَتَزوّدَ من خبرته، فَمحَّضَه الْقريبُ النُّصْحَ وأخْلَصَ له التّوجيه، وأرشدَه إلى ما يجب عليه اتّباعُه وما يجب عليه تَوَقِّيه. وممّا قالَه له القريب:

إنْ أرادوك في مجال الصّحَّة فقلْ إنّي مُخْتَصٌّ بعلاج كلّ أعضاء «الْمِغْلاَقِ» وكلّ ما تَجْمَعُ «الدَّارَة»، وجَبْرِ الْعِظام المكسورةِ ورَبْطِ الأعصابِ المقطوعةِ وتلْفيقِ العروق الْمُمَزَّقةِ وتسخين البُرودة وتبريد الحرارة.

وإن أرادوك في شؤون البناء فقلْ إنّي عليمٌ بتَشييد البيوت وإقامة الكباري، وإنشاءِ الطُّرُق وشَقِّ المجاري، مع ما يلزَمُ ذلك من حِدادة ونِجارة وسَمْكَرَة وطِلاء، ومَدٍّ لخطوط الكهرباء وتوصيلٍ لِشَبَكات الماء.

وإنْ أرادوك في مجال القانون فقلْ أنا «تَارْزِي» القانون الّذي لا يُشَقُّ له غُبار؛ أُفَصِّلُ اللّوائحَ على آخر صَيْحةٍ في دنيا التّفصيل، وأَخِيط الْفتاوَى على أحدث طِراز في فَنّ الخياطة، وأُبَطِّنُ الْمُرافَعات بأجْوَدِ الْبِطانَة صَفاقَةً وأَنْعَمِها مَلْمَساً، وأُزَرِّرُ الدَّعاوَى بأكْثَرِ الْأَزْرار لَمَعاناً وأجمَلِها ألواناً، وأُصَمِّمُ البُنودَ على حَسَب الْمُواصفات الّتي تَصْدُرُ بها التّعليمات، وأصُبُّ الموادَّ في قوالِبِ الأحجام المطلوبة والْمَقاسات، وأُضَيِّقُ واسعَ القانون وأُوَسِّعُ ضَيِّقَه، وأُشَدِّدُ لِينَه وأُلَيِّنُ شِدَّتَه، وأُطْلِقُ مُقَيَّدَه وأُقَيِّدُ مُطْلَقَه، وأُعَمِّمُ خَاصَّهُ وأُخَصِّصُ عامَّه.

وإنْ سألوك عن المُحاسَبة فقلْ إنّي ضليعٌ في إمساك الدّفاتر وإسْهالِها، وفي معرفة «أُسْتاذها» وتلميذِها، وفي قَيْد الحسابات وإطلاق سَراحها، وفي ضَرْب الأعداد ولَكْمِها، وطَرْحِ الأرقامِ على وُجوهها وأقْفيتها، وجمْع مُتَفرِّقِها وتقسيمِ أوْصالها، وجَعْل ربْحِها خسارةً وخسارتِها رِبْحاً، وزيادتِها نَقْصاً ونَقْصِها زيادة، وخَفِيِّها ظاهراً وظاهِرِها خَفيّاً، وحَقيقتِها تَزْويراً وتَزْوِيرِها حقيقة.

وإنْ أرادوك إدارياً فأنت الْمُبَرِّزُ في تحبير الرّسائل والتّقارير، والخبيرُ في حِفْظ الوثائق وتنظيم الأَضابير، والماهِرُ في الضّرْب على الآلة الكاتبة بأصابع اليديْن والرِّجْليْن، وبطريقة اللّمْس والْهَمْسِ والخَبْطِ بالأنف والرَّفْسِ بالمِرْفَقَيْن، وبالحروفِ العربيّة واللاّتينيّة والرّوسيّة والصّينيّة واليابانيّة، وبكلّ لغات العالَم القديمة والحديثة الميّتة منها والحيّة.

واحْذَرْ إذا سألوك عن شيءٍ أنْ تقولَ: لا أعلم، فإنّ «لا أعلم» قاصِمةُ ظهْرِك، وقاطِعَةُ رزقِك، ومُنْذِرَةٌ برجوعك إلى أيّام بُؤْسِك. ولا تَعْتَرِضْ على ما يطلبُونه منك ولو جَزَّ البقرِ وحَلْبَ الثّيران، ولو نَزْحَ البحر وإنطاقَ الحيوان، ولو تدْريبَ الْقِطَطِ على كُرة القدم، ولو تعليمَ الدّجاج الكتابةَ بالقلم.

ولا تَتَهَيَّبْ من ذلك ولا تَخْشَ عواقبَ الأمور، وعليكَ بكلّ ثقةٍ أن تدْخُلَ على الجبل بقَادُوم أو سَاطور، وأنْ تتعلَّمَ الْحِجامَةَ في رؤوس اليتامَى، فلا تَرْتَكبُ بذلك إثْماً ولا تأتي حراماً.

وإنْ جَرَّبْتَ فأخْطَأْتَ فلا لَوْمَ عليك ولا تَثْريب. وإنْ فَشِلْتَ وسَقَطْتَ فليس عليك رقيبٌ ولا حسيب.

ولا تأخُذَنَّك الدَّهْشةُ من ذلك ولا يَسْتَبِدَّنَّ بِك العَجَب، لأنّك لا تنتظِرُ

من يُدَقِّقُ في صحّة أقوالك فَيَظْهَرَ عليك الكذب، ولا تتوقَّعَنّ أنْ يَمْتَحِنَك مُمْتَحِنٌ في كفايتك فينكَشِفَ ادِّعاؤُك وزَيْفُك، أو يُقابِلَ أحدٌ أقوالَك بأعمالك فيفتضِحَ أمرُك وسِرُّك، فقولُك حقٌّ مُسَلَّمٌ لأنّك غريب، وزَعْمُك الصِّدقُ كلُّه لأنّك دخيل.

واسْتَعِنْ في كلّ خطواتك ببني قومك لِتَنْتَفِعَ بهم وتَنْفَعَهم، وشارِك الأجانبَ مِثْلَك لِيَعُمَّكَ الخيرُ ويَعُمَّهم، وليكنْ كلُّ واحدٍ منكم لصاحبه ذِراعاً تَسْنِدُه وظَهْراً يَحْميه وسِتاراً يُغَطِّيه.

ومن المفيد أنْ تَعْلَمَ أنَّ عند القوم عُقْدَةَ الأجنبيّ الّذي يملكُ وَحْدَه في نظرهم مفتاحَ الحضارة وسِرَّ التّقدُّم، ويَضْبِطُ كلَّ الأمور بمنطقٍ سليمٍ ويُحَرِّكُها بعقلٍ مُنَظَّم، ويَعُدُّونه أُستاذاً لهم ولو كان أجْهلَ من حِذائه، والخبيرَ العَبْقَرِيَّ ولو كان لا يعرفُ كُوعَه من بُوعِهِ، والذَّكِيَّ الألْمَعِيَّ ولو كان أبْلَدَ من حمارٍ وأغْبَى من نَعامة.

ونفَّذَ صاحبُنا وصايا قريبه واتَّخَذَها مَنْهجاً يَحْتَذيه، وسلَك سبيلَ مَنْ سَبَقَه وخَبِرَ أساليبَ الخداع والتّمْويه، فما طَرَقَ باباً إلاّ فُتِحَتْ له أبواب، وما الْتَمَسَ شيئاً إلاّ تَداعَتْ معه أشياء، وما مَسَّ حَجَراً إلاّ انْقَلَب بسِحْره تِبْراً، وما طلَب عملاً إلاّ تَدَفَّقَتْ عليه أعمال، وما ادَّعى اختصاصاً إلاّ جَلَبَ معه اختصاصات.

ولم تمضِ سنتان أو ثلاثٌ حتّى انْهالتْ عليه الثَّرْوَةُ بسببٍ وغيرِ سبب، وامْتَلأَتْ خِزانتُه بأنواع العُمُلات والذّهب. صارَتْ قَدَماه اللّتان كان يُدْمِيهما إدْمانُ السَّيْرِ في طُرُقات بلاده لا تتحَرَّكان إلاّ في «المرشيدس» الفارهة، وأصبح لا يلْبَسُ إلاّ الفاخرَ من الثّيابِ والغاليَ من الأحذية بعد أنْ كانت ثيابُه في أيّام الفاقة رَثَّةً مَلَّها جِسْمُه مِن كثرة الْتِصاقه بها في كلّ الفصول. وبدأ لا يُدَخِّنُ إلاّ

«السِّيجار» الغليظ الرّاقي الْمُسْتَوْرَدَ من «كوبا»، بعد أنْ كانت أعقابُ السّجاير الّتي كان يَلْتَقِطُها في بلاده من الأرض تَحْرِقُ شَفَتَيْه وتملأُ صدره بالسُّعال، وأضْحَتْ أصابعُ يديْه مُرَصَّعَةً بخواتِم الذّهب الْمُطَعَّم بالْمَاسِ الرّفيعِ، بعد أنْ كانت مُحاطةً بخواتِمَ من الْوَسَخ الْمُتراكم الأسود في الأيّام الخوالي الّتي كان يعجِز فيها عن توفير ثمنِ قطعةِ صابونٍ يُنَظِّف بها جسمه.

وتحرّكتْ في نفسه المشاعرُ النّبيلةُ نحوَ بعض رفاق الفقر الّذين كان ينام معهم على الرّصيف، وتَرْبِطُه بهم ذكرياتٌ أليمةٌ يُفْزِعُه هَاجِسُها المُخيف، فبعثَ إليهم يَسْتَقْدِمُهم حتّى يُصيبوا حظّاً كما أصاب، وكتَب إليهم أنْ هَلُمّوا قبل أنْ تَقِفَ الهجرةُ ويُقْفَل الباب، إذ لا كرامةَ لِلِيبيٍّ في وطنه، كما لا كرامةَ لنبيٍّ في قومه، ولا تُفكِّروا في علْمٍ أو خبرة أو شهادة، فيكفي أنّكم أجانبُ لا تنتسبون إلى هذا البلد، وحَسْبُكم أنّكم غرباءُ قادمون من خارج الحدود.

المسيح(*)

صَرْخةُ العدل الْمُدَوِّيَةُ في عالَم الظُّلم والاسْتِبداد، ودعوةُ المحبّة الْمُجَلْجِلَةُ في دنيا الكراهيَة والأحقاد، وبَسْمَةُ الأمل الرّقيقةُ في وجه الْيَأْس والقُنوط.

النورُ الّذي فَضَحَ خَفافيشَ الظّلام وكشَفَ عن بَشاعة الْمُتاجرين بالدّين، واليدُ الّتي قَطَعَتْ أذنابَ الأفاعي ومزَّقَتِ الحُجُبَ عن الْمُرائين، والصّدقُ الّذي أخْرَسَ الكاذبين الْمُجادِلين بالباطلِ لِيُدْحِضُوا به الحقّ.

اللَّمْسَةُ الكريمةُ الّتي أبْرَأَتِ الأكْمَهَ والأبْرَصَ وأبْرَأَتْ أمراضَ الأخلاق. والنّفْخةُ الْمُبارَكةُ الّتي أحْيَت الموتَى بإذن الله كما أحْيَتْ أمواتَ القلوب. والحكمةُ البالِغَةُ الّتي فَتَحَتْ مَغاليق العقول وأزالتْ غِشاوةَ العيون وحَرَّرَتِ الإرادةَ من القُيود.

نَبْتَةُ الخيرِ النّامِيَةُ تحدَّتْ فسادَ تُربَةِ بني إسرائيل حتّى أخْرَجَتْ شَطْأَها. وغَيْثُ السّماءِ النَّافِعُ نزلَ على أرض القَحْطِ فرَطَّبَ شيئاً من جَفافِها. وصفحةُ الصّفاءِ البيضاءُ غَطَّتْ على صفحة الْخُبْث الْمُلَطَّخَةِ بالسَّواد.

(*) نُشِر الأَصل في جريدة «البلاغ» بتاريخ 4/ 1/ 1970.

عالِمُ النّفْس الّذي عالَجَ الْعُقَدَ الْمُسْتَعْصِيَةَ الْمُتَرَسِّبَةَ في أعماق النّفوس. ومهندسُ الفضيلة الّذي أصلح أجهزةَ الْقِيَمِ الْمُعَطَّلَةَ وأدارَ فيها التُّرُوس. والصَّيْدَلِيُّ الماهرُ الّذي ركَّبَ أجْوَدَ الأدْوِيَةِ وصَنَعَ أَنْجَعَ العقاقير. وخبيرُ الرّياضة الّذي دَلَّكَ عَضَلاتِ الضَّعْف فقوّاها، ومَرَّنَ الأعضاءَ الْمَشْلولةَ فحرَّكَها، وهَزَّ الأعصابَ الْمُسْتَرْخِيَةَ فَشَدَّها.

ثَوْرةُ الحقيقةِ على القُشور الزّائفةِ الّتي كان يتمسَّكُ بها أحبارُ اليهود. ومُظاهرَةُ الاحتجاجِ على الشّكليّات الْمُنافقةِ الّتي كانوا يُداهِنون بها عامّةَ النّاس. وصوتُ الضّمير لإيقاظ النُّوَّمِ الّذين طالَ اسْتِغراقُهم في النّوم العميق.

نصيرُ الفقراء عاش من أجلهم يُوَاسِيهم، وحبيبُ الْمُسْتَضْعَفين نَدَّدَ بأيدي الاحتكار الّتي تَسْحَقُهم، وأَبُو اليتامَى مَسَحَ دموعَهم وسكَّنَ رَوْعَهُم وعَوَّضَهم عن فَقْدِ الوالِدَيْن.

طَبَقُ العسلِ الْمُصَفَّى كان يُوَزِّعُ منه على كلّ النّاس ولا يَنْقُصُ منه شيء. وزُجاجةُ الطِّيبِ الفَوَّاحِ كان يُضَمِّخُ بها كلَّ ثوبٍ ولا يَفْرُغُ منها عِطْر. وسَلَّةُ الْوَرْد الجَميلِ كان يُعَلِّقُ منها على كلّ صدرٍ وَرْدةً ولا تَنْفَدُ السَّلَّةُ من الوُرود.

النّحّاتُ البارعُ الّذي كان يصوغُ الحكمةَ منَ المعدنِ النّفيس، والرَّسّامُ المُبْدِعُ الّذي كان يَمْزِجُ صُوَرَهُ بألوان الحياة، والعازِفُ القديرُ الّذي كان يُتْقِنُ الْعَزْفَ على أوْتار القلوب.

الإنسانُ في مذهبه روحٌ وجَسَدٌ وليس على الخبز وَحْدَهُ يعيش الْبَشَر. وبنو آدمَ في نَظَره خطّاءون ومَنْ كان بلا خطيئةٍ فَلْيَرْجُمِ الزّانيةَ بحَجَر. والحياةُ في مبدئه رحمةٌ فطُوبَى للرُّحَماء ينتظرون ملكوتَ الله.

هو رِقّةُ السَّماحةِ هَزَمَتْ جَبَروتَ العُنْف، ولِينُ العطْفِ طَوَّعَ صَلابةَ الْقَسْوَة، ونَسْمَةُ الْعَفْوِ قَهَرَتْ زوابعَ الانتقام.

هو بَطَلٌ مِغْوَارٌ خاضَ المعاركَ الشّرِسَةَ ولكنّه لم يُمْسِكْ في حياته قَبْضَةَ سيف. وهو فارِسٌ شجاعٌ لم يَتَهَيَّبِ الوُحوشَ الضّاريَةَ ولكنّه لم يُرِقْ مَرَّةً قَطْرَةً من دم. وهو الصّبورُ العنيدُ الّذي لم يتراجَعْ في أيّ مَوْقف ولكنّه لم يتقاتَلْ قطُّ حتّى مع عُصفور.

أمامَ تواضُعِه الْجَمِّ ارْتَعَدَتْ فرائصُ الْمُسْتَكْبِرين وارْتَجَفَ الْمُتَجَبّرون. وبجانب شخصيّته العِمْلاقة تلاشَتْ قاماتُ الأقزامِ وتوارَى الْمُتَطَاوِلون. وإزاءَ إنسانيّته العظيمة انْهَزَم الْمُناوِئون وتخاذَلَ إخوانُ الشّياطين.

أَفْحَمَ صُنّاعَ الكلام الثّرْثارين بكلماته القليلة النّافِذَة. وبَزَّ خُطباءَ المنابر الصَّارخين بنَبَراته الهادئة الْهامِسَة. وعَبَّرَ بالصَّمْتِ البليغ عن أرْوَع قصائد الوِجْدان.

سِلاحُه الماضي كامِنٌ في إنسانيّته الرّفيعة الّتي يتحَطَّم أمامَها أقْوَى سلاح. وبُطولتُه الخارقةُ مُودَعَةٌ في قلبه الكبير الّذي يَخِرُّ له أشْجَعُ الأبطال. وتأثيرُه العجيبُ نابعٌ من روحه العالية الّتي تستمدّ قُوَّتَها من الله.

أثْبَتَ للنّاس جميعاً أنّ مُقاوَمَةَ الشّرّ لا تكونُ إلاَّ بسلاح الخير، وأنّ تفاديَ الحرب لا يكونُ إلاَّ بالْتِزام السّلم، وأنَّ غَسْلَ القَذارة لا يتِمُّ إلاَّ بالنّظافة والطُّهْر والْبُعْدِ عن أسباب التّلَوُّث والفساد.

وصِغارُ العقولِ يُسَمُّون ذلك ضَعْفاً ووَهْناً وما هو في الحقيقة إلاَّ القُوَّةُ الضّارِبَة. وسَطْحِيُّو النَّظْرة يَرَوْنَ ذلك جُبْناً وخَوَراً وما هو في العُمْق إلاَّ الجراءةُ النّادِرَة. وقليلو الخبرة بشؤون الحياة يحسِبون ذلك سَهْلاً يسيراً وما عَلِموا أنّه

الْعَقَبَةُ الّتي لا يَقْتَحِمُها إِلاَّ ذَوُو النّفوس الكبيرة والْهِمَمِ العالية.

فليس أصْعَبَ على الإنسان مِنْ أنْ يَقْهَرَ غُولَ الشّرِّ الّذي يعيش فيه، وليس أقْسَى عليه مِنْ أنْ يُسْكِتَ صُراخَ الانتقامِ الّذي يُناديه، وليس كلُّ أحدٍ قادراً على أنْ يَجْعَلَ عدوَّهُ كأنّه وَلِيٌّ حَميم.

ومَنِ اجْتَازَ هذه التّجربةَ الْعَويصَةَ فهو الرّجلُ حقّاً ودونَه كلُّ الرّجال. ومَنْ هَزَمَ شَرَّه في داخله اسْتطاعَ أنْ يَهْزِمَ كلَّ شيءٍ ولو صَنَادِيدَ الأبطال. ومَنْ نَجَحَ في مادّة النّفس الرّئيسةِ نَجَحَ في بَقيّة الموادّ وفاز في أيّ امتحان.

ولَمَنْ صَبَرَ وغَفَرَ إنّ ذلك لَمِنْ عَزْمِ الأمور. وجزاءُ سيّئةٍ سيّئةٌ مثلُها فمَنْ عفا وأصْلَحَ فأجْرُه على الله. وأنْ تعفُوا أقرب للتّقوى ولا تَنْسَوُا الفضل بينكم. وما يُلَقّاها إِلاَّ الّذين صبروا وما يُلَقّاها إِلاَّ ذو حظّ عظيم.

ذلك عيسى بن مريم قول الحقّ الّذي فيه يَمْتَرون، وتلك دعوةُ المسيح الّتي إليها زُوراً يَنْتَسِبون، وهذه رسالاتُ السّماء الّتي تَصْدُر كلُّها من نفس الْمِشْكاة.

فَعَجَباً لقوم يبكون على صُلْب المسيح الّذي يزعُمونه وهم يَصْلُبون مبادئه في كلّ لحظة وحين. ويدَّعون الإيمانَ برسالته وهم يُحارِبونها في كلّ مناسبة ومكان. ويتبَجّحون باتّباع دينه وهم يَدُوسُونه بالأرجل ويُمَرِّغونه في الأوحال.

ليس المسيحُ لافِتَةً تعلو واجهاتِ الأحزاب ولكنَّه عُنْوانٌ خالدٌ للسَّلام. وليس شَمْعةً تُوقَدُ لتِمثال أمّه الْعَذْراء ولكنّه دَعوةٌ صادقةٌ للمحبّة والوِئام. وليس أجراساً تُدَقُّ من فوق أبْراج الكنائس ولكنّه كلمةُ الله لبني الإنسان.

إنْ أرادوا إرضاءَ المسيح حقّاً فلْيُطْفِئُوا نيرانَ الحروب الّتي يُضْرِمونها.

وإنْ أحبّوا دعوةَ ابنِ الْبَتولِ صِدْقاً فَلْيُطَهِّروا أيديَهم من رِجْس الجرائم الّتي يرتكبونها.

وإنِ ادَّعَوْا اتِّباعَ دينه فِعْلاً فَلْيَمْسَحوا جِراحاتِ القلوب كما مَسَحها عليه السَّلامُ بحِلْمِهِ وعطفه وحُبّه الواسع العظيم.

ثمّ مَنْ قال إنَّهم مُنْتَسِبون إلى المسيح وهم بالمسيح كافرون؟

ومَنْ قال إنّهم من أتباعه وهم لرسالته جاحِدون؟

ومَنْ قال إنّهم على دينه وهم لدينه مُحَرِّفون؟

فهم كافرون ـ أوّلاً ـ لأنّهم قالوا المسيحُ ابنُ الله وما كان لله أنْ يتَّخِذَ من وَلَد.

وهم كافرون ـ ثانياً ـ لأنّهم كَتَموا بِشارَتَه في الإنجيل برسول يأتي من بعده اسمُه أحمد.

وهم كافرون ـ ثالثاً ـ بقولهم على مريم بُهتاناً عظيماً، وقولِهم إنّا قَتَلْنا المسيحَ عيسى بن مريم رسولَ الله وما قَتَلُوه وما صَلَبوه ولكنْ شُبِّهَ لهم.

هو كلمةُ الله ألْقاها إلى مريمَ الّتي أحْصَنَتْ فَرْجَها. وهو روحٌ خَرَقَتْ الْقانونَ المعتادَ في الوِلادة وأسبابِها. وهو آيةُ القُدرةِ الّتي إذا أرادتْ شيئاً أنْ تقولَ له كنْ فيكون.

هو عَبْدُ الله وأُمُّه صِدِّيقةٌ كانا يأكلان الطّعام. وهو حَلْقَةٌ في سلسلة الرّسل الكرام الْمبدوءَة بآدمَ والمختومةِ بمحمَّد سيّد الأنام. وهو واحدٌ من أُولي العَزْم من الرّسل الّذين أَخَذَ اللّهُ منهم ومن النّبيّين الميثاق.

فمَنْ قال إنّ المسيحَ ابنُ اللّهِ فقد أَشْرَكَ ومَنْ يُشْرِكْ بالله فقد حرَّم اللّهُ عليه الجنّةَ ومأواه النّار.

ومَنْ فَرَّقَ بين الرُّسل فآمَنَ ببعضٍ وكَفَر ببعضٍ وأراد أَنْ يتَّخذَ بينَ ذلك سبيلاً فأولئك هم الكافرون حقّاً وأعْتَدْنا للكافرين عذاباً مُهيناً.

ومن يَبْتَغِ غيرَ الإسلام ديناً فلن يُقْبَلَ منه وهو في الآخرة من الخاسرين.

مـعِـيـتِـيـقَـة(*)

اشْتُقَّ اسْمُها من «الْعِتْق» لِيكونَ رمْزاً للتَّحرُّر من العبوديّة وكَسْرِ الأغلال. وبُنِيَ على صيغة «التّصغير» لِيُوحِيَ باللُّطْف والرَّشاقة ورِقّة الجمال. ووُزِنَ على «تَفعيلَةٍ» من تفعيلات الشِّعْر لِيكونَ عَذْبَ الجرَسِ في النّطق، موسِيقِيَّ النَّغَمِ في السّمع، حُلْوَ التّأثيرِ في الْوِجْدان.

كانت «معيتيقة» طفلةً تتَفَتَّحُ كما تتفَتّحُ الوردةُ النّدِيَّةُ مُتَضَوِّعَةً بالعِطْر الزَّكِيّ. وكانت تنمو كما ينمو العُودُ الأخْضرُ يُبَشِّرُ بالظِّلّ الْوارِفِ والثّمَر الْجَنِيّ. وكانت تَتَرَعْرَعُ في حِجْر والِدَيْها كما يَتَرَعْرَعُ الأَمَلُ الْبِكْرُ في قلوب أَهل الطِّيبَة والصَّفاء.

كانت بسمةً رقيقةً تستقْبِلُ الحياةَ بالبَهْجَةَ والحُبّ. وكانت براءَةً طاهِرةً تُعَبِّر عنها كلُّ لَمْحَةٍ من لَمَحات وَجْهِها الوديع. وكانت السّكينةَ تتألَقُّ في عيْنَيها وتُومِضُ بالأمْن والسّلام.

كانت هادِئةَ الطَّبْع كهُدوء ليل «الْمَلاَّحَة» قبلَ أن يُكدِّرَ صَفْوَهُ الأمريكان. وكانت لطيفةَ الْمَعْشَر كلُطْف هواء «الْهِنْشِير» البحريّ العليل في أُمْسِيّات فصل

(*) بمناسبة مأساة الطّفلة «معيتيقة» المشهورة في عام 1958.

الصّيف. وكانت خفيفةَ الظّلّ كخِفَّة الفَراشَة الجميلة الْمُتَنَقِّلَةِ بين أزهار الرّبيع.

كانت ـ ككلّ عباد الله ـ تُريدُ أن يمتدَّ بها الْعُمُرُ وتَسْتَمْتِعَ بلَذَّة الحياة وتَنْهَلَ من مَعينها.

وكانت ـ ككلّ لِدَاتِها ـ تنتْظِرُ قدومَ العيد لِتَلْبَسَ الفُستانَ الجديدَ الّذي اشتراه لها أبوها.

وكانت ـ ككلّ أنثى ـ تَدّخِرُ في أعماقها حُلْمَها في الزّواج وإنجاب البنين والبنات.

وكَأَنّي بها يومَ حَتْفِها قد خرجَتْ من بيتها مُشْرِقَةَ الوجه كإشراقَةِ الشّمس الّتي تَسْطَع فوقَها، مَرِحَةَ الرّوح كَمَرَحِ الطّبيعة الْمُتَبَرِّجَة مِنْ حَوْلِها، نَشِطَةَ الحركة تتفَجّر الحيويّةُ من أعطافها كالنَّحْلَة الّتي لا تَكُفُّ عن البحث ولا تتوقّف عن الدَّوَران.

وكأنّي بها قد لَعِبَتْ مع صُوَيْحِباتها لَعِباً لم يكنْ معهوداً فيها من قَبلُ حتّى لَكأنّها تريدُ أن تَخْتَصِرَ في ساعةٍ واحدةٍ لَعِبَ سِنِي الطّفولة كلِّها.

وكأنّي بها لم تَهْدَأْ لحظةً عن الثّرثرة واسْتِرسال القول حتّى لكأنّها تَسْتَعْجِلُ تجميعَ أكبرِ قَدْرٍ من الكلام لرحلة الصّمْت الّتي سوف تطولُ بها.

وكأنّي بها قد ضَحِكَت بكلّ ذَرَّةٍ من كيانها حتّى لكأنّها تَحْرِصُ على اسْتِنْفادِ كلّ ما في جُعْبَتها من ضَحِكٍ قبلَ أنْ تُسْتَشْهَدَ آخِرُ ضَحْكَةٍ على ثَغْرِها الوسيم.

وكأنّي بها بعد ذلك قد طَبَعَتْ على خدّ كلّ واحدةٍ من صُوَيْحِباتِها قُبْلَةَ تُوَدِّعُهُنَّ كما يُوَدِّعُ الْمسافِرُ المحزونُ الّذي يعرِفُ أنّه لن يعود، وضَمَّتْهُنّ إلى صدرها بكلّ الشّوق الّذي تَحْمِلُه بين جوانحها كأنّها شَعَرَتْ بقُرب الفِراق الّذي

لا لِقاء بَعْدَه، وشَدَّتْ على أيديهنّ شَدّاً كأنّها تأخُذُ منهنّ العهدَ على أنْ يَتَذَكَّرْنَها عندما تَنْتَقِلُ إلى عالَم الذّكريات.

ثمّ أسْرَعَتْ تَغِذُّ الخُطَا نحوَ بيتها وما كانت تدري أنّها تُسْرِع نَحو الأجَل المحتوم. وتَلَهَّفَتْ وهي في طريقها إلى الارتماء في حِضْن أمّها وما كانت تحسب أنّها سَتَرْتَمي في فم الموت المسعور. وسالَ لُعابُها لِوَجْبَة الغَدَاء التي تنتظرها وما كانت تعلمُ أنّها ستكونُ غَداءً لِلَّهَب الْيَحْمُوم.

وفَجْأَةً انْشقَّتِ السّماءُ عن طائرة أمريكيّة لها دَوِيٌّ كقَصْفِ الرّعد الشّديد الْمُتَفَجِّر، تَجُرُّ وراءَها فُوَّهَةً من النّار كأنّها اتّخَذَتْ ذَيْلاً من حريق مُسْتَعِر.

وسَقَطَتِ الطّائرةُ وسَقَطَ منها الْبَلاءُ كأنّه الجحيم بُرِّزَتْ، وزُلْزِلتِ الأرضُ زلزالَها كأنّها ألْقَتْ ما فيها وتَخَلَّتْ.

وزاغَ من الْهَوْلِ البَصَر، وتَطايرَ النّخلُ والشَّجَر، كأنّها الرَّاجِفة تَتْبَعُها الرَّادِفَة.

والْتَهَمَ الوَحْشُ الْمُنْقَضُّ من عُلْوِ «معيتيقة» والْتَهَمَ معها عِشْقَها للحياة وحَقَّها في الوجود. وقَطَفَ زهْرَتَها الْمُتَفَتِّحة قبلَ أنْ تُكْمِلَ مُهِمَّتَها في نَشْرِ العِطْر وتُتِمَّ دَوْرَةَ الوُرود. واجْتَثَّ جِذْرَ عُودِها الأخضرِ قبلَ أنْ يَضربَ في العُمْق ويُبَشِّرَ بالظِّلّ. وانْتَزَعَ من شَفَتَيْها بَسْمَتَها الرّقيقة الّتي كانت تُعَبِّرُ عن الفرحة وتَنْضَح بالأمل. وأطْفَأ بريق عينَيها الّذي كان يُومِضُ بالطّمأنينة وَيَشِعّ بالأمان. وأخْمَدَ جَذْوةَ نشاطِها كما تُخْمَدُ أنفاسُ الْمُخْتَنِق بكثيف الدّخان. ومَزَّقَ فستانَ العيد الّذي كانت صورتُه مرسومةً على لَوْحَة خيالها الصّغير. وقَتَلَ حُلْمَها الأُنْثَوِيَّ الّذي كان ينمو في قلبها الْبَضِّ مع نموّ جسمها النّضير.

وبكَى الشّعبُ «معتيقة» بكاءَ الثّكْلَى على فَقْد ابنها لأنّها فِلْذَةٌ من كبِده

وقِطعةٌ من فُؤاده. وحَزِنَ عليها حُزْنَ يعقوبَ على يوسفَ لأنّ قضيَّتَها قضيّتُه ومأساتَها مأساتُه. وارْتاعَ لحادث اغتيالها لأنّ كلَّ واحدٍ فيه مُعَرَّضٌ لانقضاض الْوَحْش النّاريّ يَصُبّ من فوق رأسه الحميم.

أمّا جلاّدوها فقد قال لسانُ حالهم: ليس على الطيَّارين من تَثْريبٍ لأنّهم يتدرَّبون ولا يخلُو تَدَرُّبٌ من أخطاء. وليس على مسؤولي «القاعدة» من لَوْم لأنّهم مُسْتبيحون بحكم المعاهدة الأرضَ والسَّماء. وليس لدم الفقيدة من تعويضٍ لأنّ دمَ اللّيبيّين جميعاً مدفوعٌ مُقَدَّماً بحَفْنَةٍ من الدّولارات.

وإبداءً لحسن النّيّة والمشاعر النّبيلة، وتعبيراً عن عواطفنا الإنسانيّة نحو براءة الطّفولَة، نُصْدِرُ بياناً نأسَفُ فيه على ما حَدَث، ونُعَزِّي أهل الفقيدة في مُصابهم الجلَل، وندعو لهم بالصّبر والسّلوان وأن يُعَوِّضَهم اللّهُ عنها خيراً.

وقد تعترينا نَوْبَةٌ من أرْيَحِيَّة وكَرَم، فنتبَرَّعُ بمبلغ ماليّ أو عدد من الغنم، وذلك لإقامة «تَاليف» على روحها الطّاهرة، وتهيئةِ «عَشاء» يكون لها صدقةً تنفعُها في الآخرة.

وهكذا انتهتْ «معيتيقة»، ولكن بدأتْ بانتهائها صفحةٌ جديدةٌ من قصّة الحقّ الّذي وراءَه مُطالِب. وغابتْ في قبرها الْمُظْلم، ولكن لم يغبْ طَيْفُها عن أعين الّذين تَضِجُّ دماؤهم بالثّأر لها. وسَكَتَتْ أُغْنِيَّتُها الطُّفُوليّةُ الّتي كانت تتَرَنَّم بها، ولكن فَجَّرَتْ بسكوتها أناشيدَ تَلْتَهِبُ بالنِّقْمَة وتَغْلِي بالغضب.

ذهبتْ «معيتيقة» صورةً وبقيَتْ حيَّةً في قلوب الأوفِياء. وطَواها الثَّرَى جَسَداً وظَلّتْ روحُها تُرَفْرِفُ بأجنحة الشّهداء. وأَلْغَى القلمُ اسْمَها من سجلّ البلديّة وكتبَ التّاريخ اسمَها في سجلّ الخالدين.

الشّيخ المتصابي

شيخٌ كبيرٌ يُفَكِّرُ بعقليّة طِفل، وجُثَّةٌ ضخمةٌ تَحْلُم بأحلام العصافير، وتجربةٌ طويلةٌ لم تخرُجْ باستثمارٍ ولم يتوفّرْ لها رصيد.

صَوَّرَ له خيالُه الْمريضُ أنّ له عَدُوَّيْن يتعاونان على هَدِّ كِيانه وتفكيك أوْصاله، ويتآمَران عليه لإهْدار اعتدالِه وإطفاء جمالِه، ويتَواطآن على وضع نهايةٍ لأَرَبه في النّساء وأَرَبِ النّساء فيه.

واعتقَدَ المسكينُ أنّ العدوّيْن اجتمعا عليه في وقت واحد كأنّهما على موعد دقيق مُحَدَّد، واتّفقا في هدفهما كأنّهما مُبْرمان عَقْداً يتعهّدان فيه بتقريب خَطْوِهِ من حافّة القبر، وأَخْلَصا في مُهِمَّتهما كأنّهما مَدْعُوّان إلى عمل إنسانيّ يَبْذُلان فيه أقصى الجهد ويلتمسان منه حُسْنَ الأجر والمَثوبة.

العدوُّ الأوّل: عُمُره الّذي أوْصَلَه قطارُه السّريعُ إلى محطّة السّبعين، وقَذَفَ به إلى الخطّ الآخَرِ الْمُتَّجِهِ نحوَ مَحطّة الثّمانين، ورماه في أحْضان الشّيخوخة تَضُمُّه بأطرافها الْمُرْتَعِشة، وتُدْفِئُه بحرارة الكانون الّذي لا يُغادرها.

العدوُّ الآخر: جِسْمُه الضَّخْمُ الْمُتَرَهِّلُ الّذي تَكْثُر فيه النُّتوءاتُ والانخفاضات، وتتوزّعُ على سطحه بلا نظامِ الأوْدِيَةُ والْمُنْعَطَفات، وتَسودُه

حالةٌ من عدم التّناسُق والانسجام، ويَفْقِدُ الجاذبيّة كما يَفْقِدُ رائدُ الفضاء جاذبيّةَ الأرض.

وكَبُرَ عليه ـ لِغَبائه ـ أنْ يَسْتَسْلِمَ لِغُولِ العُمُر يَلْتَهِمُه قِطْعةً بعدَ قِطْعَة، ويُرْغِمُه على رُكوب قطاره السّريع لِيَنْقُلَه من محطّة إلى محطّة، ويُقَرِّبُه شيئاً فشيئاً من خطّ التّوقُّف النّهائيّ الّذي لا خَطَّ بعده.

وحَزَّ في نفسه ـ لحماقته ـ أنْ تُجَفِّفَ الشّيخوخَةُ ماءَ رَوْنَقه ونَضَارتِه، وتَسْلُبَه سِرَّ جاذِبيَّته وفُحولَةَ رُجُولتِه، وتَحْرِمَهُ «حِصّةً إضافيّةً» لِلَّعب في ميدان الشّباب، ولا تحْتسِبَ له بَدَلَ «الوقت الضّائع» لعلّه يتدارَكُ فيه ما فاتَ ويسْتَرْجِعُ ما غاب.

وقَصَدَ بعضَ أهل القانون لِيَنْتَقِمَ له من العُمُر الْمُتآمر عليه، ويُحْبِطَ سَعْيَه ويُسَفِّهَ رأيَه ويُعَطِّلَ قطارَ الثّمانين الْمُتَوَجِّهَ إليه، فأَبَى على الرّجل الشّهْمِ شَرَفُ الْمِهْنَةِ أنْ يُسايِرَهُ في عَبَثِهِ الصّبيانيّ، ونَصَحه نصيحةً لله أن يثوبَ إلى رُشْدِه ويكُفَّ عن عمله الشّيطانيّ.

ودَلَّه بعضُهم على «أُسْطى» قانون أخْفَق في العمل النّظيف فالْتَجَأَ إلى الطّرق الْمُلْتَوِية والأبواب الخلْفيّة، واكْتَسَبَ بذلك مالاً كثيراً وخَسِرَ السُّمْعَة الأخلاقيّة، فأبدى «الأسطى» استعدادَه لإجراء عمليّة تَزْوِيرٍ مضمونةٍ على عَدَّاد العُمُر تَنْقُصُ منه ثلاثين عاماً على ثلاث دَفَعات، كلّ دَفْعَة تُؤَخِّر العدَّادَ إلى الوراء عَشْرَ سنوات، حتّى يصلَ العُمُرُ الجديدُ إلى الأربعين مُسَجَّلاً في دائرة النّفوس بالبلديّة، ومكتوباً في جواز السّفر ورُخْصَة القيادة والبِطاقة الشّخصيّة.

وحتّى تكونَ الأمورُ واضحةً لا تحتاج إلى تفسير وتأويل، صارَحه «الأسطى» بأنّ ضميرَه القانونيَّ لا يَسْمَحُ له بأكثرَ من هذا التّنزيل، وأنّ لكلّ

خُطوة في العمليّة أعوانَها وأرْبابَها، ولكلّ دَفْعَةٍ من الثّلاث حسابَها وأتعابَها.

وبعد دخولٍ وخروجٍ في المسارب والدّهاليز والأزِقّة الضّيّقة المُظْلِمَة الّتي يُتْقِنُ «أسطى» القانون وُلُوجَها والتّعاملَ معها، أَتَمَّ عمليّةَ التّزوير وتراجَعَتْ أرقامُ العَدَّادِ زَيْفاً إلى الوراء، وظَنَّ الشّيخُ الغافلُ أنّه رَدّ للعُمُر المتآمِرِ صَفْعَتَه وهَزَمَه في ساحَة القضاء.

أمّا الشَّيْبُ الخبيثُ الّذي يَفْضَح بِبَياضِه ونَصاعَتِه سِنَّه الْمُتَقَدِّمَةَ بين الأنام، ويَنْطِقُ باسم الشّيخوخة ويُمَثِّلُها في الْمَحافل كأنّه وكيلُها العامّ، فقد طَمَس بريقَه وخَضّبَ بالسّواد بياضَه، وهَذّبَ أطرافَه ورَطَّبَ جَفافَه وسَوَّى هِضابَه، وجَعَل «فَرْقَةَ» على اليمين لتكونَ شاهِدَ زُورٍ على الشّباب الْمُصْطَنَع والْفُتُوَّةِ الكاذبة.

ومُبالَغَةً في تشديد الرّقابة على هذا الشّيْب الماكر، وحتّى لا يَسْتَغِلَّ لحظةَ غفلةٍ يُمارِسُ فيها كيْدَه الآثِم، كان صاحبُنا يقف كلَّ يومٍ ساعاتٍ أمامَ المِرْآة يتفقّدُ شَعَراتِه واحدةً واحدة، ويتَعَقّبُ أيَّ شَيْبَةٍ أفْلَتَتْ من الصَّبْغَة وأبَتْ أن تَتَلَفَّعَ بالرِّداء الأَسْحَم، حتّى إذا ما لَمَحَ شَيْبَةً تُومِضُ في السّواد كما تُومِضُ الغُرَّةُ في جبهة الجواد الأدْهَم، قَبَضَ عليها بعنفٍ مُتَلَبِّسَةً بجريمة التّمَرُّد على الخِضاب، وأنْزلَ بها أفْدَحَ الحُكمِ وأشدَّ العقاب، وأَعْدَمَها على الْفَوْر اسْتِئْصالاً من الْجِذْر بدون أن يُعْطِيَها فرصةً للدّفاع أو حَقَّ الاستئناف، أو يَستجيبَ لشفاعة وَقارِها أو يَرْحَمَ ضَعْفَ تركيبها.

وجاءَ دَوْرُ البطن الّذي يَبْرُزُ أمامَه مُنْتَفِخاً كالزِّير، ويُثْقِلُه كما يُثْقِلُ الْحُبْلَى حَمْلُها في شهرها الأخير، فهَداه تفكيرُه الْفطيرُ إلى أنَّ حِزاماً جِلْدِيّاً عريضاً كفيلٌ بإجْبار البطن على التَّراجُع والتّقَهْقُر، لِيُصْبِحَ بعد ذلك مَمْشوقَ الْقَوَام، مُعْتَدِلَ الْقَدّ، بَهِيَّ الطَّلْعَة، جَذّابَ الْمَظْهَر.

وما أنْ شَدَّ الحِزامَ شَدّاً قويّاً على وَسَطِه، حتّى ضَغَطَ على أحْشائه وضَيَّق الْخِناقَ على نَفَسِه، وصار يَلْهَثُ كما يَلْهَثُ الكلبُ في حرّ الرّمضاء، ويَصْدُرُ منه فَحيحٌ كفَحيح الحيّة الرَّقطاء.

واحْتَمَلَ هذا العذابَ في صبرٍ عنيد، ففي سبيل الرّشاقة يركَبُ كلَّ صَعْبٍ ويَسْتَسْهِلُ كلَّ شديد.

لكن هذه المحاولة لم تأتِ بطائل، فلم يَضْمُرِ الْبطنُ ولم يَفْرُغْ من انتفاخه الهائل، فقد انقسَمَ البطنُ بالحِزام إلى شَطْرَيْن كبيريْن، وبَدَا مكانُ الحِزام كطريقٍ ضَيّقٍ يَشُقُّ جَبَلَيْن، أو كَشِوَال الأرز مربوطٍ في نصفه بحبل متين.

وكانت مشكلةُ المشكلات في الوجه وما يحويه، إذ لا يُعْجِبُه فيه شيءٌ ولا يُرْضيه؛ فأوْدَاجُه تَتهَدَّل تحتَ ذَقَنِه كَتَهَدُّلِ أوداج بقرة فارض، والشُّقوقُ تمْتَدُّ على جبهته كما تَمْتَدُّ الأخاديدُ على الأرض الصُّلْبة، والتّجاعيدُ تتخلّل خَدَّيْه كأنّها مسارِبُ مُتَشَعِّبَةٌ من آثار السَّيْل، والعينان ضيّقتان أكَل أهْدابَهما داءُ شَعْرَةٍ قديم، والأسنانُ صَدِئَة مُصْفَرَّةٌ كأنّها على خُصومَة شديدة مع معاجين التّنظيف، مُخْتَلَّةُ النِّظام كثيرةُ الْفَجَوات مُعْوَجَّةُ التّصفيف.

واسْتَعان لتغيير خارطة وجهه بآخِر ما أنْتَجَتْه مصانِعُ الغَرْب واليابان من فاخِر الْمَراهم والدُّهون والطِّلاء، ودَأَبَ على دَلْكِ الأوْداج لعلّها تَتَماسَكُ قليلاً وتَتوقّفُ عن الارتخاء، وأغْرَقَ بها أخاديدَ وجهه لعلّها تَلين فتُحْدِثَ انجرافاً يُغَطّي شُقوقَها، واستعملَ نَظّارَةً كثيفةَ السّواد لعلّها تَسْتُرُ عَيْبَ الْعَيْنَيْن، ورَكّبَ سِنّاً ذَهَبِيّة لعلّها تُزَيِّن «مَضْحَكه» وتُخفِّفُ من قُبْح فمه المُشِين.

ولم يزدْ هذا العَناءُ الطّينَ إلاّ بِلَّة، ولم تُفِدِ المراهِمُ والدُّهونُ في علاج

العِلّة، فلم تَزَل الأوْداجُ تَترَجْرَجُ تحتَ ذَقَنِه كما يَترَجْرَجُ الزِّئْبَق، ولم تَزَلِ الأخاديدُ مُتَّسِعةً كاتّساع الخنادِق، ولم تَزِدْ سِنُّ الذّهب الّتي كان يَبْتَسِمُ من أجلها بمناسبةٍ وغيرِ مناسبة فَمَه إلاّ قُبْحاً واخْتلالاً في نظام الأسنان.

بَقي أمرٌ آخَرُ وهو أنّه ما سَمِعَ بشيءٍ تَرَدَّدَ أنَّه يُعِيدُ الشّيخَ إلى صِباه إلاّ اسْتَجْلَبَه ولو من أقاصي الصّين، ودَفَع فيه أيَّ ثَمَن إذا قيل له إنّ فيه السِّرَّ المكنون، واسْتَعْمَلَه بكلِّ الطّرق من أَكْلٍ وشُرْبٍ، وسَفٍّ ولَحْسٍ، وتَبْخيرٍ وشَمٍّ، ومَسْحٍ وادِّهانٍ، وتَمِيمَةٍ وحِجاب.

وكانت النّتيجةُ من كلّ ذلك أنّ العطّارَ لم يُمْكِنْه أن يُصْلِحَ ما أَفْسَدَهُ فيه الدَّهْر، وأنّ بناءَهُ الْمُتَدَاعِيَ لم ينفَعْ فيه ترقيعٌ وترميم، وأنّ «بَطّارِيّتَه» الفارغةَ لم تَعُدْ قابلةً للتَّعْبِئَة والشَّحْن.

وكثُرتِ ارْتِطاماتُه بصُخور الواقع، واتّسعَ خَرْقُ حماقته على الرّاقع، وأحسَّ بالخجل من نفسه للعَبَث الّذي يأتيه، وشَعَرَ أنَّ كلَّ شيء مِنْ حوله يَلْعَنُهُ ويَبْصُقُ عليه، وتَسَرَّبَ إليه الاقتناعُ بأنّه غبيٌّ إذ يُحاربُ العُمُر، وأنّه في معركته مع الشّيخوخة كمن يزرَعُ في السَّبِخَة ويَحْرُثُ في البحر.

وفي لحظةِ صفاءٍ رَجَعَ إليه عقلُه بعد احتجاب، وعاد إليه صوابُه بعد غياب، وأدْرك أنّ الإنسانَ لا يعيش زمَنَه وزمَنَ غيرِه، ومن الأنانيّة أن يَسْتَحْوِذَ على نصيبه من الدّنيا ونصيب الآخرين، وأنّ من سَبَحَ ضدَّ تيّار الحياة جَرَفَه التيّار، ومَنْ عانَد حُكْمَ الأقدار سَحَقَتْه الأقدار، ومن كلَّفَ الأشياءَ غيرَ طِباعها لم يَحْصُد إلاّ الفشلَ ولم يَجْنِ غيرَ الْخَيْبَة والخُسْران.

وانْتَبَهَ إلى أنّه لم يَخْدَعِ القانونَ وسِجِلَّ البلدية عندما قام بعمليّة التّزييف، وإنّما خَدَعَ نفسَه وضَحِكَ على ذَقَنِه ودَلَّل على فكره السّخيف. وأنّه لم ينتقمْ

من الشّيْب إذْ وَارَى بياضَه بالْخِضاب، وإنّما انتقَمَ من ذاته إذ جعلها تجري وراءَ وَهْمٍ وسَراب.

وعَلِمَ أنّ قيمةَ المرء ليست في حُسْن منظره واعتدال قَوامه ونَضارة شبابه، وإنّما المرءُ بدينه وأخلاقه وعقله وسَمْتِه وفَضْلِ خِطابه. وأنّ الله ينظُر إلى قلوب النّاس لا إلى صُوَرِهم، ويحاسِبُهم بأعمالهم لا بقوالِبهم وأشكالهم.

وفي انفعالٍ عاقلٍ حطَّم قِنّينَةَ الصَّبْغة وكَسَرَ مِرْآةَ الرَّقابة على الشَّيْب، وحَرَّر البطنَ من عَنَت الحِزام وأطْلَق سَراحَ الأنفاس من القَيْد، وألْقَى بالمراهم والدُّهون والطِّلاء والمعاجين في صفيحة القُمامَة، وأزاح عن عينيه النّظّارة الّتي كانت عليهما كالغَمامة، وقَطّع الأحْجِبَة والتّمائِم الّتي كانت مُوَزَّعَةً على كلّ الجسم، ومزَّقَ كلَّ الأوراق والوثائق الّتي تحمِلُ آثار جريمة التّزوير في العمر.

ودعا الله أنْ يُوَفِّقَه لطاعته، ويُسَدِّدَ خُطاه لِمَرضاته، وأنْ يُباركَ له فيما بقِيَ من أيّامه، ويَشْفِيَه من عِلَلِه وأسقامِه، ويجعلَ شهادةَ الإسلام حُسْنَ خِتامِه.

رصيف طرابلس

كان رصيفُ مدينة طرابلس ـ المعروفُ عند العامّة باسمه الأجنبيّ «الكورنيش» ـ وجْهَ طرابلس الجميلَ الّذي تعْتَزّ به كما تعتزُّ الحسناءُ بوجهها الصَّبوح. وكان ثَغْرَها الأنيقَ الّذي كانت تستقبِلُ به القادمين إليها من البحر كما يستقبل الكريمُ ضيوفَه بالابتسامة والتَّرحيب. وكان قِلادَتَها الرَّائعةَ الّتي تُحَلّي بها جِيدَها كأنّها عروسٌ تُطِلّ بفتنتها على السّاحل الجنوبيّ للبحر الأبيض المتوسّط.

وكانت القلعةُ التّاريخيّةُ «السّرايا الحمراء» تقف بشمُوخها وكبريائها وسَطَ الرّصيف كأنّها تتحدّى الزّمن. وكان الرّصيفُ يمتدّ على يمينها وشمالها كذِراعيْن تحتضِنُ بهما القلعةُ بُحَيْرة الميناء الزّرقاء.

وكانت النّخلُ الباسقاتُ تَصْطَفّ خَلْفَ جزءٍ من الرّصيف في نظام بديع كأنّها فِرقةٌ من الحَرَس تَحْمِي ظَهْرَه. وكانت جَذائلُها الخُضْر تتموَّجُ وتتمايَلُ بنَسَمات البحر العليلة كأنّها تَرْقُصُ انْتِشاءً وتَهْتَزُّ طَرَباً.

وكانت «سقالة الحلفاء» و«سقالة التّرسانة» تبْرُزان من الرّصيف داخلَ البحرِ كأنّهما لسانان يَلْعَقان من مائه، أو كأنّهما رأسا هلالٍ يتّخِذُ استدارتَه أمامَ

الفندق الكبير. وكانت ترتفعُ على حافّة الهلال مصابيحُ ضخمةٌ تبدو أضواؤُها في اللّيل كَلآلِىءَ ناصِعَةٍ تُرَصِّعُ الهلال، وتعْكِسُ صَفحةُ الماءِ بريقَها الْمُرْتَعِشَ كأنّه يَتَزَحْلَقُ على الْمَوْج.

وكانت الغزالةُ تَضْطَجِعُ في هَيْأة إغراءٍ وفتنةٍ كأنَّها تريدُ أن تَحْرِقَ قلوبَ العاشقين لجمالها. وكانت تغتسِلُ بمياه نَافُورتها كأنّها تُبْرِدُ الحرارةَ الّتي جاءتْ بها من فَيَافِيها. واختارَتْ مكانَها قربَ الرّصيف كأنّها مُمَثِّلَةُ جمالِ الصّحراءِ في هذا المهرجان الفنّيّ البديع.

وكانت طيورُ البحر تقومُ بحركاتٍ رَشيقةٍ كأنّها تستَعْرِضُ مَهارتَها الفائقةَ في الطّيَران. وكانت تَسْبَحُ في الفضاءِ الفسيح كأنّها تُضاهي الأسماكَ في سِباحتها تحتَ الماء. وكانت إذا لَمَحَتْ قُوتاً انْقَضَّتْ عليه من عَلْيائها والْتَهَمَتْه في لَمْح البصر، ثمّ صَعَّدَتْ مُحَلِّقَةً تَسْتَأْنِفُ البحثَ عن لُقْمة العيش وتُزاوِلُ هِوَايَتَها باللّعب في الهواء.

وكانت الطّيورُ ـ عندما يُرْهِقُها الطّيَرانُ ويُجْهِدُها السّعْيُ وراءَ الرّزق ـ ترتفعُ على أبراج القلعة الشّامِخةِ تستريح على قِمَّتِها، وتَسْتَدْفِىء بأشعّة الشّمس وتُجَفِّفُ بَلَلَ ريشها بحرارتها، وتتطلّع تحْتَها بشَفَقَةٍ إلى الآدميّين الْمُلْتَصِقين بالأرض المحرومين نعمةَ التّحليق.

وعلى جانبٍ من الرّصيف كانت العصافيرُ تتّخِذُ من جذوع النّخل والشّجر بيوتاً تأوِي إليها وتحْمي فيها بَيْضَها وفِراخَها. وكانت تغدُو من أعشاشِها خِماصاً تبتغي من فضل الله، وتَروحُ بِطاناً ومعها قوتُ عِيالها. وعندما يَلْتَئِم شَمْلُها في الأصيل تَتَرنَّمُ بزَقْزَقَةٍ جماعيّةٍ كأنّها تُغَنّي أُنشودَةً تَسْتَدْبِرُ بها النّهارَ الّذي وَلّى، وتُرَحِّبُ باللّيل الّذي أقْبَل. ثمّ تغفو وترْكَنُ إلى الرّاحة، ولا تصحو إلاّ مع خيوط الفجر الأولى تُناديها أنْ حَيَّ على الفلاح. ثمّ تبدأ

برنامَجها اليوميَّ بتَرْنِيمَةٍ جماعيّة تُحَيِّـي بها الصّباحَ الّذي أسْفَرَ وتُوَدِّعُ اللّيلَ الّذي أدْبَر، ثمّ تنطلِقُ مُتَوَكِّلَةً على الفتّاح العليم الّذي جَعَلَ رزقَها في سَعْيها.

وقد تُوَسِّعُ طيورُ البحر دائرةَ تحليقها فتَطيرُ على البرّ، وقد تَفْعَلُ طيورُ البَرّ مثلَ ذلك فتُحَلِّق فوق البحر، فلا يَضيق أحدُ الفريقين بزيارة الآخَر، ولا يَتَّهِمُه باقتحام داره واختراقِ مَجالِه الجوّيّ، ولا يدخُلانِ في معركةٍ وصِدام من أجل النِّزاع على الحدود، بل كثيراً ما يقومان بِعَرْض طيرانٍ مُشْتَرَك، ويتَسَلَّيان بألعابٍ وحركاتٍ واحدة، ويَتَسابقان في مِضْمار الْمَهارَة والرَّشاقة والسُّرعة، فيُضْفيان بهذه السّماحَة والأُلْفَة على الرّصيف جمالاً على جمال وبَهْجَةً فوقَ بَهجة.

وكان البحرُ يُداعِبُ أقدامَ القلعة العتيقة بمياهه الرَّقْراقة، ويُطْرِبُ سَمْعَها بوَشْوَشَة مَوْجَاته الخفيفة، ويَطْرُدُ مَلَلَها بِقِصَص مُغامراته العجيبة. وقد يُمازِحُها عند نَشاطه فيُبَلِّل ثوبَها الْقديمَ ويضربُ سُوقَها الْمَنْهُوكةَ من أثر الشّيخوخة. وقد يبتعد عنها في حالة الْجَزْر لِيَزْدادَ شَوْقُها إليه، ولكن سُرعانَ ما يَسْتَبِدُّ به الوَجْدُ فيعود اللِّقاءُ بينهما بعودة الْمَدّ.

وكان «سيدي الشّعّاب» على طَرَف الرّصيف الشّرقيّ رابضاً فوق رَبْوَته العالية كأنّه مُكَلَّفٌ واجبَ الْمُرابَطَة على الثّغْر، ومَشغولٌ بمُراقَبَة سُفُن الأعداء الّتي ينْشَقّ عنها الأُفُقُ البعيد، ومُهْتَمٌّ بإبلاغ القلعة بأيّ خطرٍ داهمٍ في الوقت المناسب حتّى لا تُؤْخَذَ على غِرَّةٍ ولا تبقَى مدافعُها صامِتَةً عند لُزوم الكلام.

كان هذا الحشْدُ الّذي يجمَعُ في الرّصيف جمالَ البحر وجمالَ الخُضْرة وجمالَ الطّير وجمالَ التّاريخ وجمالَ الصّحراء، مُنْسَجماً في عناصره غايةَ الانسجام كما تنسجِمُ الألوانُ المختلفةُ في اللّوحة الفنّيّة الرّائعة، ومُتَناسِقاً في تنَوُّعه كلَّ التّناسق كما تتناسَق الأنغامُ الْمُنْبَعِثَةُ من الآلات الْمُتَعدِّدة في الفرقة الموسيقيّة الواحدة.

وبين عَشيَّةٍ وضحاها اختفى هذا الحشدُ الجماليُّ من الوجود كما يختفي البدرُ في ليلة تَمامه بالخُسوف الكامل. وطُمِسَ وجهُ طرابلسَ الجميلُ وثَغْرُها الباسمُ الأنيقُ كأنّ غارةً عنيفةً شُنّتْ عليهما فتركتْهما هَباءً مَنْثوراً. وانْتُزِعَتْ من صدرها قِلادتُها الّتي كان تتحلَّى بها كما تُنْتَزَعُ من صدر فاتنة تَرَمَّلَتْ في عِزّ شبابها.

وانْقَطَع وصْلُ بَحْر الميناء بالقلعة بعد أنْ ظلاّ قروناً رفيقَيْن مُتَلازِمَيْن: يَبُثُّها شُجونَه وتَبُثُّه شجونَها، ويُؤْنِسُها بأحاديث ذكرياته وتُؤْنِسُه بأحاديث وقائعها، وتَبْتَرِدُ بمياهه الْحانِيَة ويُلْقِي بآخِر مَوْجاته في حِضْنِهَا الحَنون.

وحَزِنت الغزالةُ كما يحزَنُ الجارُ على رحيل جاره ذي الْقُرْبَى الّذي لم يَرَ منه إلاّ المودّةَ والمعروف، ولم تحتملْ صدْمةَ الفراق لرقّة عاطفتها فبكتْ بدموع مَزَجَتْها بالمياه الّتي تَسْتَحِمّ فيها، ووَدّت لو تعودُ إلى صحرائها بعد أنْ أصبحَ الرّصيفُ قَفْراً كالصَّحراء.

وغادرتِ الطّيورُ أوكارَها بعد أنْ كاد غُبارُ الرّمالِ الّتي رُدِمَ بها البحرُ يَخنُقُها، وبَحَثَتْ عن مجال آخر نظيفٍ تستنشق هواءَه المنعشَ وتُباشِرُ فيه استعراضاتِها البديعة.

واصْفَرَّتْ أوراقُ الأشجار وذَبَلَتْ، وغطّى بعضَها الرّملُ فماتَت، وأضْرَبَ النّخلُ عن تمشيط جدائله وتمَايُلِ جُذُوعِه كَأنّه بذلك يُعْلِنُ حِدادَه على الرّصيف الرّاحل الّذي كان له حارساً.

وبعد:

فمعذرةً إنْ أنا تجاوَزْتُ الحدَّ في وصف رصيف طرابلس الرّاحِل، وناجَيْتُه كما يُناجِي الحبيبُ طيْفَ حبيبه الّذي اخْتَطَفَه الموت، فقد يَعْشَق المرْءُ

الأمكنةَ ويَتَتَيَّمُ بحُبِّ الدّيار، وقد تحدُث بينه وبين الأشياء مِنْ حَوْله علاقةٌ من الوُدّ والصُّحْبَة والرُّفْقة تتضاءَل بجانبها العلاقةُ بين البشر.

ورصيفُ طرابلسَ المأسوفُ على جماله الذّاهب، من خير الشّواهد على ذلك، فقد اكْتَحَلَتْ به أعْيُننا منذُ نُعومَة أظفارنا، ورَافَقَنا في كلّ مراحل عمرنا وأطوار نُمُوِّنا، وحَفِظَ لنا ذِكْرَياتٍ هي من أعَزِّ ما نَحتفِظُ به في سِجِلّ ماضينا، وارْتَسَمَتْ صورتُه في وِجداننا كما ترتَسِمُ صورةُ الأمِّ في قلوب أبنائها البارّين بها.

فلا أقلّ من حَسْرَةٍ حارّةٍ نُطْلِقُها من الحشا نُعَبِّرُ بها عن لَوْعَة فِراقه، وكلمةِ تأبينٍ نُوَدِّعُه بها في يوم وفاته، ووَقْفَةِ وَفاءٍ نُنْصِفُه بها وقد دَخَلَ في عِداد الغابرين.

فِـرْقـــة

زَفَّ مُقَدِّمُ الحفلة البشرى إلى الحاضرين بأنَّ البرنامجَ يتضمَّنُ مُفاجأةً سارّةً سيُعْلَن عنها في حينها. ولعلّه أراد بهذا التّقديم الْمُبَكِّر للمُفاجَأة أنْ يَحْرِقَ الحاضرين على نارٍ هادئة من الشّوْق إليها، أو يتطوَّعَ بدعايةٍ لأصحابها تفتحُ لهم أبواب الشُّهْرَة والذُّيوع.

وانتظر الحاضرون المفاجأة بفارغ الصّبر كما يقولون، وتوقّع كثيرون أنْ تكونَ مستوًى رفيعاً من الفنّ يَنْتَشِله من الهُوَّة الْمُتَرَدِّي فيها، أو لوناً جديداً من الطَّرَب الْمُبَاح يُمْتِعُ النّاسَ ويُنْسيهم بعضَ الوقت همومَهم الّتي حاوَلوا أن يَخْلَعوها مع خَلْع مَعاطفهم قبلَ دخولهم القاعة.

وجاء موعدُ المفاجأة، وقدّم لها مذيعُ الحفلة بأنّها نجمٌ وليدٌ يَسْطع لأوّل مرَّة في سماء الفنّ ببلادنا، ودمٌ جديدٌ يتدفّق بأوّل دَفْعَةٍ في عُروق أغْنِيَّتنا، ولونٌ مُتَطَوِّرٌ يَقْفِزُ قَفَزاتٍ عِمْلاقةً بموسيقانا. إنّها فِرقة «......»، بقيادة الشّابّ الموهوب الْمُبْدِع، والمطرب العاطفيّ الصّاعد، والموسيقيّ العبقريّ المُجدِّد، والْعَنْدَليب الصَّدّاح السّاحِر: فلان ابن فلان..

ويظهر أنّ الحاضرين وَثِقوا بكلام مُذيع الحفلة وحَمَلوه مَحْمَلَ الجِدّ،

ولم يخْطُرْ ببالهم لحسن نيّتهم أنّها مُبالَغَةٌ هي أخْبثُ من الكذب، لذلك لم يَبْخَلُوا بتصفيق حادّ يستقبلون به النّجمَ الوليد الّذي يسطَعُ لأوّلِ مرّةٍ في سماء الفنّ ببلادهم، ويُحَيُّون الشّابَّ الفنّانَ الْمُبدع والمطربَ العاطفيَّ الصّاعدَ بما يليق بأوصافه الّتي قيلت فيه من التّرْحاب والتّشجيع.

وانْفَرَجَتِ السِّتارةُ عن فرقة موسيقيّة محدودة العدد، شُعورُ أفرادِها طويلةٌ مُسْتَرْخِيَةٌ كشُعور الفتيات الْمُتَبَرِّجات، وتتدلّى من رَقَبة كلّ واحد منهم سلسلةٌ ذَهَبيّةٌ تلْمَع عند انعكاس الضّوء عليها لَمَعاناً خافتاً، وتكسو وجوهَهم حُمْرَةٌ أغْلَبُ الظّنّ أنّها حُمْرَةُ تَزَاوينَ لا حُمْرَةُ خَجَلٍ وحَياء، ويَرْتَدُون أثواباً مُبْتَذَلَةً غريبةَ الطِّراز غيرَ مُنْسَجِمَةِ الألوان، وهي أشْبَهُ بالأثواب القديمة الْمُهَلْهَلَة الّتي تباع في سوق «التِّرْكَة» للفقراء وضِعاف الحال، وقد رُوعِيَتْ فيها الفوضى والخروجُ عن المعتاد بقصدٍ ظاهرٍ وابْتذالٍ مُتَعَمَّد.

وبعد أنْ حَيَّى أفرادُ الفرقة الجمهورَ بركوعٍ ورفْعٍ منه عِدَّةَ مرّات، بدأوا يَهُزّون أوساطَهم في حركاتٍ مُلْتَوِيَةٍ رتيبةٍ كتلك الحركات الّتي «يُسَخِّنُ» بها لاعبُ كرة القدم الاحتياطيّ قبلَ أنْ يُدْفَع به إلى الميدان، ويَعْبَثون بلَمَساتٍ خفيفةٍ من أصابعهم على آلاتهم لِيَشُدّوا أوْتارها ويَضْبِطوا إيقاعَها ويُحْدِثوا التّناغُمَ بينها. ثمّ دخَلَ شابٌّ يتكسَّرُ في مِشْيَتِه كما تتكسَّرُ الْغانيةُ المغرورةُ بفتنتها، ويلبَسُ قميصاً فَضْفاضاً واسعَ الْكُمَّيْن ذَا بريقٍ يخْطَفُ الأبصار، ويُشْبِهُ إلى حدٍّ بعيدٍ «قَمِجَّة الْعَدَس» الّتي يرتديها نساؤنا في الأفراح، وكان شَعْرُه أطْوَل من شَعْر زملائه وأكثرَ استرخاءً واهتماماً بشأنه، وكانت حمرةُ وجهه مُتَمَيِّزةً وخاصّةً على شَفَتَيْه حتّى لكأنّه وَضَعَ عليهما ما يُقَالُ له «أحْمر الشِّفاه»، وكان يعتَلِي كَعْباً عالِياً، ربّما اتّخَذَه لِيُطيلَ قليلاً من قامته القصيرة. وكان مَظْهَرُه عموماً يُنْبِىء بأنّه يَتَشَبَّهُ بالنّساء، ويُحاوِلُ جاهِداً قَطْعَ صِلَتِه بالرُّجولة في

كلّ شيء، حتّى في نظرات عينيه، وطريقة الْتِفاته، وشَكْل ابتسامته، وحركةِ إزاحة خُصَل شعْرِه الطّويل عن وجهه.

ووقفَ الشّابُّ يتَثَنّى خَلْفَ مُكَبِّر الصّوت، وحَيَّـى الجمهورَ بقُبُلات طَبَعَها على رُؤوس أصابع يديه، ثمّ قَذَفَها إليهم وهو يَهُزّ ويتراقَصُ ويكاد يَذُوبُ مُيوعَة.

وبإشارةٍ من الشّابّ الشّبيه بالرّجل، بدأَ صاحبُ الإيقاع في الفرقة يضرِبُ على آلته بعُنفٍ وسُرعةٍ وتَشنُّج، وتلَتْهُ الفرقةُ بالخَبْط القويّ على الآلات الموسيقيّة، فتكَوَّنَ بذلك ضجيجٌ مُزْعِجٌ اخْتَرَقَ الآذان، ثمّ أخَذَ أفرادُ الفرقة يترنَّحون على إيقاع ضجيجهم كأنّهم سُكَارى مُسْتَغْرِقون في حالة انتشاءٍ قُصْوَى، وخرجَتْ من الشّابّ الشّبيهِ بالرّجل حَشْرَجَةٌ خَشِنَة كصوت الأُسْطُوانَة القديمة الْمَشْرُوخة، مَا لَبِثَتْ أنِ ارتفعَتْ إلى طَبَقَةٍ لا نَعْهَدُها في طَبَقات الصّوت المعروفة، وصارتْ زَعيقاً لم نَسْتَبِنْ منه كلمة، ولم نُمَيِّزْ فيه نَغْمَة، ولم نَعْرِف له «مَقاماً». وكان مع زَعيقه يَعْتَصِرُ وَيَتَلوَّى وَيَضْغَطُ بيديه على خِصْره وبطنه كأنّما هو مُصابٌ بمَغْصٍ يُمزِّقُ أمعاءَه. وكان بين الحين والآخر يَنِطُّ ويَقْفِزُ ويرفَعُ رأسَه ويديه إلى أعلَى كأنّه يبحثُ عن شيء يريد أنْ يتعلّقَ به في الهواء.

ثمّ اشتَدّتْ به الحالة، وصار يَذْرَعُ خَشَبَةَ المسرح في انفعالٍ وعُنفٍ كأنّه ثوْرٌ هائج، ويرْتَعِشُ ويَخُضُّ كالّذي يَتَخَبَّطُه الشّيطَانُ من الْمَسّ، ويَصْعَقُ بصَعقات كتلك الّتي تَصْدُرُ عن المصروع.

وارتفعتْ حرارةُ أفرادِ الفرقة، فأضافوا إلى التّرنُّح بأجسامهم الْهَزَّ برؤوسهم في قُوَّةٍ يميناً وشِمالاً، مع صيحاتٍ عالية مُبْهَمَةٍ تجعلُ حالهم كحال من «يَجْذِبون» في «حَضْرةٍ» حامِيَةٍ بالدُّفوف عَبِقَةٍ بالْبُخور. واخْتَلَطَ زعيقُ

الشّابِّ بصياح الفرقة وضجيج الآلات، وتكوّنتْ أصواتٌ مُتداخِلَةٌ نَشَازٌ كالّتي نسمعها عند مرورنا بسوق «الْقِزْدَارَة» بطرابلس في عُنفوان نشاطه.

وكانت أضواءُ المسرح تتراقصُ بسرعة كأنّما انتقلتْ إليها عَدْوَى الفرقة فأخَذَتْها «الْحَمْلَة» هي أيضاً وهامَتْ مع الهائمين.

ولم تكتفِ الفرقةُ بتقديم أغنيّتيْن كما هو مُقَرَّرٌ لها في برنامَج الحفلة، فزادتْ ثالثةً ورابعة، وأُقْفِلَتْ عليها السّتارةُ وهي في الخامسة، إنْ صحَّ أنْ يُسَمَّى ما قدّمَتْه غِناءً، فكانت بهذا البُرود مِثْلَ «غَيّاط جِرْبَة» الّذي قيل إنّهم أجَّرُوه للْعَزْفِ بِبَيْضَة، ولم يتوقّفْ حتّى أسْكتُوه بجمَل.

وشَعَرْنا بهدوءٍ كالّذي يعقُبُ دَوِيَّ المدافع في ميدان القتال، أو كالّذي يعقُبُ عاصِفةً هوجاءَ تَقْصِفُ بالرُّعود وتُرْسِلُ بالصّواعق، واستراحَتْ آذانُنا من الصَّخَب الّذي كاد يُصِمُّها، وأعصابُنا من التّوتُّر الّذي كادَ يُتْلِفُها، ولم يَصْدُرْ من الحاضرين سوى تصفيقٍ خافِتٍ ضعيف من بعضهم دفَعَتْهم إليه المجاملة، حيث لم يروا في النّجم الوليد الّذي قيل إنّه يَسْطَعُ لأوّل مرّة في سماء الفنّ ببلادهم إلاّ سحابةً مُشَبَّعَةً بالفجور الأوروبيّ تُلَوِّثُ سماءَ فَنِّهم، وتُفْسِدُ أذواقَهم، وتُدَمِّر أخلاقَهم.

وفجأةً خرج الشّابُّ الشّبيهُ بالرّجل بعد إقفال السّتارة، فغَشِيَ الحاضرين غَمٌّ واعتراهم كَرْب، وخَشُوا ألاّ يكونَ «غَيّاط جِرْبَة» قد اكْتَفَى بجَمَلٍ لإسكاته، فرجَعَ لمُواصلة الضّجيج وتحطيم البقيّة الباقية من الأعصاب، وكانوا مُستعدِّين أنْ يُرْضُوه بقطيعٍ من الإبل على ألاّ يعودَ إليهم. ولكن تبيَّنَ أنّ الشّابَّ الفتاةَ خرجَ ليقولَ كلمةً يشكرُ فيها الحاضرين على حسن استقبالهم الفرقة وتشجيعِهم لها، ويَعِدُهم باستمرارِ الفرقة في أداء رسالتها الفنّيّة وإمتاع جمهورها الكريم بفنّها الحديث الرّفيع!!.

وكان الشّابُ الفتاةُ يتصنَّعُ التَّخَنُّثَ في كلامه، ويَنْطِقُ الحروفَ بطريقة الْمُمَثِّلات «الْمُدَلَّعات»، فألْغَى مَخْرِجَ الطّاء وجعلَه تاءً، وألْغَى الضّادَ ونَطَقَه دَالاً، واستبدل بالصّاد سيناً وبالذّال زاياً، وحاوَل بكلّ جهده أنْ يُزَوِّرَ شهادةَ آخِرِ الشّهودِ على رجولته وهو خُشونَةُ صوته، فلم يُفْلِحْ في ذلك، وأبَى صوتُه الخَشِنُ أنْ يَلين، ورَفَضَ أنْ يُدْلِيَ بشهادةِ زُورٍ فَيَتَأَنَّثَ وقد خَلَقَه اللّهُ مُذَكَّراً.

وَنَهَضَ الّذي بجانبي مُغْضَباً وانْصَرَفَ وهو يقول: يا لَضَيْعَةِ الفنّ!

ونَهَضْتُ في إثْرِه وانْصَرَفْتُ حزيناً أسِفاً وأنا أقول: يا لَضَيْعَةِ الرّجال.

حزام المدينة

كانت البساتينُ الغنّاءُ تُحيطُ بالمدينة كما يُحيطُ السِّوارُ الجميلُ بِمِعْصَم الحسناء. وكانت تَلْتَفّ عليها كما يَلْتَفّ حِزامٌ أخْضَرُ مُزَرْكَشٌ بألوان الزُّهور على جِيد هَيْفاء. وكانت تُمَثِّلُ الحديقةَ الكبيرةَ الّتي تُضْفِي على المدينة جمالاً مثلما تُضْفِي حديقةُ المنزلِ الصّغيرةُ جمالاً عليه. وكانت تَرْتَسِمُ لَوْحةً طبيعيّةً رائعةً تُلينُ برقّتها قليلاً من جُمود مباني المدينة الهامِدة، وتُرطِّبُ بلُطفها شيئاً من جَفاف الحجارة العابِسَة.

كانت تلك البساتينُ رئةَ المدينة الّتي تتنفَّسُ بها الهواءَ النَّقِيّ. وكانت الْمِرْوَحَةَ الّتي تُلَطِّف بنَسماتها البارِدَةِ حرارةَ فصل الصّيف الْمُلْتَهِبَة. وكانت الحاجزَ الّذي يَصُدّ عنها عواصِفَ الرّمال عندما تَنْفُثُ الصّحراءُ رمالها السّاخِنَة. وكانت المِصْفاةَ الّتي تحْمي جوَّ المدينة من التّلَوُّث كما تَمْنَعُ مِصْفاةُ الزّيتِ أنْ يُداخِلَ الزَّيتَ الأغْيار.

كانت تلك البساتينُ مَعْرِضاً مفتوحاً للجمال الأخّاذ لا يُقْفَلُ في وجه قاصد. وكانت مِهْرجاناً دائماً للرّبيع السّاحر لا تتوقّفُ له حركة. وكانت باقةً كبيرةً تتضَوَّعُ بروائح الفُلّ والْيَاسَمِينِ والورد والنَّرْجِس والْحِنّاء. وكانت مِزْهَرِيّةً أنيقةً ينتَشِرُ منها عَبَقُ أزهارِ الأشجار على مَدار السّنة.

كانت تلك البساتينُ سَلّةً مملوءةً بأصناف الفواكه الطّازَجَة الّتي تلْتَهِمُها العينُ قبلَ أنْ تَلْتَهِمَها الأفْواه. وَتَسْتَمْتِعُ بها حاسّةُ الشّمِّ قبلَ أنْ تستمتِعَ بها حاسّةُ الذّوق.

وكانت بِساطاً مَخْمَليّاً من الخُضْرَوَات الّتي لم يُغَيّرْ لَذَّةَ طَعْمِها الرَّشُّ بالْمُبيدات، وتَحْمِلُ الصّحّةَ والعافيةَ والفائدة لآكليهَا ولا تَحْمِلُ الأمراضَ والآفات.

وكانت تُزَوِّدُ المدينةَ بالفواكه والخُضْرَوات في الموسم الْمُعيَّن لكلّ صنفٍ بلا تأخير، وتُمِدُّها بالكمّيّات الّتي تحتاجُ إليها بلا شُحٍّ ولا تَقْتير، كأنّها بهذا الوفاء مُتَعَهِّدٌ صادقٌ مُلْتَزِمٌ شروطَ الْعَقْدِ ومُتَقَيِّدٌ بمواعيد التّسليم.

وكانت البساتينُ لا تكتفي بإشباع أهل المدينة بالخضروات والفواكه، بل كانت تُشْبِعُ أيضاً أذواقَهم، وتُنَمّي فيهم الإحساسَ بالجمال، فتَنقُلُ إليهم كلَّ صيفٍ باقتَها الكبيرةَ من الأزهار والرّياحين، وتُعَلِّقُ على صدور نسائهم ورؤوسِهنّ عُقودَ الفُلّ وعَراجينَ الياسَمين، لِيَتَباهَيْنَ بها في الأعراس والأفراح، ويَتَحَلَّيْنَ بها في الْمُناسبات السّعيدة واللّيالي المِلاح.

أمّا الرّجالُ فكانت تَخُصُّهم بالْمَشْمُومَة الْمُسْتَدِيرة المنظومة بالفُلِّ والياسمين كأنّها قمرٌ مُرَصَّعٌ بحبّات اللّؤلؤ الأبيض الأصيل. وكان بعضُهم يغْرِسُ المشمومَةَ في طاقِيّته فوقَ إحدى أُذُنَيْهِ لِيُعَبِّرَ بذلك عن الفُتُوَّة أو التّظاهُر بالفُتُوَّة. وكان بعضُهم يُمْسِكُ المَشْمومَةَ يتأمَّلُها في نَشْوَةٍ كأنّه يتغزَّلُ في حُسْنها، وبعضُهم يَلُوكُ طَرَفَها بين أسنانه كأنّه يَسْتَطْعِم جمالَها، وبعضُهم يُديرُها يَمْنَةً ويَسْرَةً كأنّه يُدَاعِبُها، ثمّ يرفَعُها إلى أنفه لِيأخُذَ نَفَساً من عبيرها الْفَوّاح يَرُدُّ به الرُّوحَ الفَارّةَ من لهيب الحرّ ووَطْأَةِ الرُّطوبة الخانِقَة.

وكانت تلك البساتينُ مُتَنَزَّهَ أهلِ المدينة؛ يَخِفُّون إليها كلّما ضَغَطَتْ عليهم الحياةُ بأعبائها الثّقيلة، ويَنْفُضُون فيها تَعَبَهم كلّما أرْهَقَهم الْجَرْيُ الحثيث وراءَ لُقْمَة العيش، ويلْتَمِسون عندَها الرّاحةَ كلّما تَاقتْ أفكارُهم الْمُجْهَدَةُ إلى شيءٍ من الاستجمام، ويَجدون فيها الْمُتْعَةَ كلّما احتاجوا أو احتاجَ أطفالُهم إلى التّرفيه البريء والتَّسْلِيةِ الْمُباحة، ويَنْشُدُون لديْها التّجديدَ والتّغيير كلّما صَدِئَتْ نفوسُهم من مَلَل الرّتابة وقيودِ العمل.

وكان أصحابُ البساتين يفتحون أبوابَهم وقلوبَهم للهاربين من عَنَت المدينة وصَخَبِها وجوِّها المكبوتِ، ويُرحِّبون بهم كما يُرَحِّبون بأهلهم القادمين وذَوي قرابتهم الأَدْنَيْن، ولا يَبْخَلُون عليهم بما حباهم اللّهُ من ظلٍّ ظليل، وهواءٍ عليلٍ، ومنظرٍ جميلٍ، وماءٍ سَلْسَبيل.

وكانت تتخلّلُ الحِزامَ الأخْضرَ المحيطَ بالمدينة مناطِقُ عامّةٌ تكسوها أشجارُ الصَّنَوْبَرِ العالية، يَقْصِدُها الباحثون عن الرّاحة «للزَّرْدَة» بعائلاتهم أو أصدقائهم بلا استئذانٍ من أحد، ولا حَجْزٍ مُسَبَّق من جهة، ولا دَفْعِ رسومٍ أو ثمنِ تذكرة، ولا مُضايَقَةٍ من حَرَس بَلَديٍّ أو حَرَسِ غابات، ولا إزعاج من العابثين ولاَ مُراقَبَةٍ من أهل الفُضول.

وكان الّذين «يتزَرَّدُون» في البساتين أو المناطق المفتوحة العامّة، يَقْضون أوقاتاً مُفْعَمَةً بالْبَهْجَة في أحضان الخُضْرَة والجمال، ويُصَفُّون بالهواء النّقيّ ما عَلِقَ برئاتهم من أدْخِنَة المدينة وغُبارها وروائحها الكريهة، ويتخلّصون بالتَّعرُّض لِأشِعَّة الشّمس من بعض الرُّطوبَة الْمُعَتَّقَةِ الّتي تسكُنُ عِظامَهم مِنْ قبلِ أنْ تَلِدَهم أُمّهاتُهم، ثمّ يعودون إلى بيوتهم وقد غَسَلَتِ «الزَّرْدَةُ» بمرحها وسرورها تَعَبَهم، وشَرَحَتْ بنَسَماتها الرّقيقةِ صدورَهم، وبدَّدَتْ بترفيهها وتَسْليتها هُمومَهم، وجَدَّدَتْ بروحها ولُطفها نشاطَهم، فيُقْبلُون بعد ذلك على

أعمالهم وهم يَتَّقِدون حَيَوِيَّة، ويُواجهون صعوباتِ الحياةِ وهم أكثرُ إصراراً على تَحدِّيها.

ثمّ حَدَثَ ما حَدَث، وهَبَّت الزَّوْبَعَةُ العارِمَةُ الّتي نَسَفَتْ مَعْرِضَ الجمال المفتوحَ لكلِّ أحدٍ على مَدار السَّنَة، وقَوَّضَتْ مَهْرَجانَ الرّبيع الدّائم الّذي كان لا يتوقَّفُ له موسم، واقْتَلَعَتْ جُذورَ أشجارِ الحديقة الكبيرة الّتي كانت تُخَفِّفُ من كآبة الحياة في المدينة، وحَطَّمتْ لَوْحَةَ المنظر الطّبيعيّ الباهر الّذي كان يُمْتِعُ الأعْيُنَ والنّفوس، ووقَعَتِ الجريمةُ الْمُنْكَرَةُ الّتي لم يشهَدْ تاريخُ المدينة أبشَعَ منها ولاَ أبْلَغَ في نيّة التّدمير والتّخريب.

وقصّةُ ذلك أنّ يهوداً تآمَرُوا بالتّعاون مع ذُيولٍ لهم من أهل البلد على البساتين الّتي كانت تكوّنُ حِزاماً أخضرَ يلْتَفُّ حولَ خِصْر المدينة، وحَكَمُوا عليها حُكْماً نافذاً غيرَ قابلٍ للطّعن بالموت البطيء الْمُتَمَهِّل، فمزَّقوا عُروقَها عِرْقاً عِرْقاً، واسْتَلُّوا أعصابَها عَصَباً عَصَباً، وجَفَّفُوا عُصارَتها قَطْرةً قَطْرَة، وخَنَقوا أنفاسَها نفَساً نَفَساً، وَسَقَوْها كأسَ الْمَنون جُرْعَةً جُرْعَة، وأذَاقوها سَكَراتِ الموت ألْفَ مرَّةٍ بدلاً من مرّةٍ واحدة، وذلك بأنّهم أغْرَوْا أهلَها بالمال فابتاعوها منهم، ثمّ أخْلَوْها من سُكّانها وقَطَعوا عنها سَبَبَ حياتها وهو الماء، وحَرَموها الوسيلةَ الّتي تَمْتصُّ بها غِذاءها من عناصر التُّرْبَة.

وقاوَمَت البساتينُ حِصارَ الْعَطَش الشّديدَ مُقاوَمَةَ الْمُصِرِّ الْمُتَعَلِّقِ بأهداب الحياة، وصارعَت الموتَ بكلِّ ما تَدَّخِرُه من مَخزونها الاحتياطيّ، وقَتَّرَتْ على نفسها في امتصاص الرُّطوبة المحتفِظَةِ بها فلم تَسْتَهْلِكْ منها إلاَّ القَدْرَ الضّئيلَ الضّروريَّ الّذي يُبْقِي على الرَّمَق.

ولمّا نَفِدَتْ تلك الرُّطوبة، حاولتْ أن تَسْتَغِيثَ بجيرانها ليتصَدَّقوا عليها ببعض رُطوبتهم، فوجَدتْهم يُعانون من حِصار العطش مثلَ ما تُعاني، ويُقاسُون

من سَكَرات الموت مثلَ ما تُقاسي، وليس حالُهم بأفْضَلَ من حالها.

ومرّتْ على البساتين سنون عجافٌ أَكَلَتِ الأخْضَرَ واليابس، وكانت شديدةً مثلَ سني يوسف، بل كانتْ سنو يوسفَ أَخَفَّ منها قسوةً وأرْحَمَ بالعباد، لأنّها كانت سبعاً شِداداً وسنو البساتين كانت مجهولةَ العِدَّة ممتدَّة الشِّدَّة. وكانتْ سنو يوسفَ عِجافاً بطبيعتها، وفُرِضَتْ على النّاس فَرْضاً لقَحْطِ أصابَهم، وسِنُو البساتين فَرَضَها الإنسانُ بوَعْيه، وتَعَمَّدَها بإرادته، واصْطَنَعَتْها يدُهُ الآثِمةُ مع سَبْق إصراره وتَرَصُّده. وسنو يوسفَ أعْقَبَها فَرَجٌ وأتَى بعدَها عامٌ فيه أُغِيث النّاسُ وفيه عَصَرُوا، وسنو البساتينِ أعْقَبها ضِيقٌ على ضيقها، وأُغِيثَتْ بجَفَافٍ فوقَ جَفافها كما يُغاث الكفّارُ في جهنّمَ بماءٍ كالْمُهْل يَشْوِي الوجوه.

وانهارتْ أخيراً مُقَاوَمَةُ البساتين بعد أنِ اسْتَنْفَدَتْ رُطوبة آخِرِ حبَّةٍ من تُرابها، وامْتَصَّ الْعَطَشُ آخِرَ قَطْرة من العُصارة الّتي في أغصانها. وانتهى عَذابُها بالموت الّذي وافاها بعد طُول انتظار، وأصبحتْ قاعاً صَفْصَفاً تَذْرُوه الرّياحُ كأنْ لم تَغْنَ بالأمس، وصَمَتَ فيها كلُّ شيءٍ كأنْ لم يكنْ بها في يومٍ من الأيّام أنيسٌ ولم يَسْمُرْ في لياليها سامِر.

اسْوَدَّتْ بعدَ اخْضِرارٍ كأنّما أصابَها إعصارٌ فيه نارٌ فاحْتَرَقَت، وتَسَمَّرَتْ أشجارُها الْيابسةُ الْمُنْكَمِشَةُ كأنّها الأشباحُ المُخيفَةُ في المدينة الأُسطوريّة الّتي مُسِخَ فيها كلُّ شيء حَجَراً، وتَشَقَّقَتْ أرضُها أخاديدَ واسعة من شدّة العَطَش كأنّها مُتَصَدِّعَةٌ بفعل زلزال عنيف.

وتهدّمَتْ بيوتُ البساتينِ الْمَبْنيّةُ بطريقة «ضَرْب الباب» كأنّ طائراتٍ قاذفةً أفْرَغَتْ حُمولَتَها من القنابل عليها، وتحوَّلَتْ إلى خِرَبٍ ينْعِقُ فيها الْبُومُ وتَأْوي إليها الكلابُ الضّالَّةُ والمجرمون. والقديمُ الْمُتَهالِكُ منها تعاوَنَ الزّمَنُ

والإهمالُ على دَكّه دَكّاً، وتَرَكه أطلالاً مُوحِشَةً كأطْلال خَوْلَةَ الّتي لاَحَتْ لِطَرَفَةَ بنِ الْعَبْد كباقي الوَشْم في ظاهِر اليد، أو الّتي وقَفَ عندها امرُؤُ القيس يبكي ذِكْرَى حبيبٍ ومنزل.

أمّا آبارُ البساتينِ الْمُدَرَّجةُ الْمُجنَّحَة، فقدْ سَلخَ الإهمالُ جلْدَها كما تَتَسَلَّخُ الشّجرةُ من لِحاها، وبَقِيَتْ هياكلُها العظميّةُ قائمةً كأنّها «شَوَاهِد» منصوبَةٌ على قُبور البساتين الميّتة، وانْتَصَبَتْ فيها «الكِرّيوَة» مُتَشَبِّثَةً بوضعها بين الجناحيْن، صامتةً إلى الأبد عن صوتها النّاعم الرّقيق الّذي كانت تُرَدِّدُه في الْهَزِيع الأخيرِ من اللّيل، عندما كانتْ تدورُ لإخراج الماء من البئر، كأنّها كانت تتَسَلّى بهذا الصّوت من ضَجَرِ السَّهَر، وتَطْرُدُ به غَلَبَةَ النُّعاس عن عيني «الجبّاد»، وعَيْنَيْ بقَرتِه المنهوكة بثِقَل الدَّلْو والحِبال وتَعَب الْهُبوط والصُّعُود في «الْمَجَرّ» الطّويل.

ولم تنْجُ الْجابيةُ الْمُسْتَلْقِيَة بجانِب البئر من آثار الغارة الْمُدَمِّرَة، فَتَسَلّختْ كما تَسَلَّخَتْ جارتُها، وتصدَّعَتْ كما تصدَّعَتْ الأرضُ الميّتةُ من حولها، وصارتْ كقَصْعَة الأُسرة الفقيرة الّتي نَهَشَ الزَّمَنُ حَوَافَّها، وفَلَقَ طُولُ الاستعمالِ جُدْرانَها، وتآكَلَ مِنْ كثرة اللّحْسِ خَشَبُها.

وهكذا تَمَّ تنفيذُ المؤامرة الخسيسةِ الخبيثة كما خطَّطَ لها الخُبَثاءُ الآثمون من اليهود وذُيولهم، واستعَدُّوا بعد ذلك إلى الخطوة التّالية، وهي نَزْعُ الصّفة الزّراعيّة عن البساتين الميّتة.

وقد تسأل: كيف يسعَوْن إلى نزع الصّفة الزّراعيّة عن البساتين الميّتة وقد انْتُزِعَتْ منها روحُها وسُلِبَتْ منها حياتُها؟ وماذا بعد الموت من صفة، وماذا بعد نزع الرّوح من نزع؟

والجوابُ أنَّ المقصودَ نَزْعُ الصّفة الزّراعيّة رسميّاً باستصدار شهادةِ وفاةٍ من الجهة الْمُخْتَصَّة تُثْبِتُ انتقالَ المرحومة من عالَم الحياة والنّماء إِلى عالَمِ الموت والْبَوار، وأنّها بذلك قَابلةٌ للتّقسيم، صالحةٌ للبناء.

ولم يجد اليهودُ وذيولُهم صعوبةً في اجتياز هذه الخطوة، ذلك أنّ وباءَ الرِّشْوَة كان قد بدأَ ينتشِرُ كما ينتشِرُ الطّاعون، وكانت البلادُ نظيفةً من قذارته سليمةً من بلائه، إِلى أنْ دخلَتْ جُرثومتُه اللّعينةُ من خارج الحدود عن طريق بعض الوافدين الّذين يَحمِلون الجُرثومةَ في دمهم. وسُرْعانَ ما انْتَقَلَتِ العدْوَى إِلى بعض أبناء الوطن، ووجَدَتِ الْجُرثومةُ جَوَّ الاستقرار المُناسِبَ في نفوس ذوي المناعة الأخلاقيّة الضّعيفة.

وبالرِّشوة نفسِها سَهُل على الخُبثاء تقسيمُ الأراضي والْمُوافقةُ على تخطيطها إِلى شوارعَ وقِطَع بناء. وما هي إِلاّ بضعةُ أشهر حتّى بيعَتِ التّقسيمات، وانْهَمَرَت الأموالُ على اليهود وذيولهم كما يَنْهَمِرُ المطر، وأَثْرَوْا ثراءً فاحِشاً من وراء البساتين الّتي قتلوها، وبدأَتِ الجرّاراتُ والجرّافاتُ تَعْمَلُ ليلَ نهارَ في إزالة أشباح الأشجار وأنقاض البيوت وبواقي الآبار والْجَوابي، ولم تَمْضِ سنواتٌ حتّى غُطِّيَتِ الأرضُ الّتي كانت بساتينَ بِعُلَب الحجارة الكبيرة، ورُصَّتْ بقَوَالِب الطّوب المُكَعَّبَة، وسَمَّوْا ذلك «فِلَلاً» وعمارات.

وأُسْدِلَ السِّتارُ على نهايةِ المأساة، واخْتَفَى إِلى الأبد الْمَخْزنُ الغَنِيُّ الّذي كان يُزَوِّدُ المدينة بالخيرات، وتحطَّمَتْ سلّةُ فاكهتها، وتكسَّرَ طبَقُ خُضْرَوَاتها، وتلاشَت باقَةُ أزهارها، وبُتِرَتْ رئَتُها الّتي كانت تتنفّسُ بها، وتعطَّلَتْ مِرْوَحَتُها الّتي كانتْ تُرَطِّبُ بها جوَّها، وتمَزَّقَ حِزامُها الأخضرُ تحتَ وطْأةِ آلاف الأطنان من الحجَر والرَّمْل والإسْمَنت والحديد، وتكوّنَتِ الصّناديقُ الكبيرةُ الجاثِمَةُ على الأرض كالْهَمّ الثّقيل، وأَضْفَتْ على المدينة قَسْوَةً وغِلْظةً، وزادَتْ وجهَها تَجَهُّماً وعُبوساً، وأَوْرَثَتْها أمراضاً لم تكنْ معهودةً فيها في زمن البساتين طَيِّبَةِ الذِّكْر.

«سونيا» الصّغيرة

كان فلانٌ «فُوطَةً» لأحدِ اليهود الأغنياء، مَسَحَ فيها اليهودِيُّ وَسَخَ يديْه الْمُتَجَمِّعَ من صَفَقاته الْمُرِيبَة، ولَطَّخَها بدم جريمة اغتيال الحِزام الأخضر الّتي كان أحدَ أفراد عِصابَتِها، واسْتَعْمَلَها لتغطية وجهه الاسْتِغلالَيّ الْبَشِعِ والتَّسَتُّرِ على عمليّات سَرِقاته الّتي كانت تحدُثُ في وَضَح النّهار.

ولمّا تراكَمَ على «الفُوطة» الْوَسَخُ حتّى لم يَبْقَ فيها مَوْضِعٌ نظيفٌ صالِحٌ لِلْمَسْح، وتَشَبَّعَتْ بالرّائحة النَّتِنَةِ حتّى لم يَعُدِ اليهوديُّ مُطيقاً تغطيةَ وجهِه بها، رماها في اشْمِئْزاز، ونَبَذَها في احْتِقارٍ، واسْتعملَ غيرَها ثُمَّ غيرَها من «الْفُوَطِ» الّتي كانت تُرَفْرِفُ على بابه عارِضَةً نفسَها لوظيفة التّشْويه.

وكان اليهوديّ يُكافىء «الفُوَط» الّتي يستعملُها مُكافأةً سَخِيّةً مُقابِلَ عُبوديّتها له وإخلاصها في خدمته، وكان فلانٌ أوْفَرَ «الْفُوَطِ» حَظّاً من المكافأة، لأنّه كان «فُوطَةً» تتمتَّعُ بصَفَاقَة نادِرَةٍ في نَسيجها، ولُيُونَةٍ عجيبةٍ في مَلْمَسِها، وقُدْرةٍ كبيرةٍ على تَحَمُّل كلّ أنواع الْوَساخة من رَطْبٍ ويابِس وسائل وجامد وخَفيف وغَليظ.

وبعد أنِ استقلَّ فلانٌ عن اليهوديّ ـ وقد تعلَّمَ منه أصولَ السَّمْسَرَة

وأسرارَ السَّرقة وألاعيبَ السّوق ـ، اشْتَغَلَ «فُوطَةً» لنفسه، فأثْرَى ثراءً فاحِشاً قَفَزَ به إلى مكان الصّدارة لأصحاب الأعمال الكبار الّذين يَمْلِكون الشّركاتِ والمصانعَ والعماراتِ والأراضيَ والسّنداتِ والأسْهُمَ والأرصدة الضّخمةَ في مصارف البلاد وخارجها.

وأوّلُ ما فكّر فيه فلانٌ عندما هَبَط عليه المالُ كالوابلِ الْغَزير، وتدفّقَتْ عليه الثّروةُ كالشّلاّل الهادر، أنْ يَسْلَخَ جِلْدَه القديم، ويُغَيِّرَ نَمَطَ حياتِه السّابق، ويُعَدّلَ من عاداته الموروثة، ويُبَدِّلَ شكْلَ مَظهره لِيتناسَبَ مع وضعه الجديد، ويُعيدَ نِظامَ ما حَوْلَه لِيليقَ بمركزه كوجهٍ بارز من وجوه المال والأعمال.

وبدأ بخَلْع «الْجَرْد» الّذي كان لا يَنْزِلُ طَرَفُه عن رأسه، وارْتَدَى أرْقَى الْبِذَلِ الأوروبيّة الأنيقة، واقْتَنَى أغْلَى «رباطات» العُنُق الحريريّة، ولَبِس القمصان المُشَجَّرَةَ والمُلَوَّنَةَ الفاخِرة، واسْتَعملَ «الغليون» يتلاعَبُ به بين أسنانه كما يفعل أصحابُ الأعمال الأثرياءُ الأوروبيّون.

وبَنَى قصراً كبيراً على أحدث طراز في البناء، ولم ينسَ أنْ يُخَصِّصَ فيه رُكناً لـ «الْبَار» لِيَتَبادلَ فيه كؤوسَ الأنْخَاب على شَرَف ضُيوفه الأجانب، وأَثَّثَ القصرَ بأبْهَى الأثاث الْمُسْتَوْرَد، وجَمَّلَه بأروعِ اللَّوْحات والتّماثيل.

وتَرَكَ عادةَ الأكل على الأرض إلى عادة الأكل على المِنْضَدَة كما هو شأنُ الْفِرِنْجَة، مُسْتَعْمِلاً مِثْلَهم السِّكّينَ والشَّوْكَة، ومُتناوِلاً اللُّقْمَةَ بيده اليُسْرَى كما يتناوَلون، بَدَلاً من اليُمْنَى كما هي عادةُ القوم الّذين كان منهم.

وهكذا شَمِلَ التّغييرُ كلّ شيء في حياته، وحاوَل أنْ يَقْطَعَ صِلَتَه بكلّ ما يُذَكِّرُه بماضيه، حتّى ضِحْكتُه أصبحتْ مُجَلْجِلَةً يَنْتَفِضُ لها كلُّ جسمه كما يَصْنَعُ المنتفخون بالمال، وحتّى كلامُه بدأ يُطَعِّمُه بألفاظٍ إيطاليّة تعلَّمها في أثناء

اشتغاله «فُوطةً» لليهوديّ، وبِرَطَانَاتٍ أخرى الْتَقَطَها في سَفَراته الكثيرة إلى أوروبا. إلاّ أنّ أمراً واحداً كان يتمنّى أن يكونَ على رأس قائمة التّغيير، وأهمَّ بَنْدٍ في لائحة حياته الجديدة، لكنّ شجاعتَه خانَتْه فلم يستطعْ أنْ يُحَقِّق ما كان يتمنّاه، والْخَوفَ من العواقب كَبَّلَهُ فلم يَقْدِرْ على اقتحام العَقبة.

كان يتوق بشوقٍ ولَهْفَة إلى تغيير عَتَبَةِ بابه[1]، وكان يَدْفَعُه إلى هذه الرّغبة في التّغيير ثلاثة أسباب:

الأوّل: رجاؤه أنْ يَرْزُقَه اللّهُ بالزّواج الجديد ولَداً تَقَرُّ به عينُه، وتَبْرُدُ به كَبِدُه الْمُتَحَرِّقَةُ للنّسْل.

الثّاني: أنْ يسْتَبْدِلَ بخُبْزِهِ الْبائِتِ الّذي مَلَّ مَضْغَه، وأصبح لا يستسيغُ مَذَاقَه، خُبْزاً ساخِناً طَرِيّاً تَشْتَهِيه نفسُه، ويَلَذّ له طَعْمُه، ويَزْدَرِدُه بُلْعومُه ازْدِرَاداً.

الثّالث: حاجتُه في وضْعه الجديد إلى زوجةٍ شابّة جميلةٍ «تَسْتُرُه» أمامَ «الأجانب» وتعرِفُ كيف تُجامِلُهم وتُلاطِفُهم وتَمُدُّ إليهم يدَها الرَّخْصَةَ لتقبيلها، وتُحْسِنُ الكَشْفَ عن ظهرها الْبَضّ وصدرها الْمُكْتَنِزِ في حَفَلات الاستقبال والسَّهَرات والرّقص، كما رأى زوجاتِ أصحاب الأعمال في أوروبا يَفْعَلْنَ.

---

(1) «عَتبة بابه» كناية عن زوجته. وقد اقْتَبَسْتُ هذه الكناية من كلام نُسِبَ إلى إبراهيم الخليل عليه السّلام، فقد جاء في بعض كتب السِّيَر أنّه جاء مكّة ليزور ابنه إسماعيل عليه السّلام. وقَصَد بيته فلم يجده لأنّه كان متغيِّباً في الصَّيْد، ووجَد زوجته الّتي طلب منها إبراهيم طعاماً وشراباً، فردّتْ عليه بجفاء، وادّعت بأنّها لا تملك شيئاً تقدّمه إليه، فقال لها إبراهيم: إذا جاء زوجك فأَقْرِئيه السّلام، وقُولي له فَلْيُغَيِّرْ عَتَبَةَ بابه. ولمّا رجع إسماعيل قصّت عليه زوجتُه ما حدث، ونَقَلَتْ إليه ما قاله إبراهيم. ومن وصفها للشّيخ الزّائر أدرك إسماعيلُ أنّه أبوه، وأنّه يقصد بقوله «فليغيّر عتبة بابه» تطليق زوجته الّتي أساءت استقباله، والزّواجَ بأخرى تعرف قدر أبيه. وكذلك فعل إسماعيل.

قلنا: لم يجدِ الشّجاعةَ على هذا التَّغيير الّذي كان يتمنّاه، لأنّ زوجته هي بنتُ عمّه، وطَلاقُها والزّواجُ من أخرى يُحْدِثُ في العائلة شَرْخاً خطيراً يَجُرُّ عليه مصائبَ وكوارثَ هو في غِنىً عنها، لذلك اكتفَى مُرْغَماً بترميم عَتَبة بابه القديمةِ يُصْلِحُ شيئاً ممّا خرَّبته السّنون فيها، وبتسخين خبزه البائت عسى أنْ تَنْبَعِثَ فيه حرارةٌ تُغَيِّر طَعْمَه قليلاً، وتُشجِّعُ بُلْعُومَه على سَوْغه وازْدراده.

وسارت عمليّةُ التّرميم سهلةً لا يعترضها عائق، فشَعْرُ الزّوجةِ المنتوفُ أمْكَنَ تغطيةُ عيوبه بأنواع «الباروكات» الجميلة ذات الألوان والأحجام والأشكال المختلفة. و«الرّداء» و«القمّجة» و«التّستمال» و«المريول» وغيرها، اسْتُبْدِلَ بها في ساعة واحدة أحْدَثُ الأزياء وأفخرُ الفساتين وأحسنُ الملابس الدّاخليّة.

بَقِيَ شيءٌ واحدٌ عطَّل عمليّةَ التّرميم في عَتَبَة الباب وشَغَل بالَ فلان، وهو الْوَشْمَةُ اللّعينةُ الّتي تقف كالنّخلة تحت شَفَة الزّوجة السُّفْلى، وتَنْتَصِبُ على رأس ذَقَنِها كالأسطوانة الأثريّة الزّرقاء الّتي فَرَضَ الزّمنُ حُزُوزاً على سطحها كأسنان المِنشار.

وكان الّذي يُزْعِجُ فلاناً في هذه الْوَشْمَة أنّها شاهدٌ غيرُ مرغوب فيه يتطَوَّعُ بالشّهادة على عهد زوجته القديم وحياته السّابقة الّتي يريدُ أنْ ينساها، ويَطْمِسَ كلَّ المعالِم والشّواهد الّتي تدُلّ عليها وتُذَكِّرُه بها. كما يخشَى أنْ تُسَبِّبَ له هذه الْوَشْمَةُ حَرَجاً شديداً أمامَ ضيوفه الأجانب الّذين يُهَيِّىءُ زوجتَه لاستقبالهم بعد إدخال الإصلاحات اللاّزمة عليها.

واستشار أحدَ أصدقائه اليهود في هذه الْمُعْضِلة، لأنّه كان يثِقُ باليهود ويَأْتَمِنُهم ويُقدِّمُهم على أهله وبني جلدته، فهَوَّنَ عليه الصَّديقُ اليهوديُّ الأمر، وطَمْأَنه بأنّ عمليّةً جراحيّة تجميليّةً في سويسرا كفيلةٌ بإزالة هذه الْوَشْمَة

الْوَصْمَة، واجْتِثاث النّخلة من جذورها، وتحطيم الأسطوانة الأثريّة من أساسها.

وهذا ما حَدَث، فتخلَّصَتِ الزّوجةُ من وَشْمَتها بدون أنْ تَتْرُكَ وراءَها أثَراً، وتخلّصَ فلانٌ من عُقْدَتها، واستراحَ من همّها الّذي كان يَجْثُم على صدره.

وكانت الزّوجةُ تَقْطُر طِيبَةً وبراءَة، مُتَواضِعةً لم يَشْمُخْ لها أنف، قَنوعاً لم يَفْتِن الثّراءُ قَلْبَها، حَيِيَّةً تَخْجَلُ من الْعَبَث الّذي يَفْرِضُه فلانٌ عليها، ولكنّها كانت ضعيفةَ الشّخصيّة أمامَه؛ يأمُرُها فتَأْتَمِر، وينْهاها فتَنْتَهِي، وتسيرُ وراءَه في طاعة عمياءَ كالبهيمة، وهو شأنُ مُعْظَمِ الزّوجات من نساء جيلها.

وأَهمُّ تغيير في نظر فلان طَرَأَ على حياته الجديدة، ارتباطُه بـ«سونيا»؛ وهي صغيرةٌ كلُّ ما فيها جميلٌ يفتَحُ القلوبَ لحبّها: وجْهُها اللّطيفُ الْمُسْتدِيرُ النّاطقُ بالصَّفاء، وعيناها الزّرقاوان اللاّمِعَتان ببريق الذَّكاء، وشَعْرُها النّاعِمُ الْمُتَمَوِّجُ الْمُسْتَرْسِلُ كخُصَلِ الحرير، وخِفَّةُ ظِلّها الّتي تَجْذِب إليها النّفوسَ جَذْباً قويّاً.

أحبَّ فلانٌ «سونيا» حُبّاً مَلَكَ عليه أقطارَ نفسِه، ربّما كان السّببُ في هذا الحبّ الجارف أنّه رأى فيها العِوَضَ عن الولد الّذي لم تكْتَحِلْ عيناه برؤيته، وأنّها مَلأَتْ فراغَ قلبه الّذي حَرَمَتْه الأقدارُ أنْ يملأه بفِلْذَةٍ من كَبِدِه.

كان لا يُطيق فِراقَها، ولا ينام إلاّ إذا كانت في حِضْنه تَسْتَدْفِىءُ بغطائه، ولا يفتح عينيْه في الصّباح إلاّ على رؤية مُحيّاها، ولا ترُوقُ له في قصره جَلْسَةٌ إلاّ إذا كانت قابِعةً أمامَه تنظُر إليه ويَبْتَسِمُ لها.

وخَصَّصَ فلانٌ لـ«سونيا» جناحاً في القصر يتكوَّنُ من غرفة لنومها،

وغرفة لألعابها وزينتها، وغرفة لأكْلها، وحمّام أنيق لقضاء حاجتها واغتسالها. وتقومُ بتنظيف الجناح وتَهْوِيَتِهِ وترتيبِ محتوياته يوميّاً زوجةُ عاملِ حديقةِ القصر الّتي تسكُنُ هي وزوجُها وأولادُها الأربعةُ غرفةً في ركن من أركان الحديقة. وكانت هذه الغرفةُ الصّغيرة تؤدّي كلّ الأغراض، فهي غرفةُ نومهم، وغرفةُ طعامهم، وغرفةُ جلوسهم، وغرفةُ استقبال ضيوفهم، وغرفةُ خزينهم، ولهم فيها مَآرِبُ أخرى.

ولـ«سونيا» مُرَبِّيةٌ خاصّةٌ اسْتَوْرَدَها فلانٌ من أوروبا لِتَهْتَمّ بتربية «سونيا» ورعايتها وتدبير كلّ شؤونها والسَّهَر على راحتها. قيل: إنّ هذه المربّية تحملُ شهادة تخصُّصٍ عاليةٍ في تربية أمثال «سونيا» على أُسُس تربويّة حديثة، وطُرُقٍ علميّة مُتَطَوِّرَةٍ يَجْهَلُها أمثالُنا من المتخلّفين عن الرّكْب الأوروبيّ!. وقيل - والْعُهْدَة على الرّاوي -: إنّها لا تحمل شهادة، ولكنّها تحملُ «ما يُعَادِلُها» وذلك على مستوى رفيع، وبأدقّ المواصَفات العالَميّة المطلوبة في الْمُؤَهِّل: «ما يُعادِلُها».

وتتقاضَى المربّيةُ مرتّباً شهريّاً يُساوِي خمسة أضعاف ما يتقاضاه عاملُ الحديقة وزوجتُه معاً في شهر، وذلك غيرُ السّكن المجاني، والأكل المجانيّ، وعلاوة الغُربة والانزعاج، وبدَل اللّباس، وبَدَل الزّينة، ممّا يصل مجموعُه إلى عشرة أضعاف مرتّب مُدَرِّسة وطنيّة تحمل شهادة معهد المعلّمات العليا وأمضتْ في التّعليم عشرين سنة!.

ولـ«سونيا» طبيبٌ خاصّ يزورها يوميّاً، ويقومُ دَوْرِيّاً بفحصها وتطعيمها وما يلزمها من تحليل وقياس درجة حرارتها وضغطها ونبْضها، ويُراقِبُ نُمُوّها ووَزْنَها، ويُزَوِّدُ المربّية بالتّعليمات اللاّزمة للمحافظة على صحّتها الغالية. ومن مهمّة الطّبيب أيضاً الإشرافُ على أكل «سونيا» وشربها، بحيث يكون طعامُها

كاملَ العناصر الغذائيّة، مُتَنَوِّعاً فاتِحاً للشَّهِيَّة، ويكون شرابُها نقيّاً محفوظاً في قِنِّينات خاصّة، كما يُشْرِفُ الطّبيبُ على أدَواتها وألعابها وأثاثها وكلّ أشيائها حتّى تكونَ نظيفةً خاليةً من التَلَوُّث. وبعضُها يجب أنْ يكونَ مُعَقَّماً حِرْصاً على ألاّ يُصيبَ «سونيا» مكروهٌ لاَ قدَّر الله.

وقد لاحَظَ الطَّبيبُ بعد شهر من عمله أنّ اللّحم الوطنيَّ يُسَبّب لـ«سونيا» سَمانَةً تُسِيء إِلى رَشاقتها وتؤثِّرُ في اعتدال قَوامها، وذلك لِمَا يحوِيه اللّحمُ الوطنيُّ من شحوم كثيرة مُشَبَّعَة يَخْتَزِنُها الجسمُ وتُكوِّنُ السَّمانةَ وما تجُرُّه السَّمانةُ من أمراض ووَيْلات. وأوْصَى الطّبيبُ بأن يُسْتَجْلَبَ لـ«سونيا» لحمٌ خاصٌّ صِحِّيٌّ خالٍ من الدّهون، قرأ عنه أخيراً إعلاناتِ دعايةٍ في الصّحف الإيطاليّة.

ونُفِّذَت التّوصيةُ بسرعة، وحضَر اللّحمُ الخاصُّ مع أوّل طائرة قادمة من روما، ثمّ تتابَعَ وصولُه بعد ذلك كلّ أسبوع.

وحتّى لا تَشْتَبِهَ عليك الأمورُ أيّها القارىء، أُوَضّح لك أنّ هذا اللّحمَ الخاصَّ ليس من نوع «الْمَازِقْرِي» الْمُحَنَّط الْمُكَفَّنِ الْمُجَمَّد الْمُسْتَوْرَد الّذي تتزاحم عليه «طوابيرُ» المواطنين الفقراء العاجزين عن شراء اللّحم الوطنيّ، وإنّما هو ـ كما قيل ـ لحمٌ مُسْتَخْلَصٌ من أجزاء نوعٍ ممتازٍ من العجول، وهو لفَرْط طَراوَته يكادُ يذوبُ فيَ الفم ذَوَباناً.

وفجأةً بلا مُقَدِّمات، بدأَتْ نضارةُ «سونيا» تَنْضُب، ووجهُها يَشْحُب، وبريقُ عينيها ينطفىء، وحركتُها تتقلّص، ونشاطُها يفتُر، وجمالُها يذْبُل، وشَهيّتُها للأكل تَقِلّ، وأصبحت كسولاً تميلُ بكثرةٍ إِلى النّوم والْعُزلة، ولا ترغبُ في اللّعب أو القيام بفُسحتها الصّباحيّة مع مربّيتها كعادتها، ولا تَخِفُّ لاستقبال فلان عند عودته من مكتبه في الظّهيرة.

وانزعجَ فلانٌ انزعاجاً خَلَع قلبَه، واغْتَمّ غمّاً أَثَّر في انتظام مواعيده ومقابلاته، وأُعلِنتْ حالةُ الطّوارىء في القصر، واجتمع على الفور مجلسٌ طبّيٌّ متخصّص لمعرفة السّبب الّذي جعل صحّة «سونيا» تعتلّ، ونظامَها يختلّ، ونشاطَها يَضْمَحِلّ. وبعد فحْصٍ وتدقيق، وتحليلٍ وتمحيص، وكَشْفٍ وتشخيص، وصُوَرٍ بالأشعّة وغير الأشعّة، وتَبادُلِ الآراء بين أعضاء المجلس الطّبّيّ المتخصِّص، تبيّن أنّ «سونيا» مُصابةٌ بمكروب وافدٍ يستقرّ في الكبد، ويتعرَّضُ له الإنسانُ والحيوانُ على السَّواء، وقد تسرَّبَ إلى البلاد من خلال بعض النّفايات المستوردَة من الخارج، وفي غَيْبة الرَّقابة الصّحّيّة الدّقيقة.

ولكن، كيف حلَّ هذا المكروبُ الغريبُ بجسم «سونيا» وأكْلُها صِحِّيّ، وشرابُها نَقِيّ، وأدواتُها مُراقَبَة، والْعنايَةُ الطّبّيّةُ بها كاملة، ولا تخرجُ من نظافةٍ إلاّ لِتَدْخُلَ في نظافة؟

كيف اخترقَ المكروبُ اللّعينُ كلَّ هذه الجَبَهات الدّفاعيّة القويّة، وتجاوَزَ كلَّ هذه الاسْتحكامات المنيعة، وسَخِرَ من كلّ الاحتياطات الوِقائيّة المتَّخذَة، ووصلَ بسلام إلى كبد «سونيا» يعيث فيها كيفما يشاء؟

لماذا لم يأت هذا المكروبُ الصّفيقُ إلى أكباد الأطفال الفقراء في الحيّ الشّعبيّ القريب من القصر، وكلُّ أبوابهم أمامَهُ مُشْرَعَة، وكلُّ طُرُقِهم له مُعَبَّدَة، وكلُّ وسائلِ انْتِقالِه إليهم مُتاحَة، ولا دفاعَ لديهم يَصُدُّه، ولا مُقاوَمَةَ في أجسامهم تَرُدُّه، ولا حَصانةَ من رعاية تَمْنَعُه، ولا نَظافةَ في بيئتهم تَطْرُدُه، وكلُّ الأسباب في الحيّ مُهَيَّأَةٌ لاستقباله بحَفاوَة، وكلُّ الظُّروف مُمَهَّدَةٌ لقدومه في تَرْحاب؟

كيف سَلِمَ منه أولئك الفقراءُ الّذين يَغُوصُون حتّى رُكَبِهم في الْوَحْلِ، ويَنْغَمِسون حتّى آذانِهم في الْقَذارة، ويأكُلُون في صِحْنٍ واحدٍ مع الكلاب

والقطط، ويشرَبون في قِحْف واحدٍ مع الدّجاج والذُّباب، ويتَنَفّسون تَلَوُّثاً، ويَلْبَسون تَلَوُّثاً، ويفْتَرِشون تَلَوُّثاً، واسْتَأْنَسَتْ بهم الجراثيمُ كما اسْتَأْنسوا بها، وتَتناسَلُ في أجسادهم كما يتناسَلون في أكواخهم؟

ذلك سرٌّ خَفِيٌّ تَقْصُر عن إدراكه عقولُ البشر، ولا يَعْلَمُه إلاّ عالِمُ السّرِّ والنّجوَى، وله سبحانه في كلّ ما يُقَدِّر حكمة.

وازدادت حالةُ «سونيا» سوءاً، ولم تُفِدِ الأدويةُ والعقاقيرُ في القضاء على المكروب كأنّه مخلوقٌ بسبعة أرواح، أو كأنّه جانٌّ عنيدٌ يرفُضُ أنْ يخرُجَ من الجسم الّذي تَلَبَّسَ به.

وكاد فلان يَفْقِدُ عقلَه وأعصابَه، وألحّ على المجلس الطّبّيّ أن يفعلوا المستحيل من أجل إنقاذ «سونيا» من أنياب الوحش الّذي يريد أن يفترسَها، وأبْدَى استعداده للسّفر بها إلى أوروبا لِتُعالَج في أكبر المستشفيات المتخصِّصَة، وفي طائرة خاصّة إذا لَزِمَ الأمر، لكنّ الأطباء أقنعوه بأنّ المكروب أفْلَتَ من السّيطرة، وحطّم كلَّ الحواجز الّتي أُقيمتْ لمنعه من الانتشار، وأنْ لا فائدةَ تُرْجَى من علاج «سونيا» في أوروبا أو أمريكا، وليس في وُسْعهم إلاّ أن يُخفِّفوا آلامَها بالمُسَكِّنات، ويُقَلِّلُوا بقدر الإمكان من نَهَم المكروب الّذي يَلْتَهم كَبِدَها في شَراهَةٍ مُنْقَطِعَةِ النّظير.

وبلغَ الخبرُ الأحبابَ والأصدقاءَ والمتعاملين، فتقَاطرتْ على القصر باقاتُ الأزهار تحملُ بطاقاتِ مُرسِليها، ومكتوبٌ عليها عباراتُ تعاطفٍ رقيقة من مثل: «ألْفُ سَلامة لكِ يا سونيا»، و«تمنيّاتُنا بالشّفاء العاجل لعزيزتنا سونيا»، و«قلوبُنا معكِ يا سونيا».

أمّا أعضاءُ هيأة المنتفعين بفلان، والمحترفون لعادة التّمَلُّق والتَّزَلُّف

والانبطاح، فقد كانت تفوح من عباراتهم رائحةُ النّفاق والمبالغة القبيحة في التّقرّب مثل: «كلُّنا فِداءٌ لكِ يا سونيا»، و«نموتُ وتحيا سونيا»، و«مَنْ لنا بعدَكِ يا سونيا؟»، و«نحن المرضى بمرضك يا سونيا». . .

وكان أحدُ أفراد بِطانة النِّفاق غائباً عن البلد، فلم يَدَعِ الفرصةَ تفوتُه للتَّزَلُّف إلى فلان، فبعَثَ إليه ببرقيّة عاجلة جاء فيها: «تلقَّيتُ ببالغ الحزن والأسَى، وكثيرٍ من الفزع والجزَع، نبأَ تَوَعُّك صحّة حبيبتنا «سونيا». إنّي أدعو الله لها في صلاتي بأنْ يُعَجِّلَ شفاءَها، ويمُنَّ عليها بالعافية، ويُدْخِلَ السّرورَ والفرحة إلى قلوبنا عن قريب بعودتها إلى سابق عهدها. المخلص لكم والمحبّ للعزيزة سونيا: . . . .

ودخلتْ «سونيا» في غَيْبوبة أفْقَدَتْها الوعْي، وبدأتْ تُصارع سَكَرات الموت الّتي تَسْبِق النّهايةَ المحتومة، ووقفَ الأطبّاءُ وأهلُ القصر بجانبها في صمتٍ رهيب ينتظرون أنْ يَسْترجِعَ صاحبُ الوديعة وديعتَه.

وما هي إلاّ بضعُ ساعات حتّى توقّفَ نَبْضُ «سونيا»، وبَرَدَتْ أطرافُها، وصارت جُثّةً هامدة.

ووقع الخبرُ على فلان وَقْعَ الصّاعقة، وبَكَى بكاءً حارّاً لم يَبْكِ مثلَه عندما فَقَدَ أباه وأُمَّه، وانْتَحَبَ بحُرْقَة نَسِيَ معها هَيْبَة مركزه ووَقارَ سِنّه، ولَطَمَ وَجْهَه ونَاح، وخَبَطَ على فَخِذَيْه وصاح، وأظْهَرَ من الْجزَع والْهَلَعَ ما لا تفعلُه شابّةٌ ترمَّلَتْ في عِزّ شبابها، أو أمٌّ ثَكِلَتْ ابنَها الوحيد الذي لا تملك غيره.

وتوافدَ المُعَزّون على القصر لِيُواسُوا فلاناً في مُصَابِه الجَلَل، وفي مقدّمتهم بطبيعة الحالِ بِطانةُ النّفاق الّتي تكونُ في مثل هذه المناسباتِ أوّلَ من يأتي وآخِرَ من يُغادِر. وتَبَارَى أفرادُ هذه البطانة في تمثيل دَوْر التّأثّر البالغ

والحزن العميق، فكان بعضُهم يضربُ على رأسه ويُوَلْوِلُ كما تُوَلْوِلُ نائِحَةُ اليهود، وغَطّى بعضُهم عينيْه بكفَّيْه مُنْهَمِراً في بكاء مُصْطَنَع يَهْتَزُّ لَهُ كلُّ جسمه كما يهتزُّ جسمُ المصروع، وتَظاهَرَ بعضُهم بالذُّهول والشُّرود كأنّه معتوهٌ أفْقَدَتْه المصيبةُ توازنَ عقله. أمّا أتْقَنُهم تمثيلاً فكان ذاك الذّي سَقَطَ على الأرض مَغْشِيّاً عليه من هَوْل الصَّدْمَة، ولم يُفِقْ إلاّ بعد أنْ رَشُّوا وَجْهَه بماءٍ باردٍ وشَمَّموا أنْفَه ببعض العُطور.

ولمّا كان فلانٌ مُنْهاراً غيرَ قادر على ضَبْط نفسه من شِدّة الحزن على الحبيبة، أمَر مُديرَ مكتبه بأنْ يتقبَّلَ نيابةً عنه تعازيَ المُعَزّين، ويشكُرَهم باسمه على جميل عواطفهم وحسن مُشارَكتهم، داعياً الله أنْ يُعَشِّرَ خُطاهم، ويُجْزِلَ أجرهم، وألاّ يُريَهم مكروهاً في عزيزٍ لديهم.

واستشارَ بعضُ المُقَرَّبين فلاناً في أمر تجهيز «سونيا» وجنازتها ودفنها، فتَرَكَ لهم حرّيّة التّصرُّف بما يرَوْنَه مُناسباً، إذ لا تسمح حالتُه بالتّفكير في هذا الشّأن.

وتكوَّنتْ على الفور لجنةٌ من مدير مكتبه وبعض ذوي قَرابته وبعض الأصدقاء. وبعد البحث والدّراسة، وتقليب الأمر على كلّ وجوهه، والأخذِ في الاعتبار المكانةَ الكبيرةَ المرموقةَ الّتي تتمتَّعُ بها الفقيدةُ في قلب فلان، وبعد الْمُداوَلات والْمُشاوَرات، اتَّفَقَتِ اللّجنةُ بالإجماع على ما يأتي:

1 ـ يُجَهَّزُ لـ «سونيا» تابوتٌ فاخِرٌ من خَشَب الأَبَنُوس الرَّفيع، ويُكَلَّفُ صُنْعَه أمْهَرُ النّجّارين في البلد.

2 ـ تُوضَعُ على قبرها لوحةٌ رُخاميّةٌ جميلةٌ يُكْتَبُ عليها بخطّ النَّسْخ المحفور اسْمُها وتاريخُ ميلادها وتاريخُ وفاتها.

3 ـ تكون الجنازةُ عائليّةً مُخْتَصَرَة، ويسيرُ موكبُها الْمَهيبُ عند السّاعة الثّانيةَ عشْرةَ غداً ظهراً في صَمْتٍ خاشِع، يتقدَّمُه بعضُ أطفال العائلة يحمِلُون باقاتِ الزُّهور، ويَعْبُر الموكبُ بَهْوَ جَناحِ «سونيا» فالدَّرَجَ الْمُؤَدِّيَ إلى الحديقة، ثمّ يدورُ الموكِبُ على اليسار ويتَّجِهُ نحوَ مكان القبر الّذي حَدَّدَتْه اللّجنة.

4 ـ تُسْتَبْعَد فكرةُ استدعاءِ فرقة موسيقيّة نُحاسيّة تَعْزِف ألحاناً جنائزيّة في أثناء موكب الجنازة كما اقترح بعضُ أعضاء اللّجنة، تَجَنُّباً لِمَا قد يُثيرُه ذلك من انتقاد بعض الْمُتَزَمِّتين الّذين يَرَوْن في ذلك تقليداً سَمِجاً للنَّصارَى.

5 ـ يُسَجَّى جُثمانُ «سونيا» على فراشها لإلقاء النّظْرة الأخيرة عليها من مُحِبّيها حتّى السّاعة العاشرة من صباح غد.

6 ـ تُدْفَنُ «سونيا» في حديقة القصر لسبَبَيْن قَدَّرَتْهما اللّجنة:

الأوّلُ: أنْ تكونَ قريبةً من فلان الّذي أَحَبّها كابنته، لِيَسْتَنْشِقَ عبيرَ ذِكْراها، ويتَعزَّى برؤية قبرها.

الآخر: أنّ المدينة ليس فيها مقبرةٌ خاصّةٌ بالكلاب!.

مــوظّــف

قادَتْني الحاجةُ ـ وقد تُذِلُّ الحاجةُ صاحبَها ـ إِلى موظّف لم أر في حياتي أخْبثَ منه نَفْساً كأنّه عُجِنَ من طِينَة اللُّؤم، ولا أغْلَظَ منه طَبْعاً كأنّه قُدَّ من جُلْمود صَخْر، ولا أشدَّ منه شَراسَةً كأنّه مُنْحَدِرٌ من سُلالَةِ وُحوش، ولا أكْثَرَ تَلَذُّذاً باحتقار النّاس وتعذيبهم كأنَّ بينه وبينهم ثَأْراً قديماً يَغْلِي به دَمُه.

ومن سوء حظّ الّذين تَجُرُّهم أقدامُهم إِلى هذا الموظّف الدَّنيء، أنَّه مُكلَّفٌ أداءَ خدمة للجمهور في مِرْفَق من المرافق الرّسميّة العامّة، ولا مَفَرَّ لهم من الجواز عن طريقه إِلى مصلحتهم وتيسيرِ مُعامَلة من مُعامَلاَتهم، كأنّه الصّراط الّذي لا مَحيدَ لأحد عن وُرُوده والمرور عليه.

وقصدتُ مكتب هذا الموظّف السّيِّىء قبلَ موعد بدء العمل بساعة، فوجدتُ ثُلّةً سبقوني كأنّهم شَدّوا الرّحال إليه من طلوع الفجر، وما لَبِث العددُ يزْداد شيئاً فشيئاً حتّى غَصَّ المكانُ بأصحاب المصالح مثلي.

وتأخّر الموظّفُ الهُمامُ ساعةً عن الموعد الرّسميّ، وما أنْ هَلَّ بطَلْعَته وشَرَّف بقدومه، حتّى فَسَح له الحاضرون الطّريق، واستقبلوه بحفاوة بالغة كما يُسْتَقْبل الفائزون في سباقات العَدْو، وارتفعتْ حناجرُهم بمختلِف التّحايا

وصِيَغ التّرحيب، وشَفَع بعضُهم التَّحيّةَ برفع يده إلى رأسه كأنّه جنديٌّ أمام ضابط كبير، وصَحِبَ بعضُهم تحيّتَه بابتسامةٍ عريضة اتّسعَ لها فمُه، وبانحناءةِ رُكوعٍ كوَّنتْ زاويةً قائمةً مُبالَغةً في التّكريم.

وشَقَّ الموظّفُ طريقَهُ بسرعة غيرَ مُلْتَفِت إلى أحد، ولم يرُدَّ على التّحايا ولو بإيماءة خفيفة بيده أو رأسه كما يفعلُ ذَوُو السَّطوَة المملوءون غروراً، ولم يُجامِلْ أصحابَ الابتسامات والانحناءات ولو بنظرة جانبيّة خاطفة من طَرْف عينه يُعَبِّرُ بها لهم عن شكره وامتنانه.

وكان عَبوساً قَمْطَريراً مُتَجَهِّماً، كأنّ الكآبة جَمَّعتْ كلَّ كتائبها عليه، وكان مُقَطَّبَ الجبين، كالِحَ الوجه، قاسِيَ الملامح، مُنْقَبِضَ الأسارير، كأنّه يَحْمِلُ كلَّ هموم الدّنيا على كتِفَيْه، وكان شامخاً بأنفه، مُنْتَفِخاً بأَوْداجه، مُتَطاوِلاً بعُنُقه، زَامّاً بشفَتيْه، كأنّه يقلِّدُ سَيِّىءَ الذِّكْر «موسوليني» في عُنْفُوان طُغيانه وقِمّة غروره.

وفتحَ مكتبَه بقوّة، وجلَس على كرسيّه بعصبيّة، كأنّه راجعٌ لِتَوِّه من شِجار عنيف لم ينطفىءْ بعدُ في قلبه لَهيبُه. قلتُ للواقف بجانبي: لعلّ الرّجلَ قد أصابه اليوم مكروهٌ كدَّرَ عليه صَفْوَه، أو لعلّه يُعاني من مشكلة أثارتْ حفيظته. فأجابني: هذا شأنُه في كلّ يوم، وهذه عادتُه منذ أنْ ابْتُلِيَ به النّاسُ في هذه الوظيفة؛ سَماؤه مُلَبَّدَة دائماً بالسُّحُب السّوداء، وجَوُّه باستمرارٍ مشحونٌ بالعواصف والأعاصير، ومِزاجُه في حالة اضطراب لا تعْرِفُ الهدوء وهَيَجانٍ لا يعْقبُه سكون.

وأمَرَ بقهوة أتتْه بسرعة كأنّها كانت تنتظره وراءَ الباب، وأخَذَ يرشُفُها ببطء شديد والأنظارُ مُصَوَّبةٌ إليه في انتظار تَفَضُّله بالإذن في تقديم الأوراق.

ولم يتذمَّرْ أحدٌ من الحاضرين على الرّغم من أنَّ بُطْأَه في رشْفِ فنجان القهوة كان يُثير الملَلَ والضّيق، ويُنبيءُ عن قتلٍ مُتَعَمَّدٍ للوقت، ربّما رأَوْا أنْ من حقّه أنْ «يتكيَّف» بقهوته حتّى تَهْدأَ أعصابُه، ويعتدِلَ جوُّه، وتَصْفُوَ سماؤه، ويَروقَ مِزاجُه، فيُقْبِلَ بعد ذلك على العمل بهِمَّة ونشاط، ويُنْجِزَ لكلّ الحاضرِين مصالحهم. ولكنّه لم يكدْ يفرُغُ من آخِرِ رَشْفَة حتّى تناولَ صحيفةً وبدأ يتصَفَّحُها. قلنا: من حقّه أيضاً أنْ يطَّلِعَ على الأخبار في الدّاخل والخارج، ويقفَ على نتائج آخِرِ مباريات الدَّوْر العامّ لكرة القدم حتّى يطْمئِنَّ على وضْع فريقه المُفَضَّل في ترتيب جدول الفِرَق.

وطالتْ قراءتُه للصّحيفة حتّى لكأنّه لم يترُكْ قراءةَ الإعلانات، والمواليد، والوَفيَات، ودعواتِ الزّواج، وبلاغات تعديل الأعمار، والتَّهاني بالمناسبات السّعيدة، ورقم العدد، وتاريخه، وثمنه، وعنوان الصّحيفة، ورئيس تحريرها، ومديرها، ورقم هاتفها...

واشْتَدَّ الضِّيقُ بالنّاس، واشتدّتْ عليهم قسوةُ الازدحام، وقسوةُ الحرارة، وقسوةُ الانتظار، وقسوةُ الموظّف. وزاد بعضُهم قسوةً خامسةً هي قسوةُ التّدخين الّذي اختنقَتْ به أنفاسُ الّذين يكرَهون هذا الخبيثَ المُفْسِدَ للصّحّة والمفسدَ للهواء والمفسدَ للجُيوب.

واجترأَ أحدُهم على تنبيه الموظّف بكلمة: يا أخ. ولم يكد يبْتَلِعُ حرف الخاء الأخير حتّى ردّ عليه الموظّفُ الّذي لم ترتفِعْ عيناه عن الصّحيفة: «اسْتَنُّوا». قالها بجَلافَة وغَطْرسَة وعَجْرَفَة، حتّى خُيِّلَ إليّ أنّها خرجتْ من فوق أنفه لا مِنْ فِيه.

وفجأةً عَبِق المكانُ برائحة زكيّة نفّاذَة تُسْقِطُ الطّائرَ المُحلِّقَ من سمائه كما يقولون، وتبيّنَ في الحال أنّ هذه الرّائحةَ القويّةَ المُقْتَحِمَةَ كانت طليعةً مُتقدِّمةً

تُمَهِّدُ الطّريقَ لمجيء فتاة يبدو من مظهرها العامّ أنّها حديثةُ عَهْدٍ بالتّبَرُّج، قليلةُ التّجربةِ بفُجُور الخلاعَة، تتحرَّكُ بصعوبة بالغة داخلَ فستان ضيّق مُلْتَصِق بجسمها كأنّه قطعةٌ منها، ويكادُ لشدّة ضيقه يتمزّقُ إِرْباً ويَنْفَرِطُ بَدَداً، وتَمشي على كَعْب عال ببطء شديد كأنّها تُحاذِرُ من الانْزِلاق، ويرتفع فوق رأسها شعرٌ غليظٌ منفوشٌ كأنّه شجرةٌ من الشّوْك الكثيف، وتتَمايَلُ بأرْدَافها في تصَنُّع بليد كأنّها تُقَلِّدُ إحدى مُمَثِّلات أدْوار الإغراء في الأفلام المصريّة الهابطة، وتَمْضَغُ عِلْكاً تُدير به فَكَّيْها في حركة رتيبة تزيد في إضفاء الْمُيوعة عليها، وتضَعُ على وجهها مقاديرَ كبيرةً من المساحيق والتّزاويق صارخةَ الألوان سَيّئةَ التّوزيع، كالّتي يُكَدِّسُها مُهَرِّجُ «السِّرْك» لِيُضْحِكَ الأطفالَ ويُسَلِّيَ الْمُتَفرّجين.

وقد غيَّرتِ الفتاةُ خِلْقَةَ الله في حاجِبَيْها، فَتَنَمَّصَتْ وأزالتْ شَعْرَهما، ووضَعَتْ مكانَهما خطّاً رفيعاً في لون الفَحْم، فظَهر حاجِباها المنتفخان كأنّهما رَبْوَتان جَرْدَاوان يَشُقُّها شَريطٌ أسود.

وغَمَرتْ رائحةُ الفتاة النّفّاذَةُ المكانَ حتّى أُصيبَ بعضُهم بالصُّداع، وخُيِّلَ إليّ أنّها أفْرَغَتْ على نفسها من قِنّينَات العِطْر ما لو تَعَطَّرَ به نساءُ المدينة جميعاً بقَدْرٍ معتدل لَكَفَاهُنّ وبَقِيَ منه شيءٌ لغيرهنّ.

وبالجملة كانت الفتاةُ مُثيرة، لا الإثارةَ الطّبيعيّةَ الّتي تَعْهَدُونها في الأنثى، وإنّما كانت مُثيرةً للتَّقَزُّز والإشْفاق.

أمّا إثارتُها للتّقزّز فلأنّها كانتْ مُبْتَذِلةً نفسَها بدرجةٍ مُمْعِنَةٍ في التَّهَتُّك، عارضةً بِضاعَتَها الرّخيصة بلا ذَرَّةٍ من حِشْمَة، ولا شيءَ أبعثُ على تقزُّز النّفس من الابتذال، ولا أدْعَى إلى اشْمِئزازها من نُضوب الوجه من ماء الْحَيَاء.

أمّا إثارتُها للإشفاق فلأنّها كانتْ غِرّةً ضَحيّةً للجهل، اختارت طريقاً

محفوفاً بالْمَخَاطِر تَتربّصُ الذّئابُ الشّرِسَةُ بكلّ السّالكات فيه، ويتَهافَتُ عليهنّ الذّبابُ فيه كما يتهَافَتُ على اللّحم العاري من شيءٍ يُغطّيه. ولو تَدَثّرَتِ المسكينةُ بِلِحاف السّتْر، وترفّعَتْ عن موطن الْقَذَر، وتجمّلَتْ بزينة الصّوْن والعفاف، لأَمِنَتْ شَرَّ الذّئاب، وسَلِمَتْ مِنْ تَهافُت الذُّباب، ولكانت مُثيرةً للاحترام والتّقدير بدلاً من إثارتها للتّقزُّز والإشفاق.

وانْتَفَضَ الموظّف لمَقْدَم الفتاة، وامْتَدّتْ يدُه بسرعة إلى أزرار قميصه يُقْفِلُ ما تَعَرَّى من صدره، ثمّ إلى ياقته فعدّلَها وسَوّاها، وأخرج من جيبه مِشْطاً سرَّح به شعرَه الأشْعَث، وهَشَّ للفتاة وبَشّ، وانْبَسَطَ وجهُه واسْتبْشَر، ونطَقَتْ أساريرُه بفَرْحة عارِمَة كأنّ الكآبَةَ لم تعرفْ طريقَها إليه من قبل، واندَفَع نحوَها تَصْرُخُ عيناه بجُوع كجوع الوَحْش أمامَ فريسة، وتَلْهَثُ أنفاسُه من الاضطراب كما يلْهَثُ كلْبٌ في حالة ظمأٍ شديد، ومدَّ يدَه الْمُرْتَعِشَةَ إلى الفتاة مُصافحاً بحرارة، فصافَحَتْه برؤوس أصابعها كأنّها كانتَ تخشَى خَدْشَ أناملِها بكَفِّه الغليظة الْخَشِنَة.

وتَسَلَّمَ من الفتاة أوراقَها في خشوع وخُنوع ويداه تَرْتَجفان، وقلَّبَ الأوراق في عَجَلَة ووَعَدَها بإنجاز مصلحتها في يومين فقط، والعادَةُ أنَّ مُعامَلتَها تستغرقُ أسبوعاً. وشكرتْه الفتاةُ بابتسامة انفرَجَ لها فمُها الواسعُ فبدَتْ أسنانُها الكبيرةُ كأسنان الحمار، فردَّ عليها التّحيَّة بأضعاف حُسْنها، وزادَ فشكَرَها الشُّكْرَ الجزيلَ على إتاحتها له فرصةَ التّشرُّف بخدمتها، وتَنْوير مكتبه بزيارتها، ووَدّعَها بعينيْه النَّهِمَتيْن الجائعتيْن، وبأنفاسه الْمُتَقَطِّعَةِ اللاّهِثة، وشارَكتْ كلُّ أساريرِ وجهِه الْمُنْبَسِطَةِ في مراسِمِ التّوديع الحارّ.

وولّتِ الفتاةُ مُدْبِرَةً مُسْتَأْنِفةً اسْتعراضَ الْمُيوعَة والْخَلاَعَة، ومُريقَةً البقيّة الباقيةَ من ماءِ الحياء إنْ كان هناك شَيءٌ بَقِيَ في وجهها من هذا الماء.

وظنّتْ عجوزٌ من الحاضرين المنتظِرين أنّ الموظّفَ يَرْفُق بالقوارير، ونَسِيَت لطيبتها وصَفاء نيّتها أنّها قارورةٌ قديمةٌ أطْفَأَ الزّمنُ بريقَها، وخَشّنَتِ الحوادثُ نُعومَتَها، وأنّ صاحِبَنا ليس مِنْ هُواة اقْتناء القوارير العتيقة الّتي عَفّى عليها الدّهر.

وتشجّعتِ العجوزُ كأنّها تريد أن تَلْحَقَ بآخر ابتسامته قبل أَنْ تَغيضَ من وجهه، وتَتَشَبَّثَ بذَيْل انبساطه قبل أنْ يختفِيَ باختفاء الفتاة الكاسِيَة العارية، وتسْتَغِلَّ الأثَرَ الباقيَ من جوّ الحُبور الّذي خَلَقَتْه فيه الفتاةُ قبلَ أنْ تَعْصِفَ العاصفةُ من جديد ويعودَ إلى عُبوسه وتَجَهُّمه، فَرَجَتْه بكلّ لُطفٍ أنْ يُراعِيَ ضَعْفَها، وتوسَّلَتْ إليه بكلّ رقّة أنْ يرْحَمَ شَيْبَتَها، وطلَبَتْ منه أنْ يتفضَّلَ ويتكرَّمَ ويتَعطَّفَ فَيَقْضِيَ مصلحتها. ومهّدتِ العجوزُ لرجائها وتَوَسُّلها بدعواتٍ صالحات بطول العُمُر، ووافِر الصّحّة، ودَوام التّرقية، وتعلية المراتب، والنّصر على الأعداء والحُسّاد.

وكما انقلبَ فجأةً من الجوّ الْمُلَبَّد بالغُيوم إلى الجوّ الْمُشْرِقِ الوضّاح عندما جاءتْه الفتاة، عاد فجأةً إلى الجوّ الْمُظْلم الكئيب عندما الْتَمَسَتْ منه العجوزُ مساعدتَها، فعَبَس وبَسَر، وأدْبَرَ واسْتَكبر، وكاد يَتطايَرُ من عينيه الشَّرَر، ونَفَخَ شِدْقَيْه من الغضب كما ينْفُخُ عازفُ «الْغِيطَة» شِدْقَيْه في حالة طَرَبٍ وانسجام، ثمَّ زَفَرَ زَفْرَةً أطارتِ الأوراق الّتي أمامَه، وضربَ بقَبْضَته الْمِنْضَدَة ضَرْبَةً قويّةً انخلع له قلبُ العجوز.

ولم يعرف الحاضرون سبباً لهذه الزَّوْبَعَة الْمُفْتَعَلة، فالعجوزُ لم تأت شيئاً إدّاً حتّى تُعاقَبَ هذا العقاب، وليس في الْتماسها ما يُثيرُ أدنَى غضبٍ أو يُخْرِجُ عن طَوْر، ولم تُسيِئْ معه الأدبَ حتّى يتحرَّشَ بها هذا التّحَرُّش.

وفَطِنَ بعضُ ذوي السّوابق مع الموظّف أنّ هذا التّظاهُرَ بالانفعال الشّديد

حيلَةٌ يَصْطَنِعُها أحياناً لِيَنْصَرِفَ عن الحاضرين مُتَذَرِّعاً بالغضب الّذي أفْقَدَه أعصابَه. وحتّى لا تَنْطَلِيَ حيلَتُه ولا يَنْجَحَ تدبيرُه، بادرَ أحدُهم إلى تَمَلُّقِه، ورجاه ألاّ يَحْرِقَ أعصابَه من أجل عجوز مُخَرِّفَةٍ لا تَعِي ما تقولُ ولا تعرفُ للرّجال قَدْرَهم. وساعدَه على التَّمَلُّق آخَرُ أعطى الموظّفَ كلّ الحقّ في أنْ يَثورَ ويَغْضَب، ولكن «العيب على زايد العقل»، والمرأة عجوزٌ يشْفَعُ لها في غَلْطَتها كِبَرُ سِنِّها.

ولم تُفْلِحْ عباراتُ التَّمَلُّق في استرضائه أو التّخفيف من حِدّة ثورته، ربّما أراد أنْ يسيرَ في تمثيليّة الانفعال والغضب إلى نهايتها حتّى يَجِدَ الْمُسَوِّغَ للانصراف ويترُكَ أصحابَ المصالح يتعذّبون.

وهنا طفَّ الصّاع، وبلَغَ السَّيْلُ الزُّبَى، ووصلَ الكَرْبُ بالنّاس إلى درجة فَقَدوا معها آخِرَ قَطْرَةٍ من صبرهم، فانْبَرَى له شابٌّ خاطبه بلهجة قاسية يستحقُّ أقسى منها، وأفْهَمَه أنّ الحاضرين ليسوا حشراتٍ حتّى يحْتَقِرَهم هذا الاحتقارَ الْمُذِلّ، وليسوا حيوانات حتّى يَمْتَهِنَهم ويُضَيِّعَ وقتَهم، وإنَّما هم مواطنون جاءوا لقضاء مصالحهم، ومن حقّهم عليه أنْ يُعامِلَهم باحترام، ومن واجبه نحوهم أن يُساعدَهم ويُنْجِزَ أعمالَهم ويأخُذَ بيد ضعيفهم.

واستشاطَ الموظّفُ غضباً فاقَ غضبَه السّابق بمرّات، فأرْعَدَ وأزْبَد، وصاح وعَرْبَد، وأوْعَدَ وهَدَّد، وانتفَخَتْ عُروقُ عُنُقه حتّى كادتْ تنفَجِر، وانْطَلَقَتِ الكلماتُ الْبَذيئَةُ مِنْ فيه كما ينْطَلِقُ الرّصاصُ من مِدْفَعِ رَشّاش، وارتفعَتْ من بَذاءَته نَتانَةٌ لا يُطيقُها ذَوْقُ كريم، حتَّى لكأنَّه تَغَوَّطَ مِنْ فِيه، أو فَتَحَ فَمَه على طابَقٍ من طَوابِق المجاري العامّة.

وشَعَرْتُ بِدُوَار في رأسي من هَوْل ما سَمِعْت، وبغَشاوة على عينيَّ من بَشاعَةِ ما رأيْت، وباختناقٍ في صدري من عُفُونة ما شَمَّ حِسّي الأخلاقيّ،

وكِدْتُ أَتَقَايَأُ من شدّة ما أصابني من الغَثَيان، وأَسْقُطُ من صَدْمَة ما انْتَابَني من إحْباطٍ وضِيق، لولا أنّي تحامَلْتُ على نفسي، وخرجتُ مُسْرعاً هارباً من جوّ المراحيض المشحون بالقذارة، وتَبِعَني كثيرون أبَتْ عليهم أثارَةٌ من كرامَةٍ أنْ يُذِلَّهم الموظّفُ أكثر مما أذلَّهم.

ولَعَنَ اللّهُ الحاجةَ الّتي تُورِدُ صاحبها مواردَ الاحتقار والامِتهان، ويكونُ قضاؤها على يد موظّف دنيء خسيس لئيم يتقاضَى على دَناءته وخَساسته ولآَمَته مُرَتَّباً من خزانة المجتمع!.

مكتبتي

يرى بعضُ النّاس زينةَ البيت في غرفة الاستقبال الفسيحة الّتي تَصْطَفُّ على جوانبها الأرائكُ الفاخرة، وتَضْطَجِعُ على أرضها البُسُطُ الْعَجَمِيّةُ الرّفيعة، وتتدلّى من سَقْفها الثُّرَيّاتُ الضّخْمةُ الْمُتَلأْلِئَةُ بمئات الشّموع الكهربيّة.

وبعضُهم يرى زينةَ البيت في غرفة النّوم الأنيقة ذات الأثاث الرّاقي المطبوع بلَمسات الفنّان المبدع، والفراش الوثير النّاعم الّذي يغُوصُ فيه صاحبُه فيُغْرِي أجْفانَه بالنّوم اللّذيذ، ويُحَلِّقُ به في جوٍّ من الأحلام الوَرْدِيّة المُمْتِعة.

والْمُولَعون بهِواية الأكل الْمفتونون بشَهْوَة بطونهم، يَرَوْن زينةَ البيتِ في المطْبَخ الّذي يُعَطِّرُ أركان البيت برائحة الطّعام الْفَوّاحة، ويُتيحُ لأهله حرّيّةَ الْمُزاوَلَة لِهِوايَتهم الْمُفَضَّلَة، ويَمْنَحُ بطونَهم الْمُتْعَةَ الّتي لا تَعْدِلُها عندهم مُتْعَةٌ في الحياة.

أمّا أنا فزينةُ البيت عندي مكتبتُه الّتي يرتفِعُ رَفُّها أو أرْفُفُها في شُموخ وكبرياء ولو كانت مصنوعةً من خَشَبٍ مُتَواضِع أو حديدٍ صِدِيء، وتتكدَّسُ كُتُبُها في كلّ ركن منها ولو أوْحَى منظرُها بالفوضى وسوء التّرتيب والنّظام،

ويتَّسِعُ ضِيقُها في الصّدر ولو كانت مِساحتُها أمتاراً مُرَبَّعَةً لا تزيد على عدد أصابع اليد الواحدة.

وإذا خلاَ بيتٌ من مكتبة ـ مهما صَغُرتْ ـ كان في نظري كالبيت الْمَبْنِيّ في مقبرة يَلُفُّه سكونُ الموت من كلّ مكان، أو كالكهف القديم المهجور يتردَّدُ صَدَى الْوَحْشَة من كلّ زواياه، ولا يمكن عندي أنْ يَمْلأَ فراغَ المكتبة شيءٌ آخَرُ ولو كان البيتُ قصراً من قصور الرّشيد الأُسْطوريّة، ولا يُغْنِي عنها بديلٌ ولو كان بديلاً غارِقاً في الرّخاء سَابحاً في التَّرَف.

حتّى أولئك الّذين يتّخذون المكتبة في بيوتهم مَظْهراً لِلتَّباهِي ومُجارَاةً لغيرهم وتقليداً، ويَصُفّون كُتُبَها المجلَّدَةَ ذاتَ الألوان المختلفة لِتُعْطِيَ المنظرَ البديعَ يُزَيّنُ ركنَها، أو لِتُحْدِثَ الانسجامَ والتَّناغُم مع بقيَّة أثاث البيت ومحتوياته، أُبارِكُ صنيعَهم ولو كانوا أُمّيّين لا يفُكّون خطّاً، فقد يخرجُ من أصلاب هؤلاء من يعرف للمكتبة قَدْرَها، وينْفُضُ عنها غُبارها، ويُحَرِّرُ كُتُبَها من سجنها، ويغترفُ من خيرات منابعها.

وقد يجد فيها قريبٌ من أقربائهم، أو صديقٌ من أصدقائهم، أو زائرٌ من زُوَّارهم، ضالّتَه من كتاب، وحاجتَه من مَرْجع.

وقد تَسْتَيْقِظُ الْأَرْيَحِيَّةُ في نفس صاحبها الأُمّيّ قبل أنْ يُوَدِّع الدّنيا، وتَدْفَعُه الرّغبة في أنْ يكونَ له ذِكْرٌ طَيّبٌ بعد رحيله، فيجعل المكتبة وقْفاً يصل إليه ثوابُه بعد موته، وصَدَقةً جاريةً يُقَدِّمُ بها نوراً بين يديه.

وهكذا قد يُؤْجَرُ المرءُ على رغم أنفه، وقد يفعلُ شيئاً لغير الله فيَأْبَى أنْ يكونَ إلاّ لله. والمكتبةُ في كلّ الأحوال لا يُهِمُّها إلاّ أنْ تُضِيءَ وتَشِعَّ ولا شأنَ لها بعد ذلك بمَنْ يَقْتَبِسُ الضِّياءَ ويَسْتَقْبِلُ الأشِعَّة، ولا تُمَيِّزُ إنْ كان الْمُقْتَبِسُ أو

الْمُسْتَقْبلُ من أهل البيت أو من غيرهم، كالشّمس تُؤَدّي وظيفتَها اليوميّةَ في رَتابَة، وتُوَزِّعُ أشِعَّتَها على الدّنيا بالعدل، ثمّ لا يُبْطِرُها مَنْ يتعرَّضُ لضوئها فيَستفيد، ولا يَضِيرُها من يَهْرُبُ منها إلى الظّلام فيُحْرَمُ خيراً كثيراً.

تلك مكانةُ المكتبة ـ كما أراها ـ في بيوت النّاس جميعاً.

أمّا مكتبتي فلي معها شأنٌ خاصّ، وعلاقتي بها علاقةُ حُبٍّ قديمة تضربُ بجُذورها في أعماق عمُري، وترجعُ بِدايتُها الأولى إلى زمن طفولتي الْغَضّ، حيث غَرسْتُ نَواةَ مكتبتي في صندوق شاي صغير وأنا ابنُ عشر سنين، وكانت نَواةً مُبارَكَةً مُتَمَثِّلَةً في مُصْحف شريف ذي أرباع برواية وَرْش عن نافع وَرِثْتُه عن والدي رحمه الله، وكتابٍ قديم أو كتابين. وأخَذَتِ المكتبةُ النَّواةُ تنمو في سِنيها الأولى ببُطء شديد لضيق ذات اليد كما ينمو طفلٌ وليدٌ يشكو من سوء التّغذية، أو كما تنمو بَذْرَةٌ لم تُهَيَّأْ لها التُّرْبَةُ بالسَّماد والماء الكافي، ثمّ توقّفتْ عن النّموّ البطيء في سنوات القحط الّتي أجْهَدَتِ البلادَ والعبادَ في أواسط الأربعينيّات، تلك السّنون الّتي مرّتْ عصيبةً كئيبةً كما تَمُرُّ سَكَراتُ الموت أو هي الموتُ نفسُه، ثمّ أدْركتِ النّاسَ رحمةُ الله، فدَبَّتْ في مكتبتي نَفْحَةٌ من الحياة كما دبَّتْ في الأرض الميّتَةِ الجافّة.

واستأْنَفتِ المكتبةُ نُمُوَّها البطيءَ جدّاً مُتَغَذِّيَةً بقَدْر ضئيل تَتَبَلَّغُ به من قُوتي، لأنّي كنتُ يومئذ لا أمْلِكُ فَضْلَ زادٍ أُطْعِمُها به. ولما تيسَّرَتِ الأمورُ بعد العُسر، وأَقْبَلَتِ الدّنيا قليلاً بعد طول إدبار، بدأتْ مكتبتي تنمو نمُوّاً طبيعيّاً، وتَزْدَهِرُ مع الأيّام كما تَزْدَهِرُ صَبِيَّةٌ مُحاطَةٌ برعاية أبَوَيْها، وما زالتْ تتَرَعْرَعُ ويشْتَدُّ عُودُها حتّى شَبَّتْ عن الطَّوْق، وأصبحتْ يافِعةً صَبُوحَةَ الوجه، بَهِيَّةَ الطَّلْعَة، فارِعَةَ الْقَوام، تملأ عيني ووجداني.

وأنا هنا لا أبْغِي أنْ أُثْقِلَ عليكم بِسَرْد قصّة حياة مكتبتي، وإنّما غرضي

أنْ أُبيّن أنّ شأني معها كشأن فلاّح وَضَعَ في الأرض شَتْلَةً صغيرةً سقاها بعَرَقه، وأطْعَمها من عُصارة أعصابه، وسَهِرَ على حمايتها من لَسْعَة البرد ولَفْحَة الحرّ، وصَبَر عليها كما يصْبِرُ الأبُ على تنشئة ابنه، إلى أن اسْتَغْلَظَتْ واسْتَوَتْ على ساقها، ثمّ ارتفعَتْ دَوْحَة ظليلةً ذاتَ بَهْجَة تَسُرُّ النّاظرين.

وكما يَغار الفلاّحُ على شجرته الّتي ربّاها على عينه وغذّاها من دمه، أَغارُ أنا على مكتبتي الّتي كوّنْتُها من حَبّات عَرَقي، وغَذّيْتُها سنينَ طويلةً من قُوتي وقُوت عِيالي.

وكما يتألّمُ الفلاّحُ لِخَدْشٍ يَجرَحُ غِشاءَ شَجَرتِه، أَتَأَلّمُ أنا لِخَدْشٍ يَجْرَحُ كتابي، وأشْعُرُ كأنّ الْجُرْحَ أصاب جسمي. بل أنا في العادة أُهْمِلُ العناية بجُرْح يُمَزّقُ طَبَقَة جِلْدي، ولكن لا تُطاوِعُني نفسي أنْ أُهْمِلَ تَمَزُّقاً يقْطَعُ غِلافاً أو صفحةً من كتبي، فأُسارِعُ إلى علاج التمزُّق بكلّ رِفْق، وأُحاوِلُ أنْ أرْأَبَ صَدْعَ الكتاب بكلّ دقّة، وأجتهدُ في ألاّ أُخَلّفَ للكتاب الْمُصاب عاهةً مُستديمةً تُشَوِّهُه، وألاّ أُلْصِقَ به جَبيرةً تَطْمِسُ بعضَ حروفه، حتّى إذا ما نجحْتُ في مُهمّتي، غَمَرَني سرورٌ كالّذي يَغْمُرُ طبيباً جَرّاحاً أجْرَى عمليّةً ناجحةً أعادت العافية إلى مريضه.

إلى هذه الدّرجة بلغَ حُبّي لكتبي ومكتبتي، بل قد تجاوَزَ الحبُّ هذه الدّرجة، فجعل لمكتبتي تأثيراً عجيباً في نفسي قد لا تُصَدِّقونه، وإذا صَدَّقْتُموه فلا بدّ أنْ يكونَ تصديقاً مَشُوباً بالاستغراب والدَّهْشَة، وأنتم غيرُ مَلُومين في ذلك، فمعذورٌ مَنْ ذاق، ومَعذورٌ مَنْ لم يذُق.

من هذا التّأثير العجيب أنّي أخلُو إلى نفسي في مكتبتي، فأستمتع بهذه الخَلْوَة كما يستمتع بِخَلْوَته العابدُ الْمُنْعَزِلُ في صَوْمَعَته، وأَجِدُ فيها بَرْدَ الرَّاحة كما يجِدُه في الواحة الظّليلة الظّاعِنُ الْمُجْهَدُ من سَفَره، وأُناجِي فيها روحي

بصَمْتٍ عميقٍ مُعَبِّرٍ يَعْجِزُ عن بلاغته ورَوْعَته أَفْصحُ الكلام المنطوق شِعْراً ونَثْراً.

وفي مكتبتي تتجمَّعُ أفكاري الْمُشَتَّتَة، وتحْضُر خواطري الغائبة، وتتوارَدُ على ذهني الصُّوَرُ والألوان، وتتولَّدُ عندي المعاني بلا مَخاض عسير، ويَسْلُسُ أسلوبي بلا تَصنُّعٍ ولا تَكَلُّف، ويَسيلُ قلمي بلا تعثُّر ولا توقُّف، كأنّها مصدرُ إلهام، أو مَنْبَعُ إيحاء، أو سرٌّ يفتح على العبد فُتوحَ العارفين.

ومن هذا التّأثير أنّه قد يَنْتابُني قَلَقٌ وتَعْرُوني كآبَةٌ كحال كلّ البشر في هذه الحياة الصّعبة. وقد يَرْكَبُني هَمٌّ ويُمِضُّنِي غمٌّ كشأن كلّ إنسان مُبْتَلًى بشرور النّاس، فأهْرُب إلى مكتبتي أسْتَرْوِحُ نَسْمَةً من الطُّمأنينة، وأسْتَفْتِحُ كُوَّةً للانشراح والسّرور، وألْتَمِسُ مَخْرَجاً ممّا أخْتَنِقُ فيه من الضّيق، فما هي إلاَّ لَحظاتٌ حتّى أسْتَشْعِرَ أُنْساً يُبَدِّدُ القلق كما تُبَدِّدُ سِياطُ الرّياح السُّحبَ القاتِمة، ويُسَرَّى عنّي كأنّ الكآبَةَ قد ضَايقَتْها المكتبةُ فلم يَطِبْ لها في نفسي مُقام، وتَنْزِلُ عليّ سكينةٌ تُفَرِّجُ الْهَمَّ وتكْشِفُ الغَمَّ كأنَّ يداً رحيمةً امْتَدّتْ فأزاحتْ ثِقَلاً كان ينوءُ به كاهِلي، وأُحِسّ كأنّ الكُتُبَ الْمُبارَكةَ قدْ أهَمَّها أمري فسارعَتْ إليّ مِن أرْفُفِها تُرَبِّتُ على كَتِفي تُوَاسِيني، وتَسْكُبُ عليَّ من حَنانها تُلاطِفُنِي، وتَقُصُّ عليّ من حِكاياتها تُسلِّيني، وتَنْثُر بين يدَيَّ حكْمتَها تَعِظُنِي، وتُذَكِّرُني بالله الّذي بذكره تطمئنّ القلوب.

وقد أتصوّر ـ لسببٍ مّا ـ أنّ الوقتَ يتثاقَلُ في بُرود يُغْضِبُ الحليم، ويَتباطَأُ في مَلَلٍ يُحَطِّمُ الأعصاب، حتّى لَيُخَيَّلُ إليّ أنّه يسيرُ على غير عادته سَيْراً وَئِيداً كما تَسيرُ عَرَبَة مُحَمَّلَةٌ بالأثقال يَجُرُّها حِمارٌ هَرِم.

وقد أتصوّر ـ لسببٍ ما أيضاً ـ أنّ عقاربَ السّاعة قد توقَّفَتْ عن الدَّوَران كأنّها أُصِيبتْ بكُساح أفْقَدها الحركة، أو كأنّ الإجْهادَ الْمُتَواصِلَ قد أنْهكَ قُواها

وفَكَّكَ مَفاصِلَها. وأَفِرُّ من هذه الحالة الّتي لا تأتي من حسن الحظّ إلاَّ نادراً إِلى مكتبتي، فإذا بالوقت الْمُتباطِىء يُسْرِعُ كأنّ مُحَرِّكاً جديداً رُكِّبَ فيه، وإذا بالعَرَبة القديمة الْمُحَمَّلَةِ بالأثقال تنْطَلِقُ كالسَّهم كأنّما يقُودُها بُراق، وإذا بعقاربِ السّاعة الْمُتَوَقِّفَةِ تجري كأنّها تريدُ أنْ تُسابِقَ الزّمن.

وأعترفُ بأنّ هذا الحبّ الجارِفَ لمكتبتي دَفَعَني إِلى أنْ أنْحازَ إليها وأَخُصَّها بامتيازٍ وفضلٍ لا أُعْطيهما لغيرها من مَرافِقِ البيت؛ فهي حُرّةٌ في أنْ تتحرَّك كما تشاءُ وتَنْتَقِلَ إِلى حيث تريد. لها إنْ ضاقَتْ بكُتُبها أنْ تتوَسَّعَ في أيّ مكان من البيت بلا استئناسٍ ولا استئذان، ولها أنْ تَحْتَلَّ ببعض كتبها رُكناً من الأركان بلا سابقِ إنذارٍ ولا إشعارٍ بالإخْلاء، ولها أنْ تُشارِكَ أيَّ غرفة مِساحَتَها بدون أنْ يكونَ للغرفة حقُّ الاعتراض أو الاحتجاج.

وفي الْمُقَابل أحْجُبُ هذه الحرّيّة عن غير المكتبة، فأمْنَعُ أيَّ غرفة أنْ تتوسَّعَ بمحتوياتها في المكتبة، وأطْرُدُ بلا رحمةٍ أيَّ شيء غريب يَقْتَحِمُ رِحابَ المكتبة مهما كان صغيراً أو قليلاً. وفي حالات الاضطرار القُصوَى، أقْبَلُ على مَضَضٍ هذا التّجاوُزَ بشرط أنْ يكونَ مُؤَقَّتاً ينتهي بانتهاء المناسبة الّتي دعَتْ إليه.

هكذا أنحازُ إِلى مكتبتي بوعْيي وإرادتي، على شدّة عِشْقي للحرّيّة وتَمَسُّكي بحقّ المساواة في الْمُعامَلَة، ولا يُحْرِجُني في هذا الانحيازِ أنْ أكونَ مثلَ أبٍ أسْرَفَ في «تدْليل» ابنه، فسَمَحَ له أنْ يُضايِقَ الآخَرين ويُشارِكَهم، ولم يَسْمَحْ للآخَرين أنْ يُضايِقوه ويُشارِكوه.

ومن تأثير مكتبتي في نفسي أنّ الكتابَ الّذي ينْتَسِبُ إليها ويدخُلُ فرداً في عائلتها، يتحوَّلُ في شعوري من كائنٍ مصنوعٍ من الورق إِلى كائن حَيّ تَرْبِطُني به صداقةٌ متينة، وتَشُدُّني إليه عاطِفةٌ حميمة، يستوي في ذلك أَقْدَمُ

كتابٍ وأحْدَثُ كتاب. لذلك لا أُطِيق فَقْدَ كتابٍ من مكتبتي مثلَما لا أُطِيق فَقَدْ صديقٍ عزيز، وأذْكُرُ أنّي فَقَدْتُ كتباً منذ أكثر من رُبُع قرْن، فلم يُخفِّفْ طولُ الزَّمن من لَوْعَة فِراقِها في قلبي، ولم يُنْسِني بُعْدُ العهد على فَقْدِها حُزني، ولا يزالُ جُرْحُها يُثيرُ فِيَ الْمَواجِعَ كلّما طَفَتْ ذكراها الأليمةُ على سطح ذاكِرَتي، في حين فَقَدْتُ أموالاً وأشياءَ ثمينةً لم يترُكْ فَقْدُها في نفسي حَسْرةً ولا أكادُ أتذكَّرُها الآن، وإذا تذكَّرْتُها عَبَرَتْ خاطِري عُبورَ الطَّيْف الخاطِف كأنْ لم تكن.

وأسْوَأُ فَقْدٍ لكتاب من كُتُبي يَعْتَصِرُ قلبي ألماً، وتَبْقَى ذكراه جَمْرةً مُتَّقِدَةً تَكْوِي كبدي، أنْ يكونَ المفقودُ جزءاً من كتاب ذي أجزاء، إذ يُصبِحُ الكتابُ الْمَخْرومُ كشخصٍ بُتِرَتْ ساقُه أو قُطِعَتْ يدُهُ أو شُلَّ عُضوٌ من أعضائه، أو كعِمارَة أصابَتْ طابَقاً من طوابقها قذيفةٌ من مِدْفَعِ ميدانٍ فأحْدَثَتْ فيها ثغرةً واسعةً أَوْهَنَتْ من قُوّة بنائها وقلَّلَتْ من درجة الاِنتفاع بها، أو كأُسْرة كانتْ مُلْتَئِمَةَ الشَّمْل مُتَرَاصَّةَ الصّف، فجاءتْ يدٌ آثِمةٌ اخْتَطَفَتْ أحدَ أفرادِها فتَمَزَّقَ بذلك شَمْلُها وَتَضَعْضَعَ صَفُّها.

ومن أجل المحافظة على كتبي من الْخَرْم والضَّياع، لا أُعيرُ في الغالب كتاباً، لأنّ إعارةَ الكتب من أوسع أبواب فَقْدها وفي مُقدِّمَة أسباب ضَياعها، حتّى بالَغ بعضُهم فعَدَّها عاراً ينبغي أنْ يَبْرَأَ من وَصْمَته فقال:

ألا يا مُسْتَعيرَ الكُتْبِ دَعْني   فإنَّ إعارتي للكُتْب عارُ

وإنّي لَأَعْلَمُ أُناساً من ذوي الْوَجاهَةِ المرمُوقَة في المجتمع، ومن أصحاب الأسماء المشهورة البرّاقة الرَّنّانة، كَوَّنوا مُعْظَمَ ما في مكتباتهم بالسّطْو على كتب الآخرين تحتَ سِتار الاسْتِعارة، وجَمَعوا ما عندهم من المخطوطات والدَّوْرِيّات والمراجع بالوجه الصَّفيق الّذي لا يَنِزُّ بقَطْرَةِ خَجَل، ويَحْلِفُ

الواحدُ منهم بأغْلَظِ الأيْمان، ويأخُذُ على نفسه أوثَق العهود، على ألاّ يبقَى لديه الْمُسْتعارُ من كتاب وغيره أكْثَر من شهر، ثمّ يَمْتَدُّ الشّهرُ إلى أشهر، وتَمْتَدُّ الأشهرُ إلى شهور، وتَلِدُ الشّهورُ سنين، ثمّ لا تعرفُ السِّنونَ لنفسها نهاية.

ويُحاوِلُ صاحبُ الكتاب أو المخطوطة أو المجلّة القديمة أو غيرها أنْ يَسْتَرْجِعَ حقَّه الّذي طالَتْ غَيْبَتُه، ويُلِحُّ في مطالَبَته حتّى يُبَحَّ صوتُه من كثرة الإلحاح، ويتَرَدَّدُ على السّارق الْمُغَطِّي وَجْهَه ببُرْقُع الشُّهرة حتّى تتورَّم قَدَماه، ولا يَمْلِكُ في الأخير إلاَّ أنْ يَسْتَسْلِمَ ويَيْأَسَ من رَجْعة كتابه أو غيره إليه كما يَيْأَسُ من رجْعَة مَوْتَى القُبور إلى الدّنيا.

وقد تُعيرُ شخصاً كتاباً مَخْدوعاً بمَظْهَره الّذي يدُلُّ على أنّه ممن يُحْتَجَر عنده الأيتام، ويُؤْتَمَنُ على خزائن الأرض، ثمّ يُخْبِرُك بعد مُدَّة أنّ صديقاً زاره فرأى الكتابَ وأُعْجِبَ به، وطلَب أنْ يَسْتَعِيرَه منه. ولمّا كان صاحبُنا يَسْتَحْيِي أن يرُدَّ طلَباً لصديق، اضْطُرّ أنْ يُوافِق ويُعيرَ الكتاب المستعار.

وتنفجرُ في هذا اللّئيم البارد الّذي خَدعَك مظهرُه: كيف تسْمَحُ لنفسك أن تتصرَّف في شيء لا تملكه، وتُعيرَ كتاباً أنت مُستعيرُه؟. ولا يُجيبُك اللُّكَعُ بغيرِ ضَحْكَة صفراءَ يتجمَّعُ فيها من صَقيع الصَّفاقة ما لَو وُزِّعَ على آبار طرابلس لجَمَّدَها جميعاً!.

وقد يأتيك شخصٌ تَنْطَبعُ على جبهته سِمَةٌ مُستديرةٌ من كثرة السّجود، ويسْتَدْرِجُك بلسانه الّذي يغْزِلُ الحرير لفَرْطِ لِينِه، ويَطلُبُ منك في لهجةِ خَجلٍ وانكسارٍ كتاباً، فلا يَسَعُك إلاَّ أنْ تستجيبَ لطلبه مُرَحِّباً، وتُعيرَهُ الكتابَ راضياً مطمئنّاً، وترجو من وراء ذلك أنْ ينالَك قَبَسٌ من اللُّمْعَة المطبوعة على جبهته، وتتعرَّضَ لنفحةِ من نفحات بركته، وتَنْتَفِعَ بدعوةِ غَيْبٍ صالحة يدعوها لك.

وبعد مدّة يأتيك هذا الشّخصُ مُتَباكياً مُتظاهِراً بحزن عميق كما تَظاهَرَ إخوةُ يوسف بالحزن عندما جاءوا أباهم عشاءً يبكون، ويُخْبِرُك في مَرارةٍ لا يخفَى على حسّك الصّادق أنّها نَاضِحَةٌ بالكذب، وفي أسفٍ يَنْطِقُ تَصَنُّعُه المفضوحُ بأنّه طافِحٌ بالنّفاق، بأنّه كان في مكانٍ ما ومعه كتابي الّذي استعاره منّي، ثمّ غادر المكان ونسِيَ الكتاب، وما أنساه إيّاه إلاّ الشيطانُ أنْ يَذْكُرَه. وعندما انْتَبَه إلى فَقْد الكتاب فَزِعَ وانْزَعَج، واكْتَرَبَ واضْطَرَب، ووَلَّى مُهَرْوِلاً إلى ذلك المكان لاهِثَ الأنفاس مكلومَ الفؤاد، فلم يجدِ للكتاب أثراً كأنّ الأرضَ ابتلَعَتْه.

وحتّى يُبْرِىءَ صاحبُنا ذِمَّتَه، ويُخَلِّصَ ضميرَه من وَخْز التّأنيب، أبلغَ على الفور الشّرطةَ بالحادث، وزوّدهم باسم المفقود وحَجْمِه ولونِه وأوصافِه الْمُمَيِّزَة، لعلّ دوريَّةً من دَوْريّات الأمن تَعْثُرُ عليه، وتَزُفُّ البشرى إلى ذويه. كما نَشَر صاحبُنا إعلاناً في المكان محلِّ الضَّياع يلْتَمِس فيه من كلّ مَنْ يجد الكتابَ أنْ يُعيدَه إلى صاحبه في العنوان كذا، وله جزيلُ الشّكر، وفوق الشّكر مُكافَأَةٌ سَنيّة.

ونَسِي صاحبُنا أن يَذْكُرَ أنّه قَصَدَ برنامجَ «بريد المغتربين» في الإذاعة لِيُناشِدَ من خلاله الغائبَ أنْ يعودَ إلى أهله، ولِيَتَوَجَّهَ بالرّجاء إلى كلّ مَنْ يعرفُ عنه شيئاً أنْ يُبَلِّغَ أقربَ مركز للشّرطة، والله لا يُضيع أجر من أحسن عملاً.

قل لي بربّك: ماذا يستطيع صاحبُ الكتاب أنْ يفعلَ إزاءَ هذا الكذّاب الأَشِرِ والأَفّاك الأثيم إلاّ أنْ «يَشْرَبَ» مُكْرَهاً مَشْهَدَه التّمثيليَّ السّخيف، ويبتلعَ الحسرةَ على كتابه الّذي ذَهَب ولن يعود؟. هل على صاحب الكتاب من لَوْم بعد ذلك إذا كَوَى يدَه بالنّار حتّى لا تمتدّ مرّةً أخرى إلى كتاب تُعيره لمخلوق لا يعرفه، ولو رآه يمشي على الماء، أو يطيرُ في الهواء، أو يبتلعُ المسامير،

أو يشُقّ بطنَه بسكّين، أو يُعلّق في رقبته ألف مِسْبَحة، أو يَطْبَع على جبهته مئة لُمْعَة؟

وقد تُعير شخصاً كتاباً في حالة جيّدة من الصّحّة والسّلامة والنّظافة، فإذا صادفَ أنْ ردَّه إليك بعْد لأَيٍ وعَنَت ومُمَاطَلَة، وجدْتَ الكتابَ غيرَ الكتاب: مُتَغَيِّر اللّون من كثرة ما تراكم عليه من وَسَخ، أو مَخْلوعَ الغلاف أو مُمَزَّقَ الأوراق أو مُفَكَّكَ الْمَلازِم. وقد تجدُ الكتابَ مُشَوَّهاً بخطوط ورُسومات وآثارٍ من عَبَث الأطفال به. وقد تجدُه مُشْبَعاً بدُهْن كأنّ صاحبَنا كان يغْتَرِف به الزّيت، أو مُلَطَّخاً ببقايا طعام كأنّه اسْتَعْمَلَه مكانَ الْمِلْعَقَة في الأكل، أو مُلَوَّثاً بشيء كريه يَعِفُّ قلمي عن ذكره.

هذه «عَيِّنات» من سيّئات الإعارة للكتب، وهي كلُّها صادقة، وكلُّها مُسْتَخْلَصَةٌ من واقع عِشْتُه أو عاشَه غيري، وليس فيها من الزّيادة إلاّ ما يقتضيه التّصويرُ من وصف وتشبيه، أو ما تستَلْزِمُه صَنْعةُ التّشويق بتَطْرِيَة الكلام ببعض الْمُلَح والْمُفارَقات.

هناك بطبيعة الحال استثناءات، فكثيرون ممّن تربِطُني بهم أُخُوَّةٌ راسِخةٌ أو صداقةٌ متينةٌ أُعيرُهم ما يطلُبُون من كتبي وأسْتعير منهم، وأثِقُ بدينهم وأمانتهم كثقتي بنفسي، ويُحافظون على كتابي كما أُحافِظُ عليه.

ومن المهمّ أنْ أذكُرَ أنَّ امتناعي عن إعارة مَنْ لا أثِقُ به كتبَ مكتبتي، لا يعني أنّي أَضِنُّ بمعارفها على من يطلُبونها، وأحْبِسُ سحائبَ كَرَمِها عن أنْ تَجُودَ بفُيوضات خيرها على الْمُتَعَطِّشِين للعلم، فأنا أومِنُ أنّ المكتبَةَ نِعْمة، والنّعمةُ تستَوْجِبُ الشّكر، ومِنْ شُكْرِ نعمةِ المكتبة أنْ يَعُمَّ نَفْعُها، ويَنْتَشِرَ نورُها، ويَتَوَزَّعَ بِرُّها. وأُومِنُ أنّ المكتبةَ ثَرْوَة، وفي الثّروة حقُّ الزّكاة، وزكاةُ

المكتبة أنْ يُبْذَلَ عطاؤها لسائليه، ويصلَ خيرُها إلى محروميه. وعندي أنّ الّذي يَكْنِزُ علْمَ المكتبة ولا ينفِقُه في سبيل المحتاجين إليه، كمَن يَكْنِزُ الذّهبَ والفضّةَ ولا يُنْفِقُهما في سبيل الله؛ كلاهما بَخِلَ بِما آتاه اللّهُ من فضله، وكلاهما أَخَلَّ بوظيفة ما جَعَلَه اللّهُ مُسْتَخْلَفاً فيه، وكلاهما حَجَّرَ ما يجبُ أنْ يكونَ دُولَةً بين النّاس جميعاً.

لذلك لا أرُدُّ طالِبَ كتاب أمْلِكُه، ولا أُقْفِلُ مكتبتي في وجه من يريدُ الانتفاعَ بها. وطريقتي في ذلك أنْ أُحَدِّدَ له موعداً يناسِبُه ويُناسِبُني لِيُشَرِّفَني زائراً كريماً في بيتي، فإذا جاء استَقْبَلْتُه بتَرحاب، واسْتَضَفْتُه في حَفاوَة، وفتحتُ له صدري ومكتبتي، وقدّمْتُ له ما يريد من كتب ومراجعَ عندي، وقد أقترحُ عليه كتباً تتّصِلُ بموضوع بحثه لم يطلُبْها، وقد أُوَجِّهُه إنْ كان محتاجاً إلى توجيه. وبالجملة أضع مكتبتي تحت تصرُّفه، وأضَعُ نفسي تحت إمْرَته، وأُوَفِّر له ـ بقدر ما أستطيع ـ جوَّ الهدوء الّذي يساعده على التّركيز والاِسْتِيعاب والتّسجيل، ولا أتضايَقُ مهما شَطَّ في طَلَباته، ولا أَتَذَمَّرُ مهما أَلَحَّ في أسئلته، ولا أُحَدِّدُ له وقتاً يقضيه في ضِيافتي إلاّ أنْ يُحَدِّدَه هو. ويَشْهَدُ اللّهُ أنّي أفعلُ ذلك عن رضا نفس، وطمأنينةِ بال، وحماسةٍ صادقة، ورغبةٍ مخلصةٍ في خدمة طلبة العلم وأهلِه، ولو تكرّرَتْ زيارةُ الزّائر مرّات، ولو اقْتَطَعَ من وقتي ما اقتطع.

وبهذه الطّريقة أكونُ قد حِفِظْتُ مكتبتي من شرّ الإعارة وبَلائها، وأمَّنْتُها من امتداد أيدي اللّصوص إليها، وأرجو بذلك أنْ أكونَ قد شكرتُ نعمتها، وأدّيْتُ زكاتَها، وأوْفَيْتُ بحقّها.

أمّا بعد:

فقد قالوا قديماً: مَنْ أحبَّ شيئاً أكْثَر من ذِكْرِه، وقد أكْثَرْتُ في هذه الصّفحات من ذكر مكتبتي لأنّي أحبّها. وآمُل أنْ أكونَ قد حبَّبْتُ المكتبة إلى قلوب النّاس جميعاً، لأنّهم إذا أحبّوها اقْتَنَوْها، وإذا اقْتَنوْها ازْدانَتْ بيوتُهم بأفضلِ ما تَزْدانُ به البيوت، وجَنَوْا منها ثمراتٍ ومنافعَ لا يجدونها في غيرها، وكانت بركةً تعُمُّهم، وتَطْرُدُ الشّيطانَ عنهم.

سـيّـارتـي

تقادَم عليها العهدُ كما يتقادَم على أثَرٍ تاريخيٍّ يَحْمِلُ على كاهِله عِبْءَ السّنين، وأَرْهَقَها طولُ الخدمةِ كما يُرهِقُ الْعملُ الموظّفَ القديمَ الْمُتَجاوِزَ سِنَّ التّقاعد، وبلغتْ أرْذَلَ العُمُر الّذي لا يَطِيبُ فيه عيْشٌ ولا تَلَذّ معه حياة.

حلَّتِ الشّيخوخةُ بساحتها كما يحِلُّ ضَيفٌ ثقيلٌ لم يَدْعُه أحد، وتزاحَمَتْ عليها أصنافُ الْعِلَل حتّى لم يبق فيها عُضوٌ لم يُوهِنْه المرض، واسْتَنْزَفَتْ من النّفقات كما يَسْتَنْزِفُ كِيسٌ مثقوبٌ لا يسْتَقِرُّ فيه دِرهم.

كانت في شبابها تَهْمِس بصوتها هَمْساً في إيقاعٍ خفيفٍ كأنّها تَعْزِفُ مقطوعةً موسيقيّةً جميلة، واليومَ تَضِجُّ ضجيجاً مُخْتَلِطاً بحَشْرَجَةٍ كأنّها تَنْتَحِبُ على شبابها الآفِلِ وحَيَوِيَّتِها الضّائعة.

كانتْ هادِئةَ الحركة لا تكاد تَسْمَعُ لها حِسّاً حتّى لكأنّها كانتْ تتَصَنَّع الوَقارَ وتَتظاهَرُ بالسّكينة، وهي الآنَ تَرْتَعِشُ كما تَرْتَعِشُ أطْرافُ عجوزٍ مُصابَةٍ ببردٍ قديم يَنْخَرُ عِظامَها.

كانت لَيِّنةً في سيْرها كأنّها تَسْبَحُ في فضاء أو تَنْسابُ على بساطٍ من حرير، فغَدَتْ تَتَرَنَّحُ في سَيْرها كما يترنَّحُ السَّكْران، وتَغْمِزُ في مِشْيَتها كما يَغْمِزُ الأعْرَجُ جِهَةَ اليمين وجِهةَ الشِّمال.

كانت لا تنوءُ بثِقَلٍ ولو جاوَزَ حُمولَتَها الْمُقدَّرة لها، فصارَتْ محتاجةً إلى مَنْ يَحْمِلها، وتَوَدُّ لو تَنْقَلِبُ إلى عَجَلَةٍ يَجُرُّها حِصان.

كانت حادّةَ البصر تَخْتَرِقُ بضوئها القويِّ المسافاتِ البعيدة، والآنَ كَلَّ بصرُها حتّى لا تكاد تَنْظُرُ مَوْضِعَ خُطُواتِها القريبة.

كانت لا تَسْمَحُ لِمِدْخَنَتِها إلاَّ بدُخان ضئيل كأنّها كانتْ تُسْهِمُ بنصيبها في حَمْلَة حِماية البيئة مِن حَوْلِها، واليومَ تَنْفُثُ سحائبَ من دُخان يَخْنُقُ الأنفاس، ويُفْسِدُ الهواء، ويُلوِّثُ البيئة.

كانت ناعمةَ الطِّلاءِ كنُعومَة بَشَرَةِ فتاةٍ ريّانَةِ الشّباب، فأصبحتْ خَشِنَةً مُتَشَقِّقَةَ الطِّلاَءِ كَتَشقُّقِ سَطْحِ أرضٍ لم تُحْرَثْ منذُ سنين.

كانتْ مُشْرِقةَ الوجه تَشِعُّ ببريقٍ يَبْهَرُ الأبصار، ثمّ كَلَحَ وجْهُها وانْطَفَأَ بريقُها كما ينْطَفِئُ سِراجٌ انْقَطَعَتْ عنه طاقةُ الوَقود.

كانت صُلْبَةَ الْعُود قويَّةَ البُنيان لا تنالُ منها الصَّدَمات، فأصبحتْ واهنةَ العظم، ضعيفةَ الهَيْكل، أَكَلَ حديدَها الصَّدَأُ كما يأكُلُ السُّوسُ لُبَّ الخَشَب. كانتْ تجْتَذِبُ أنْظارَ النّاس إليها كما يَجْتَذِبُهم مَنْظَرٌ بديعٌ يَسْتَهْويهم برَوْعَتِه وجماله، وهم اليوم يَكْشَحُون وجوهَهم عنها كما يكْشَحُون عن شَمْطاءَ غايةٍ في القُبح والْبَشاعَة.

كنتُ وأنا أقودُها أُباهِي بها كما يُباهِي الفارسُ بجواده الأصيل يَمْتَطِي صَهْوَتَه، فصِرْتُ وأنا أقودُها أخْجَلُ منها كما يَخْجَلُ المرْءُ من عاهَةٍ تَسوءُه.

كانتْ في أيّامها الْخوالي تُسابقُ الرّيحَ ويُحاكيها الْغزالُ في سرعتها، وهي في أيّامها الأخيرة تُسابقُ السُّلَحفاةَ وتُحاكيها النّمْلَةُ في دَبيبها.

كانتْ في عُنفُوان قوّتها تكتفي باليسير من النِّفْط تُقيمُ به صُلْبَها كأنّها

مُلْتَزِمَةٌ نِظاماً غذائيّاً صارماً يُحافِظُ على رَشاقتها، والآنَ لا تكْفِيها البراميلُ من النِّفْط كأنّها أُصيبَتْ بهَلَعٍ لا تَشْبَعُ معه من جوع.

كانتْ لا تستَهْلِكُ من الزّيت إلاَّ القليلَ تُرطِّبُ به مَفاصِلَها وتُلَيِّنُ عُروقَها، فصارتْ تَمْتَصُّ من الزّيت كما تَمْتَصُّ رمالُ الصّحراء الْعَطْشَى الماءَ الّذي يُصَبُّ فيها.

كانت تَنْتَفِعُ بما يُلْقَى في جَوْفِها من السَّوائل لا تُضَيّعُ قَطْرَةً كأنّها رَبَّةُ بيتٍ مُقْتَصِدَةٌ لا تعرِفُ التَّبذير، واليومَ تُبَعْثِرُ مَخْزونَها كما يُبَعْثِرُ السّفيهُ ما لَه، وتتسَرَّبُ السّوائلُ من ثُقُوبها وشُقوقها كأنّها تُعاني من حالةِ إسْهالٍ مُزْمِن.

كانت تسْتَيْقِظُ في الصّباح بأدْنَى لَمْسَةٍ من مِفتاحِها، وتَهُبُّ نشِطةً تُزاوِلُ التّمرينَ الرّياضيَّ لِمُحَرِّكها، وما هي إلاَّ لَحظاتٌ حتَّى تَدِبَّ فيها الحرارة، وتتهيّأَ لعمل يومها الجديد، ثمّ تنطلق مُنْدَفِعَةً باسم الله غُدُوُّها ورَوَاحُها.

وانتهتْ إلى حالةٍ تَعْجِزُ فيها عن مُزاوَلَة رياضتها الصّباحيّة كأنّما شُلَّتْ أعضاؤها شَلاًّ، ولا تَسْتَيْقِظُ بضَرَبات المفتاح الّتي تَطْرُقُها بقوّة وتُلِحُّ على تنبيهها إلحاحاً، وتَظَلُّ مع كلّ ضرْبَةٍ تَئِنُّ في إجهادٍ مُحاوِلَةً التَّغلُّبَ على ضَعْفها، وتَرْتَجِفُ في إرهاقٍ لَعلّها تتَحَرَّرُ من النّوم الّذي يَفْرِضُ سُلطانَه عليها، وتتَوجَّعُ في إنْهاكٍ كما يتوجَّعُ مريضٌ برَّحَتْ به الآلامُ تَبْريحاً..

ثمّ إذا بلَغ الإجهادُ منها غايتَه، وهَدَّ الإعياءُ كلَّ مقاوَمَة فيها، وسَخِرَ النّومُ من مُحاوَلَة تحرُّرِها من سُلطانه، ثَقُلَ لسانُها كما يثْقُلُ لسانُ الْمُحْتَضِر، وتراجَعَتْ رَجْفَتُها كما تتراجَعُ رَجْفَةُ ذَبيحةٍ اسْتَفْرَغَتْ دَمَها، وتَمَطَّطَ أنينُها كما يتمَطّطُ صوتُ شريطٍ مَسموعٍ يُدارُ بأبْطأَ من سرعته المطلوبة، ثمّ تَزْفِرُ آخِرَ زَفَراتِها كما يَفْعَلُ الْمُفارِقُ للحياة.

ولا أجِدُ في هذه الحالة مَفَرّاً من دعوة أهلِ الشّهامة والرّحمة بالضّعيف لِيتطَوّعوا مشكورين بدَفْعها دَفْعَةً قويّةً حتّى تَسْرِيَ الحرارةُ في أوصالها، وتستعيدَ أنفاسَها الضّائعةَ منها، وتسْتَيْقِظَ في تَثَاقُلٍ كما يَسْتَيْقِظُ الْمُغْمَى عليه.

وفي أوقاتِ اشْتداد عِلَّتِها وبُرودَة مَفاصِلِها في أيّام الشّتاء، تَرْفُضُ أنْ تُفيقَ من حالة الإغماء، ولا يُفيدُ في إيقاظها دَفْعٌ ولو بصاروخٍ من الصّواريخ حامِلَةِ الأقمار الصّناعيّة إلى الفضاء الفسيح.

وأَشَدُّ ما يكونُ الْبَلاءُ عليها، أنْ يَقُودَها سوءُ حظِّها إلى طريقٍ صاعِد، حيث تسْتَنْفِدُ كلَّ طاقَتِها، وتسْتَهْلِكُ كُلَّ جَهْدِها، وَتَتَشَبَّثُ عَجَلاتُها بالطّريق كما يَتَشَبَّثُ مُتَسَلِّقُ الجبل بنُتُوءات الصَّخْر مَخافَةَ السُّقوط، ويعلُو صُراخُها كأنّها تَسْتغيثُ وَتَسْتَنْجِدُ ذوي المُروءة لإنقاذها من مِحْنَتِها، ويرتَفِعُ دُخانُها كما يرتفِعُ دُخانُ سفينةٍ تَمْخُرُ عُبابَ المُحيطِ، وتَنْطَلِقُ من مِدْخَنَتها أصواتٌ قويّةٌ مُتَقَطِّعَةٌ كأصوات الْغازات الْمُنْطَلِقَة من جَوْفِ دابّةٍ بالَغَتْ في أكل الشّعير.

ولا يُفَرِّجُ عنها هذا الكَرْبَ إلاّ دخولُها في طريقٍ هابِط تَرْتَمِي في أحضانه كما يَرْتَمِي الطّفلُ الخائفُ في حِضن أمّه، وتُسْلِمُ إليه قيادَها كما يُسْلِمُ المَحْجُورُ عليه شُؤونَه إلى وليِّ أمره، فَيُهَدِّىءُ الانْحِدارُ من رَوْعها، ويُسْكِتُ الاستسلامُ صُراخَها، ويَجْذِبُها الهُبوطُ جَذْباً سريعاً يُذَكِّرُها بسرعتها في أيّام عِزِّها.

ولمّا أعْيَتْني معها الْحِيلةُ وأقْعَدَها الْكُساح، ونالَتْ منها السّنونَ وأثْخَنَتْها الجراح، قمتُ بآخِر مُحاوَلَةٍ أُبْرِىءُ بها نحوَها ذِمَّتي، لأنّي كنتُ أخشى أنْ يُقالَ إنّي أكَلْتُ شبابَها وامْتَصَصْتُ قُوَّتَها وَنَضارَتَها، ثمّ تخلّيْتُ عنها في وقت عَجْزِها وشيخوختها، وذلك عُقوقٌ ليس من شِيمَتي، وتَنَكُّرٌ ليس من أخلاقي وطبيعتي. فاستَدْعَيْتُ لها طبيباً ماهراً مُخْتَصّاً بأمراضها، فَجَسَّ نَبْضَها، وفَحَصَ

أجهزتَها، ودقَّقَ في أسباب عِلَلِها، وصارَحني بأنْ لا أملَ في شفائها، ولا سبيلَ إلى علاجها، وأنّها محسوبَة في عِداد الأموات حيث بلغَتْ من الْكِبَر عِتيّاً، والأَسْتَرُ لي ولها أن تُشيَّعَ إلى مقبرة السّيارات لِتَسْتَريحَ فيها اسْتراحَتَها الأَبَدِيّة.

ووقفتُ أمامها لَحظةً حَزينَ القلب عليها كأنّي فَقَدْتُ صديقاً يعزُّ عليّ فِراقُه، أو خَسِرْتُ رفيقاً أَنِسْتُ زَمَناً طويلاً بصُحْبَته، ولولا خوفُ الْمَلامَة وأنْ يُقالَ إنّي أبكي على «خُرْدَة» رَميم، لأَرْسَلْتُها دَمْعَةً تُتَرْجِمُ عن تقديري لِعِشْرَتِها الطّيِّبَة ووَفائي لعهدها القديم.

فأنا لا أنْسَى أنّها أَعْطَتْني شَبَابَها وأخْلَصَتْ لي في خدمتها، وأراحَتْني بتعَبها وطَوَّقَتْني بجميلها، فكم طَوَتْ لي المسافاتِ البعيدةَ وهَوَّنَتْ عليّ وَعْثَاءَ السّفر، وكم حَفِظَتْ لي ماءَ الوجه وأغْنَتْني عن ذُلِّ الحاجة إلى البشر، وكم يَسَّرَتْ لي صِعاباً ورَبَطَتْني بعلاقات، وكم وَفَّرَتْ لي الجهودَ واخْتَزَلتِ الأوقات، وكم قَضَتْ لي أوْطاراً وحققتْ من مآرِب، وكم لَبّتْ لي من رغبات وأَسْعَفَتْني بِمَطالِب!.

وكانت في كلّ عمرها مِطْواعةً لا تَعْصي ما به تُؤْمَر، ذَلولاً مُسخَّرَةً لا تشكو من تَعَب ولا تتذَمَّر، صَبوراً تحمّلتْ أذَى الْحُفَرِ الْمُنْتَشِرَة في طُرُقات طرابلس كما تَنْتَشِرُ آثارُ الْجُدَرِي في وجه الْمُصاب به قديماً.

وإذا كانتْ قد أَتْعَبَتْني في أيّامها الأخيرة وسَبَّبتْ لي مُنَغِّصَات، فذلك لتقدُّم سنّها وتكاثُر عِللها وفسادِ الطّرقات، وتلك سُنّةُ الله في الأشياء: كلُّ نجم إلى أُفول، وكلُّ زَهْرةٍ إلى ذُبول، وكلُّ مخلوقٍ إلى زَوَال، ودوامُ الحالِ من الْمُحال.

وليس من المروءة أنْ يغُضَّ المرءُ الطَّرْفَ عن الحسنات، ولا يَحْصِرُ هَمَّهُ إلاَّ في تَتَبُّع السّيّئات. ومن الظّلم كلِّ الظّلم أنْ ينشُرَ القبيحَ ويطْوِيَ المليح، ويُحاسِبَ على الخطأ ولا يُحاسِبَ على الصّحيح. ومَن كان كذلك فهو جاحدٌ عنيد، وحَكَمٌ غيرُ رشيد، ولو في حقّ سيّارةٍ من حديد..

وأنا والحمد لله لستُ من الجاحدين.

فهرس

حسن يوسف المؤمني



جمعية الدعوة الإسلامية العالمية